صاحب الكتاب الأكثر مبيعًا

" مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ "

جهاد التُّرباني

101 لغز بربروسا

محمد رجب





جهاد التُّرباني

دار التَّقوى

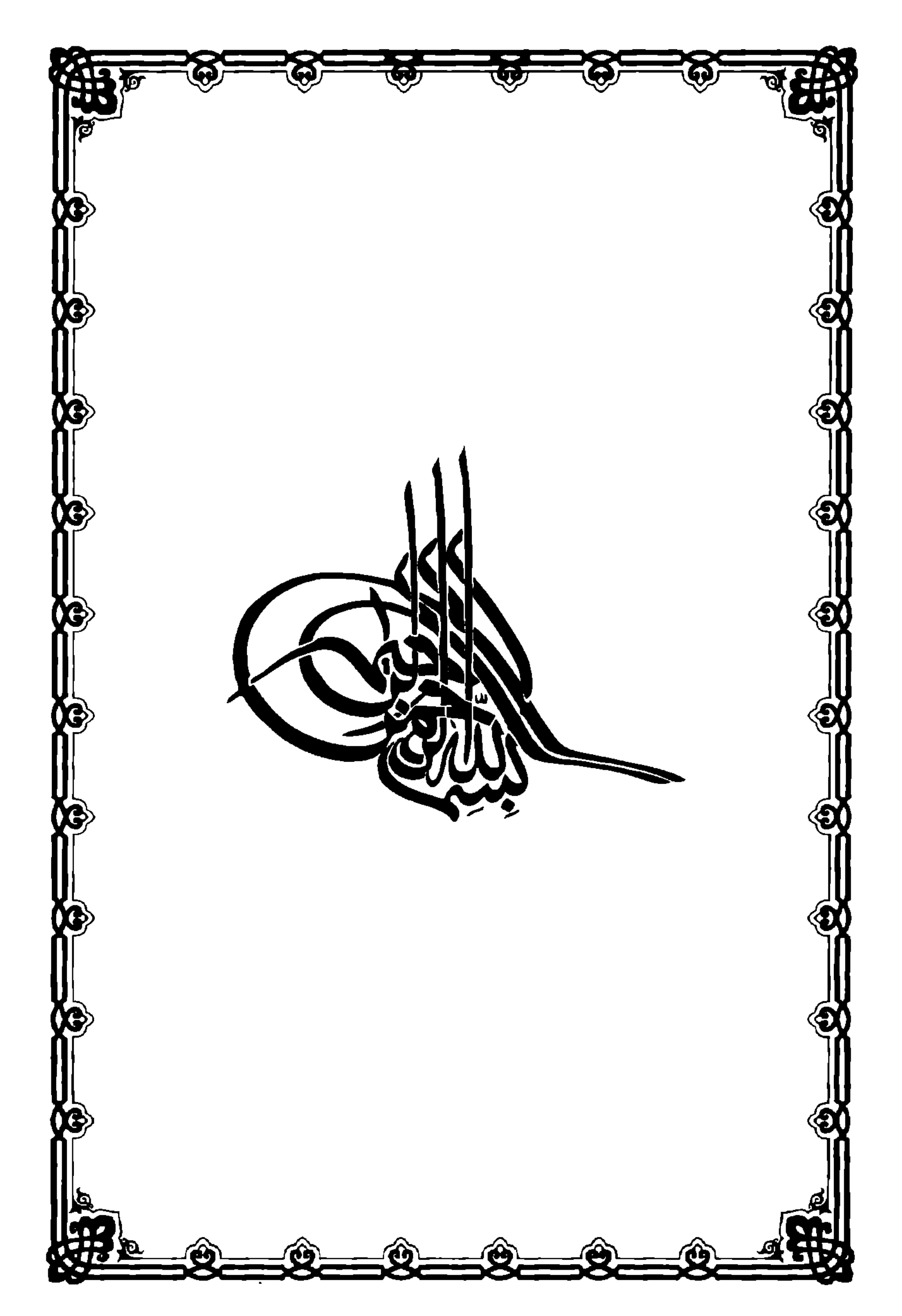


اسم الكتاب : 101 لغز بربروسا
تأليف : جهاد الترباني
القطع : ١٥ × ٢١
عدد الصفحات : ٢٨٨ صفحة
سنة الطبع : ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م (طبعة جديدة)
الناشر : التقوى للطباعة والنشر والتوزيع
طباعة : التقوى للطباعة والنشر والتوزيع

رقم الإيداع : 2347/ 2018
الترقيم الدولي: 4-476-429-977-978

دار التقوى
للطبع والنشر والتوزيع

٨ ش البيطار - خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤١٧٠٤ / ٤٤٧١٥٥٠٦ /٠٠٢٠٢ ٠١٠٠٠١٥٩٢٢٧١
E-mail: dar_altakoa@hotmail.com
dar_altakoa@yahoo.com


بسم الله الرحمن الرحيم

مكالمة غير متوقعة بعد منتصف الليل

- مرحبًا 101، هذا أنا، أرجوك اتصل بي مباشرة بعد سماعك لهذه الرسالة الصوتية، الأمر طارئ جدًّا!

كانت الساعة قد اقتربت من الثانية عشرة والنصف من بعد منتصف الليل بتوقيت غرينتش، عندما اتصل شخص على هاتف نضال المحمول لأكثر من مرة من رقم مجهول، قبل أن يبعث بتلك الرسالة الصوتية التي دفعت نضال لمعاودة الاتصال بصاحبها في ذلك الوقت المتأخر من الليل:

- أولًا ما هذا الإزعاج بعد منتصف الليل؟ وثانيًا ألا يكفي أنك تتصل بي من رقم مجهول؟! على الأقل عرف عن نفسك في رسالتك الصوتية، كان بإمكانك أن تقول «أنا عبد العزيز» بدلًا من قولك «هذا أنا»، وثالثًا وهو الأهم حمدًا لله على سلامتك، متى رجعت من المغرب؟

- سلمك الله يا نضال، وصلت قبل نحو ساعة إلى مطار هيثرو، ولكن عن أي إزعاج تتحدث؟ منذ متى صرت تنام قبل الفجر؟ هل صرت من بعد سفري مثل باقي البشر الطبيعيين تنام في الليل

وتستيقظ في النهار؟! ثم إن السؤال الأكثر أهمية من كل أسئلتك هو لماذا لم ترد على اتصالاتي المتكررة قبل قليل؟!

ابتسم نضال ثم أجاب بنبرة ساخرة:

- أنت تعلم أنني لا أجيب في العادة على المكالمات مجهولة المصدر، ولكنني منذ معرفتي بشاب مغربي غريب الأطوار يخفي دائمًا رقم هاتفه المحمول عند الاتصال، تنازلت عن مبادئي للأسف وأصبحت أرد على مثل تلك المكالمات المجهولة، وذلك لكي لا أفقد التواصل مع هذا الشاب المهووس بنظرية المؤامرة وعالم التجسس، خاصة وأنه لا يستعمل أيًّا من وسائل التواصل الاجتماعي الأخرى لأنها حسب رأيه تستخدم للتجسس على الناس، ونظرًا لأن هذا الصديق أراحني من جنونه مؤقتًا وسافر في إجازة إلى بلده منذ أسبوع، ولأنه أخبرني قبلها أنه سيمكث هناك حتى نهاية الشهر القادم، فقد قررت أن أريح نفسي في غيابه من عناء الرد على المكالمات المزعجة لشركات التسوق عبر الهاتف، والتي عادة ما تتصل من أرقام مجهولة.

- للأسف لم أستطع إكمال إجازتي هناك، درجات الحرارة في خريبكة صارت لا تطاق.

- أتركت صيف المغرب الجميل وتركت أمك وطعامها الشهي لكي تعود إلى الضباب والمطر وأكل المطاعم؟! مرحبًا بك في لندن يا صديقي! بالمناسبة يا عبد العزيز، ما هو هذا الأمر الطارئ والخطير الذي لا يحتمل الانتظار إلى الصباح؟

- دع عنك هذه السخرية يا نضال، الأمر في غاية الجدية، فبمجرد عودتي إلى شقتي أخذت أقلب بالبريد الذي وصلني أثناء فترة سفري، فوجدت بين الرسائل ظرفًا بريديًّا لم يكتب صاحبه عنوانه أو اسمه عليه، وعندما فتحت الظرف وجدت داخله ورقة قديمة، مرسوم عليها أرقام وأشكال وكلمات غريبة لم أفهم منها شيئًا.

- أرقام وأشكال وكلمات غريبة؟! تساءل نضال.

- نعم، ففي الأعلى يوجد رقم وبجانبه عبارة «يا محمد» مكتوبة بالعربية، وبعد ذلك يوجد شكل هندسي يشبه الفرجار الذي يرمز للماسونية، ومباشرة أسفل منه توجد نجمة خماسية، وفي الأسفل مربع مخطط وفي منتصفه دائرة، وتحت المربع أحد الأبيات الشعرية المكتوبة بكلمات عربية قديمة لم أفهم معناها، وفي أماكن مختلفة في الورقة توزعت رموز وأرقام عديدة وكأنها شفرة رقمية!

- شفرة رقمية؟! رموز ماسونية؟! وكلمات بالعربية لم تفهم معناها؟! يبدو يا صديقي أن إرهاق السفر وحرارة خريبكة المرتفعة وقبل ذلك كله روايات التجسس التي عادة ما تقرأها أثناء سفرك قد جعلتك تتخيل أشياء غريبة، أقترح عليك أن تأخذ حمامًا دافئًا وتخلد إلى النوم بعدها، وغدًا صباحًا إن شاء الله نتحدث في شأن هذه الرسالة التي وجهها لك شخص مجهول لم يكتب اسمه ولا عنوانه.

- نضال، استمع إلي جيدًا، صحيح أن هذه الرسالة وصلت إلى بريدي، ولكنها ليست موجهة لي، إنها موجهة لك أنت!

- موجهة لي أنا؟! هل اسمي مكتوب في تلك الورقة المشفرة؟

- كلا، ولكن في أعلى الورقة وقبل كل شيء كتب بخط كبير الرقم «101».

- ماذا؟! هل أنت متأكد مما تقوله يا عبد العزيز؟ تساءل نضال وقد أصبح صوته أكثر جدية.

- متأكد تمامًا.

- أمر غريب بالفعل! على أي حال أخبرني، هل أنت جائع؟

- تناولت وجبة خفيفة في الطائرة منذ عدة ساعات، ولكنك تعلم كيف هو طعام الطائرات، كنت سأطلب وجبة سريعة من أحد المطاعم، ولكني أجلت ذلك إلى ما بعد مكالمتك.

- لا تطلب شيئًا، سأحضر أنا لك العشاء، اذهب فقط وخذ حمامك الدافئ، وبعد نصف ساعة من الآن سأكون في شقتك إن شاء الله، لنرى معًا ما حكاية هذه الرسالة الغريبة!

***

«واي فـــــاي»

WiFi

كانت الساعة قد اقتربت من الواحدة صباحًا، وكان الطقس عاصفًا في تلك الليلة الصيفية الماطرة من ليالي لندن، عندما توجه نضال إلى شقة صديقه عبد العزيز راكبًا على دراجته الهوائية، فمنذ أن أنهى مكالمته مع عبد العزيز، أخذ نضال يفكر بأمر تلك الرسالة التي أيقظت فيه ذكريات طفولته، فانتقل بمخيلته إلى مكان وزمان آخرين، لدرجة أنسته أن يلبس معطفه الواقي من المطر أو أن يحمل مظلته معه، وما أن وصل إلى شقة عبد العزيز حتى سلم عليه سلامًا سريعًا، وناوله طعام العشاء الذي أحضره له، وطلب منه أن يريه الرسالة التي وصلته.

-ولكن يا نضال، انظر إلى نفسك في المرآة! قال عبد العزيز وهو يضحك.

-يا إلهي! لم أنتبه أنها كانت تمطر في الخارج! المعذرة يا عبد العزيز لأنني أغرقت مدخل شقتك بملابسي المبتلة.

-لا عليك يا صديقي، اذهب إلى غرفتي وبدل ثيابك، ستجد

منشفة جديدة معلقة على الباب، وعلى السرير ستجد حقيبة السفر، افتحها وستجد الجلابة المغربية التي طلبتها مني، لونها ذهبي كما طلبت، سافرت إلى مراكش خصيصًا لأشتري لك قماشها، وقامت أمي بتفصيلها وخياطتها على مقاساتك التي أعطيتني إياها، وإن أردت أن تلبس شيئًا آخرًا فافتح خزانتي واختر ما تريد، وبعد أن تبدل ثيابك، تعال إلى المطبخ لنتناول العشاء معًا.

-شكرًا لك يا عبد العزيز، وسأقوم غدًا إن شاء الله بالاتصال بأمك الغالية لشكرها، سأغير ثيابي الآن وآتيك في الحال، تناول أنت طعام العشاء، فقد سبقتك منذ ساعات.

كان نضال يقلب الرسالة بين يديه ويتأمل فيها دون أن ينطق بأي حرف، بينما كان عبد العزيز يتناول طعامه وهو ينظر إلى صديقه منتظرًا منه أن يعلق بأي شيء، وكانت قطرات المطر المنهمرة من سماء لندن تضرب زجاج النافذة بشكل منتظم، وبين الحين والآخر كان هزيم الرعد يكسر صمت المكان، وبعد مرور ما يقرب من عشر دقائق على هذا الحال، نفد صبر عبد العزيز، فقام بسؤال نضال:

-هل فهمت ما تعنيه هذه الرسالة؟

-رسالة غريبة حقًّا، لا أخفيك سرًّا يا عبد العزيز، في بداية الأمر كنت أظنها مجرد مزحة منك، ولكن بعد تفحصي لها بسرعة وجدت أنها رسالة حقيقية تحتوي على كثير من الرموز ذات الدلالات العميقة.

-أتقصد هذه الأشكال الهندسية التي تحتوي عليها الرسالة؟

-ليس فقط هذه الأشكال الهندسية، فالرمز كلمة أشمل من ذلك، فيمكن للرمز أن يكون على شكل هندسي، أو علامة معينة، حتى الرقم ممكن أن يرمز لشيء، والكلمات والأحرف والحركات قد تشير في بعض الحالات إلى رموز محددة.

-لم أفهم عليك يا نضال!

-الرمز يا عبد العزيز بكل بساطة عبارة عن رسم محدد، أيًّا كان شكله، يشير إلى شيء محدد، أو يدل عليه، أو يمثل فكرة محددة، أو حتى علاقة معينة، فيتيح بذلك للإنسان فهم معناه بمجرد إلقاء نظرة واحدة عليه دون الحاجة إلى كلمات كثيرة لشرحه، فالرمز يختصر كثيرًا من الوقت والجهد لإيصال المعلومة.

-هل لك أن تعطيني مثالًا على ذلك يا نضال؟

-حسنًا، تأمل فقط الرموز في إشارات المرور، كل منها يحمل معنى محددًا يفهم بمجرد رؤية الإشارة، تخيل ماذا يمكن أن يحدث لو

أنه تم استبدالها بلوحات مكتوب عليها ما تعنيه هذه الرموز، حتماً سيفقد السائق تركيزه لكي يقرأ تلك التعليمات التي قد تحتوي على عدة جمل طويلة، وسيتسبب هذا الأمر بوقوع كوارث مرورية، فالرمز الواحد قد يشرح ما لا تستطيع عشرات الكلمات شرحه، لذلك فإننا نستخدم لغة الرموز في كثير من أمور حياتنا اليومية.

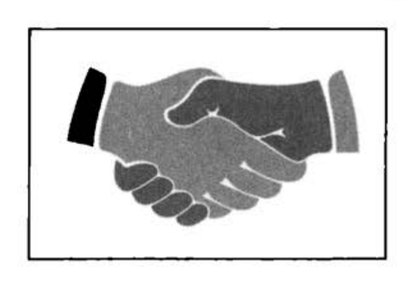
-في كثير من أمور حياتنا اليومية؟! كنت أظن أن المنظمات السرية هي فقط من يستخدم لغة الرموز!

ابتسم نضال في وجه عبد العزيز ثم قال:

-صديقي العزيز عبد العزيز، لقد استخدمنا أنا وأنت للتو لغة رمزية!

-ماذا تعني بذلك يا نضال؟

-عندما دخلت إلى شقتك وتصافحنا باليد، كنا نستخدم لغة رمزية قديمة للتعبير عن السلام، فالإنسان القديم كان يصافح إنسانًا آخر باليد ليظهر كل واحد منهما أنه لا يحمل سلاحًا في يده لقتال الآخر، وقد استمر هذا الرمز للتعبير عن السلام حتى يوم الناس هذا، لذلك فإنك لن تجد أبدًا أعداءً حقيقيين يسلمون على بعضهم البعض باليد، وفور عقدهم للصلح فيما بينهم فإن أول شيء يقومون به هو المصافحة باليد!



-يا إلهي! لم أفكر أبدًا في حياتي أن السلام باليد يحمل كل هذا المعنى الرمزي، هل كل الرموز يا نضال لها معنى مستنبط من شيء موجود بالفعل؟

-ليس بالضرورة، أحيانًا يكون العكس، ففي بعض الأحيان يشتق الإنسان الرمز من شيء موجود بالفعل، وأحيانًا أخرى يخترع الرمز من لا شيء، ثم يصبح هذا الرمز مشهورًا للجميع، حتى ولو لم

يكن له معنى أصلي، فمثلًا رمز تشغيل أو إغلاق أي جهاز كهربائي، والذي يحتوي على دائرة ووسطها خط، هو في حقيقة الأمر عبارة عن رقم 1 ورقم 0، واحد يعني تشغيل وصفر يعني إغلاق.

بينما جائزة الأوسكار على سبيل المثال، لا يحمل اسمها أي معنى رمزي، وتم إطلاق اسم الأوسكار «The Oscar» على التمثال الذي يمنح كجائزة للفائزين من قبل المنظمة الأمريكية المعروفة بأكاديمية فنون وعلوم الصور المتحركة فقط لأن إحدى الموظفات قالت بأن هذا التمثال يشبه عمًّا لها اسمه أوسكار، فرأت الأكاديمية أن الاسم جذاب ومختصر، فأطلقت اسم أوسكار على هذه الجائزة، فأصبح أوسكار رمزًا مشهورًا من لا شيء، نفس الأمر تتبعه كثير من الشركات التجارية، حيث تقوم هذه الشركات باختراع رمز جذاب لمنتجاتها، أحيانًا بمعنى، وأحيانًا أخرى دون أي معنى، وبعد ذلك يقوم الناس بشراء هذه المنتجات فقط لأنها تحتوي على رموز

مشهورة، فالإنسان بطبعه يعشق الرموز، لذلك فإن أول شيء يحرص عليه أي حزب سياسي عند إنشائه هو ابتكار رمز للحزب، ولنفس السبب حرص رجال الدِّين في كثير من الديانات على اتخاذ رموز لهم، ومع مرور الوقت تحولت هذه الرموز الدينية عند أتباع هذه الديانات إلى أشياء مقدسة، فصاروا يتسابقون برسم هذه الرموز ونحت تماثيل على صورتها، ومع مرور الوقت يتحول الرمز عند بعض أتباع هذه الديانات إلى إله، يُصلَّى له وتُقدم القرابين أمامه، وصُنعت الحلي من الذهب والفضة والمجوهرات الثمينة على شكل هذه الرموز لتحمل على الأعناق، اعتقادًا من أتباع تلك الديانات بأن هذه الرموز تحفظهم وتحميهم من قوى الشر المختلفة.

-حسنًا، أعتقد أنني فهمت ما تريد قوله، وأعترف أنني صدمت مما سمعت، فلم أكن أظن أن الرمز يمثل كل هذا الشيء الكبير في حياتنا، والآن هل لك أن توضح لي معنى هذه الرموز الموجودة في هذه الرسالة؟

-لست متأكدًا يا عبد العزيز من معرفتي بكل معنى هذه الرموز، فبعضها ظاهر بوضوح، والبعض الآخر يحتاج لبحث وتدقيق، لذلك

أعتقد أنني في حاجة للتأكد من بعض الأمور، وسأحتاج للبحث قليلًا في شبكة الإنترنت، لذلك سأتركك الآن لإكمال طعامك، فأنت لم تأكل شيئًا منذ أن بدأنا بالكلام عن الرموز، بينما سأقوم أنا بإخراج حاسوبي من حقيبتي ووصِّله بالـ «واي فاي» في شقتك، وبعد أن تكمل عشاءك نلتقي في غرفة الجلوس.

بعد ذلك قام نضال من مقعده وبدأ بالمشي نحو غرفة الجلوس، في حين تناول عبد العزيز بعضًا من الطعام في ملعقته، وقبل أن يضعها في فمه التفت إليه نضال وقال له:

- بالمناسبة يا عبد العزيز، هل تعرف ما يعنيه رمز «واي فاي» «Wi-Fi»؟ المقطع الأول «واي» يرمز إلى الكلمة الإنجليزية «Wireless» وتعني الاتصال اللاسلكي، أما المقطع الثاني «فاي» فليس له معنى، مجرد إضافة وُضعت ليكون هذا الرمز أكثر جاذبية!

* * *

-ما أعجب أمر هذه الرسالة! قال نضال وهو يقلب الورقة بين يديه.

101

61-13 يا محمد

2 5 1

4 6 3

40

من مبلغ الحيين أن مهلهلا

لله دركما ودر أبيكما

356 420

-ما العجيب فيها؟ الأرقام أم الكلمات أم الأشكال الهندسية؟ تساءل عبد العزيز.

-الرسالة بحد ذاتها عجيبة، فهي مكتوبة على ورقة من أوراق البردي، وهذا النوع من الورق قديم جدًّا، كان المصريون القدماء يستخدمونه في تدوين كتاباتهم.

-هل الرسالة قديمة إلى هذا الحد؟ هل هي خريطة لكنز من كنوز الفراعنة؟ سأل عبد العزيز بلهفة.

ابتسم نضال ثم قال:

-لا يا صديقي، ليس هذا ما أقصده، الرسالة كتبت مؤخرًا، وهذا ظاهر بوضوح من خط وشكل الكتابة ورموز الكتابة، وبالنسبة لورقة البردي يمكن لأي شخص شراء ورقة مثلها من أي محل للهدايا، أو حتى من خلال الإنترنت.

-وهل من بعث الرسالة لا يعرف أننا سنكتشف هذا الأمر؟

-بالطبع يعرف ذلك يا عبد العزيز، ولكن ربما أراد كتابة رسالته على ورقة البردي لكي يرمز إلى شيء معين!

-الآن فهمت، من كتبها أراد أن يخبرنا أن هناك شيئًا مخفيًّا في مصر، لذلك استخدم ورقة البردي. قال عبد العزيز.

-أرى أنك بدأت الآن تفهم لغة الرموز يا صديقي، صدقت، ربما كانت مصر ليست هي المقصودة بورقة البردي، ولكن مصر ليست هي الاحتمال الوحيد، فالمصريون القدماء لم يكونوا الوحيدين الذين استخدموا البردي في كتاباتهم، فقد استخدم هذا الورق أيضًا الإغريق والرومان والفينيقيون وغيرهم، لذلك لو كانت مصر هي المقصودة بهذه الرسالة، فقد كان بالإمكان استخدام أي رمز آخر تنفرد فيه مصر، مثل أي إشارة فرعونية أو ما شابه ذلك.

-إذًا فما المقصود باستخدام ورقة البردي في كتابة هذه الرسالة؟

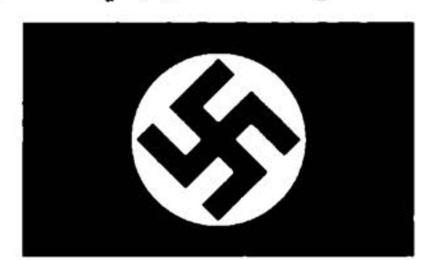
-ربما أراد كاتب هذه الرسالة من استخدام هذه الورقة الإشارة إلى رمزية التاريخ، أي أنه يشير لقارئها منذ البداية وحتى قبل قراءة الرسالة أن رموز الرسالة لها علاقة وثيقة بالتاريخ، وقد استخدمت هذه الأرقام للدلالة على بعض تلك الرموز التاريخية التي أخفيت حقيقتها بأشكال أخرى للتمويه عليها، فمثلًا هذه النجمة الخماسية التي تحتوي على الرقم 6، هي في حقيقة الأمر نجمة سداسية، لذلك وضع الرقم 6 داخلها.

- أتقصد نجمة اليهود؟

-أصغ إلي جيدًا يا عبد العزيز، كل إنسان منا يرى الأشياء بمرآته الخاصة، بمعنى أن الشيء الواحد قد يراه عدة أشخاص بعدة أشكال

مختلفة تبعًا للتجارب والخبرات المختلفة لكل منهم، لذلك فإن عقل الإنسان هو الذي يحدد شكل الأشياء التي يريد أن يراها وفقًا لقناعاته وثقافته، فشكل أي شيء نراه إنما هو في حقيقة الأمر انعكاس لما يريد عقلنا أن يراه!

-هل لك أن تضرب لي مثالاً على ذلك يا نضال؟

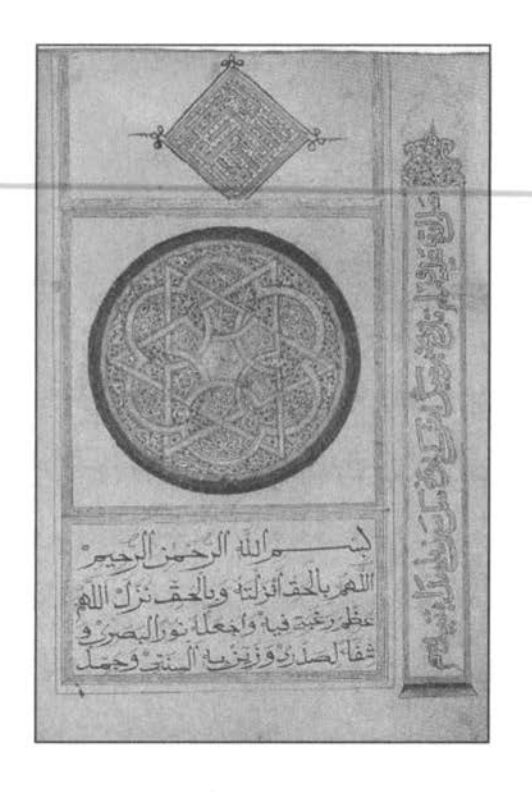




-تأمل في المثال البسيط، جميعنا يعلم شكل الصليب المعقوف الذي استخدمه الزعيم الألماني «أدولف هتلر» كرمز لحزبه النازي، هذا الرمز يراه بعض الناس رمزًا للعنصرية والجرائم النازية، ولكن نفس الرمز يراه بعض الناس رمزًا دينيًّا مقدسًا، فلو نظرت إلى كثير من المعابد الهندوسية والبوذية ستجد هذا الرمز الذي يسمى «سفاتسكا» «Swastika» منقوشًا على جدران تلك المعابد، نفس الشيء مع النجمة السداسية، هذه النجمة ليست حكرًا على اليهود كما يظن البعض، فقد استخدمها أيضًا المسيحيون والمسلمون بل

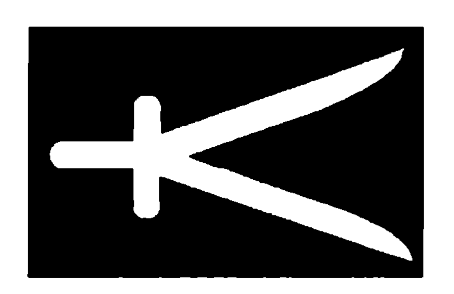
وحتى الوثنيون في رسومهم ونقوشهم، فإذا تأملت الزخرفة الإسلامية التي استخدمت في كثير من المساجد والمباني الإسلامية وحتى العملات المعدنية ستجد أن هذه النجمة السداسية حاضرة بقوة، فقد كانت هذه النجمة تسمى لدى المسلمين بخاتم سليمان، وهو رمز شهير رسم في كثير من الرايات الإسلامية التي ظهرت في التاريخ الإسلامي، وهذه النجمة استخدمت بكثرة في نقوش بلدك المغرب، واستخدمت أيضًا بشكل واسع في أعمال مسلمي الأندلس.





-وماذا عن رمز الماسونية الموجود في المنتصف؟

-تذكر يا صديقي، نحن نرى الأشياء كما تريد عقولنا أن تراها، أنت تقرأ كثيرًا روايات الجاسوسية والمؤامرات الكونية، لذلك قام عقلك بتفسير هذا الرمز كرمز للماسونية، على الرغم من أن رمز الماسونية يختلف عن هذا الشكل، فهو يتكون من شكلين متلازمين هما الفرجار والمسطرة، بينما الشكل الذي تراه في الرسالة ما هو في حقيقة الأمر إلا سيف مزدوج الرأس.



-أتقصد سيف الرسول محمد ﷺ المعروف بذي الفقار؟

-بل أقصد السيف الذي يعتقد البعض أنه ذو الفقار، فالسيف الحقيقي للرسول ﷺ الذي كان يطلق عليه اسم ذي الفقار لم يكن بهذا الشكل، فالفقار باللغة العربية هي جمع لكلمة فقرة، والجمع في العربية أقله ثلاثة، فهو ذو الفقار وليس ذو الفقرتين، أضف إلى ذلك أن الفقار تعنى الفقرات، والفقرات مكانها الظهر وليس الرأس، لذلك يسمى العمود الفقري بهذا الاسم، فالفقار في هذا السيف كانت على سطحه، أي أن سطحه كان مشرشرًا مثل سكين المطبخ، أما السيف الذي يعتقد الكثيرون أنه هو ذو الفقار ما هو في حقيقة الأمر سوى سيف بشفرتين، يشبه نوعًا من الخناجر كان يصنع قديمًا في بلاد فارس، وقد تم الخلط بين ذي الفقار سيف الرسول ﷺ والخنجر ذي الحدين إما بسبب عدم إلمام كامل باللغة العربية، وإما لسبب آخر لا يتسع المقام هنا لشرحه، وعلى أية حال فإن كثيرًا من

المسلمين في السابق كانوا يعتقدون عن طيب نية أن هذا السيف المزدوج الشفرة هو سيف الرسول محمد ﷺ، سيف ذي الفقار الشهير، لذلك كانوا يرسمونه تبركًا.

-أمن أجل هذا السبب وضعت عبارة «يا محمد» في الأعلى مباشرة قبل هذا السيف؟

-هذه العبارة ناقصة يا عبد العزيز!

-ماذا تقصد بأن هذه العبارة ناقصة؟!

-تمعن يا عبد العزيز بالرقمين 61:13 الموجودين على يمين عبارة «يا محمد»، هذان الرقمان يرمزان إلى كلام محدد يكمل عبارة «يا محمد»، ولهذا وُضع الرقمان مباشرة على يمين العبارة، ولم يوضعا فوقها أو تحتها، والآن يا صديقي، أنت حافظ للقرآن الكريم، هلّا ساعدتني وأخبرتني ما هي الآية رقم 13 في السورة رقم 61؟

-السورة رقم 61 هي سورة «الصف»، والآية 13 هي:

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

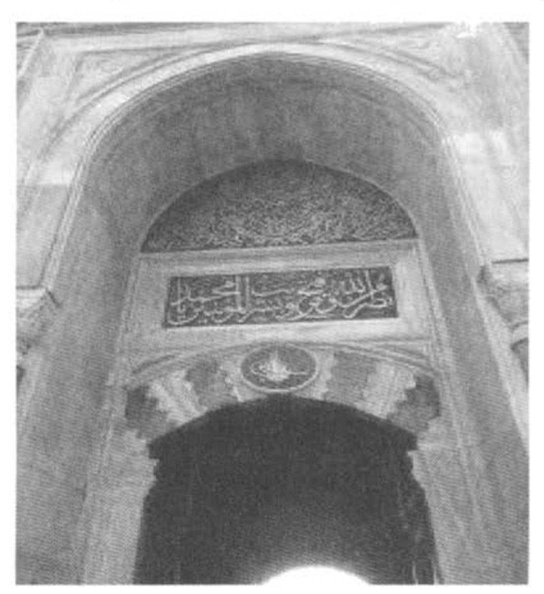
-العبارة الموجودة في الأعلى هي «وبشر المؤمنين يا محمد».

قال نضال.

-ولكن لماذا أخذت آخر مقطع فقط من الآية؟

-لا تنسَ يا عبد العزيز أننا نرى الأشياء وفقًا لتجاربنا الخاصة،

هل تتذكر قبل ثلاث سنوات عندما سافرت في إجازتي الصيفية إلى إسطنبول؟ أثناء زيارتي تلك ذهبت إلى مسجد محمد الفاتح في إسطنبول، وهناك لاحظت عدة نقوش على جدران المسجد وسقفه، من ضمن تلك النقوش عبارة «وبشر المؤمنين يا محمد»، فاعتقدت أول الأمر أنها آية من القرآن الكريم، وذلك بسبب طريقة كتابتها التي تشبه كتابة آيات المصحف، وبالرغم من أن لدي مشكلة في الحفظ كما تعرف، فقد كنت متأكدًا بأن هذه العبارة لم ترد في القرآن الكريم، ولأتأكد من ذلك سألت إمام المسجد بعد الصلاة، فأخبرني ذلك الإمام التركي الذي كان يتقن العربية بأن عبارة «وبشر المؤمنين يا محمد» هي عبارة مشهورة استخدمها العثمانيون.



- حسنًا، وماذا عن بقية الأرقام الموجودة حول السيف؟

- الرقم 1 يرمز إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والرقم 2 رمز للخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والرقم 3 يرمز إلى ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه، أما الرقم 4 فهو رمز علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الخليفة الراشد الرابع.

-وماذا عن الرقم 5 المكتوب بخط أصغر على جانب السيف؟

تساءل عبد العزيز.

-5 هو رمز لقبضة اليد، وهو رمز كان بعض العثمانيين يستخدمونه للإشارة إلى الرسول والأربعة من آل بيته الذين ضمهم في حديث الرداء الشهير، وهم ابنته فاطمة رضي الله عنها، وزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والسبطان الحسن والحسين رضي الله عنهما.

نظر عبد العزيز في عيني نضال باستغراب دون أن يعلق بأي كلمة، واستمر في صمته لعدة ثوان، فانتبه نضال إليه، وقال له:

-ماذا هناك يا عبد العزيز؟ أثمة مشكلة؟!

-كيف عرفت بهذا كله؟ لماذا فسرت الأرقام الأربعة بأسماء الخلفاء الأربعة وفسرت الرقم 5 كرمز لقبضة اليد؟ لماذا لم تفسره على سبيل المثال كرمز لخامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟ هل تفسر الرموز كما تريد أنت؟!

ابتسم نضال في وجه عبد العزيز ثم أجاب:

-لسببين اثنين يا صديقي، السبب الأول هو لموضع وشكل الرقم 5، فهو لم يوضع حول السيف تمامًا كباقي رموز الخلفاء الراشدين، وكتب بخط صغير لا يشبه الخطوط الأخرى، أم السبب الثاني وهو الأهم فيعود لما ذكرته لك سابقًا عن معنى الرموز، فروعة الرمز تكمن في أنه ينقل رسالته بمجرد نظرة واحدة، خاصة لمن كان له اطلاع مسبق على مدلول هذا الرمز، لذلك فإنني منذ أن رأيت النجمة والسيف ذا الحدين وعبارة «يا محمد»، أدركت مباشرة ما تعنيه كثير من الرموز الموجودة في هذه الرسالة، فكان علي فقط مطابقتها بما لدي من معلومات سابقة، وكما أوضحت لك فإن عقول الناس ترى الشيء الواحد بأشكال مختلفة وفقًا لتجاربها السابقة التي مروا بها، ولأنني رأيت في السابق الشكل الحقيقي لما تمثله هذه الرموز، فلم يكن من الصعب علي أن أدرك من أول نظرة ألقيتها على هذه الرسالة معاني الرموز التي تمثل الشكل العلوي منها.

-إذًا فما هو هذا الشكل الذي يحتوي على كل هذه الرموز؟

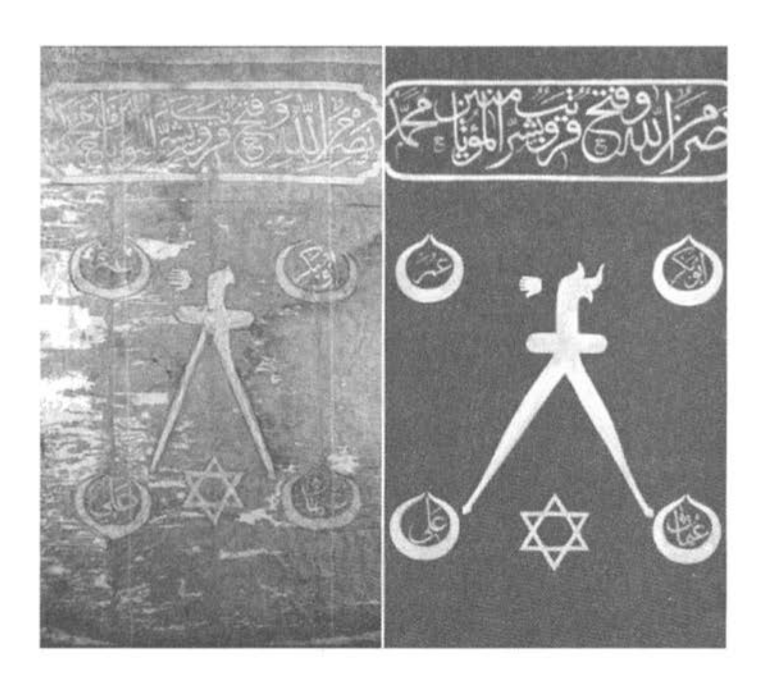
تساءل عبد العزيز بترقب.

-إنه علم بربروسا!

-بربروسا؟! هل تقصد ذلك القرصان المشهور الذي يظهر عادة في قصص وأفلام القراصنة؟

ابتسم نضال وهو ينظر إلى عبد العزيز ثم قال له:

-يبدو أنك لا تعلم يا صديقي حقيقة القائد الأسطوري العظيم خير الدين بربروسا!



* * *

-انظر يا عبد العزيز إلى هذه الصورة! قال نضال وهو يشير إلى شاشة حاسوبه.

-ما هذه الصورة؟

-هذه صورة لوثيقة تاريخية حصلت عليها أثناء إعدادي لكتابي السابق عن تاريخ أوروبا في القرون الوسطى، وهي عبارة عن رسالة استغاثة بعث بها مسلمو غرناطة عام 1501م إلى السلطان العثماني «بايزيد الثاني بن محمد الفاتح»، يرجونه فيها إنقاذهم من عمليات التطهير العرقي التي كانت تمارس ضدهم من قبل جيوش مملكة قشتالة.

-أتقصد رسالة من مسلمي مملكة غرناطة في الأندلس؟ على حد علمي أن هذه المملكة الإسلامية سقطت قبل ذلك التاريخ بسنوات.

-صحيح، مملكة غرناطة كانت آخر كيان سياسي للمسلمين الأوروبيين في الأندلس، وبالفعل سقطت قبل ذلك بسنوات تحت قبضة جيوش مملكتي قشتالة وأراغون في عام 1492م، ولكن سقوط المدينة لا يعني أن سكانها المسلمين اختفوا منها لحظتها، فقد بقي مئات الآلاف من المسلمين في غرناطة بعد رحيل ملك غرناطة المسلم «محمد الصغير»، خاصة أن الملك المسلم قبل تسليمه مفاتيح المدينة للملكين «فرديناند وإيزابيلا» اشترط أن يُمنح المسلمون الأندلسيون الأمان على أرواحهم وأن تُكفل حرية الاعتقاد لسكان الأندلس، وأصر على أن يضمن بابا الفاتيكان شخصيًّا هذا الاتفاق، ولكن ما أن استولى فرديناند وإيزابيلا على الحكم في غرناطة، حتى تم نقض هذا العهد، لتبدأ عمليات القمع والتطهير ليس في حق المسلمين الأوروبيين في الأندلس فقط، بل أيضًا في حق يهود الأندلس الذين كانوا يعيشون منذ مئات السنين بأمان وحرية تحت ظل حكم المسلمين في الأندلس، ثم توسعت حركة التطهير تلك لتتحول فيما بعد إلى محاكم التعذيب والقتل المرعبة التي عرفت في التاريخ باسم «محاكم التفتيش» «Inquisition»، وفي تلك المحاكم تم تعذيب المسلمين واليهود وحتى المسيحيين البروتستانت وغيرهم من

المسيحيين الذين خالفوا الفهم الكاثوليكي للمسيحية، وتمت تلك العمليات باتباع طرق إجرامية، واستخدموا لذلك آلات تعذيب مرعبة يتم فيها تعذيب البشر وقتلهم بطريقة بطيئة ووحشية، وعندما احتل القائد الفرنسي «نابليون بونابرت» إسبانيا والبرتغال بداية القرن التاسع عشر، صُدم الضباط الفرنسيون من بشاعة تلك الآلات التي عثروا عليها في أقبية الكنائس، ومازالت بعض تلك الآلات المخيفة موجودة في متاحف محاكم التفتيش في إشبيلية وغيرها من المدن الإسبانية.

-ولكن يا نضال لماذا لم تقم الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا في ذلك الوقت بالتخلص مباشرة من المسلمين واليهود وغيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى عن طريق القتل بدلًا من استخدام هذا النوع من التعذيب المرعب؟ تساءل عبد العزيز.

-السبب في ذلك يرجع إلى أمرين: الأمر الأول يكمن في اعتقاد الكنيسة الكاثوليكية أن انتشار الأخبار المخيفة عن هذه الآلات وطرق التعذيب سيشكل رادعًا لكل من تسول له نفسه تغيير المذهب الكاثوليكي من الشعب.

-وما هو السبب الثاني؟

-السبب الثاني يا صديقي يرجع للنفسيات المريضة للأشخاص الذين يمارسون مثل هذا مثل النوع من الإرهاب، فمثل هذه النوعية

من رجال الدين ما هي في حقيقة الأمر سوى ثلة من الإرهابيين القتلة، استخدموا الدين فقط كمبرر لجرائمهم النابعة من نفسيات مريضة تفتقد لكل معاني الإنسانية، وللإنصاف التاريخي فإن هذا النوع من الإرهاب الذي يستخدم الدين كمبرر له لم يظهر فقط بين المسيحيين، بل ظهر وما زال يظهر بين المجرمين الذين ينتسبون إلى كل الأديان، بمن فيهم بعض من ينتسبون إلى الإسلام، هؤلاء المجرمون يتشابهون في نفس الوحشية على الرغم من اختلاف معتقداتهم، لذلك فإنك ستلاحظ أن هؤلاء الإرهابيين في غالب الأحيان لا يكتفون بقتل الناس، بل يستمتعون برؤية عذاباتهم، وابتكار طرق قتل غريبة وبشعة تدل على نفسيات مريضة، مثل هؤلاء القتلة ستجدهم في كل دين وملة، ولكن الكارثة في محاكم التفتيش أنها قامت برعاية ومباركة رسمية من بابوات الكنيسة الكاثوليكية شخصيًّا، الأمر الذي صار وصمة في تاريخ الفاتيكان، لذلك قامت الكنيسة الكاثوليكية في السنوات الأخيرة من رئاسة «البابا يوحنا بولس الثاني» «Pope John Paul II» بخطوة إيجابية، وذلك عن طريق تقديم عدة اعتذارات لبعض من تعرضوا للاضطهاد من الكنيسة خلال ألفي عام من تاريخها، كان من بين تلك الاعتذارات التي قدمها البابا اعتذار «عن المآسي التي رافقت

الحروب الصليبية»، وبالمناسبة يا عبد العزيز، اعتذر البابا أيضًا عام 1983م للعالم الإيطالي «جاليليو جاليلي» «Galileo Galilei» الذي تعرض للاضطهاد والسجن لأنه تكلم عن دوران الأرض حول الشمس، الأمر الذي كان يخالف المعتقد الكنسي بمركزية الأرض.

-ولكن لم تخبرني يا نضال، كيف تمكن من بقي من المسلمين في الأندلس من النجاة بأنفسهم في مثل تلك الظروف المخيفة؟

- مع بداية هذه الحقبة المؤلمة في تاريخ إسبانيا والبرتغال، أدرك المسلمون في منطقة الأندلس أنهم أمام عمليات تطهير منظمة، فبعث أهل غرناطة برسائل استغاثة إلى ملوك العالم الإسلامي، كان من بينها رسالة وصلت للسلطان العثماني «بايزيد الثاني بن محمد الفاتح»، ورسالة أخرى إلى سلطان المماليك في مصر «الملك الأشرف»، فبعث الأشرف بوفود إلى البابا في الفاتيكان وإلى ملوك الكاثوليك في أوروبا يستنكر فيها ما يتعرض له المسلمون من الكاثوليك في المدن الأندلسية، ويذكرهم بأن هناك كثيرًا من المسيحيين ممن يعيشون بأمان وحرية اعتقاد في البلاد الإسلامية الواقعة تحت حكمه.

-وهل توقف هذا القمع بحق المسلمين بعد ذلك؟

-على العكس من ذلك، لقد زادت وتيرة القمع والاضطهاد،

وتـم إجبـار مسـلمي الأنـدلس عـلى اعتنـاق الكاثوليكيـة، وصـاروا يعرفون بالموريسكيين، ليس ذلك فحسب، بل صار رجال الكنيسة يشـرفون بأنفسـهم عـلى التأكـد مـن صـدق إيـمان الموريسـكيين بالكاثوليكيـة، وكـان كـل مـن تشـك الكنيسـة بإيمانـه يتعـرض لأبشـع عمليات التعذيب البطيء في أقبية مظلمة للكنائس تم تجهيزها بآلات تعذيب ابتكرت خصيصًا لتستخدم في محاكم التفتيش.

-ولكـن لمـاذا لم يلجـأ الأندلسيون إلى بلاد المسلمين مباشرة عند رؤيتهم لمثل تلك الفظائع؟

-الأمر لم يكـن بهـذه السـهولة التـي تتخيلهـا يـا عبـد العزيـز، فلقـد نجـح بالفعـل بعـض المسـلمين واليهـود في اللجـوء إلى المغـرب ودول شـمال أفريقيـا، ولكـن مئـات الآلاف مـن المسـلمين الأوربيـين في الأندلس ومعهم الكثير من اليهود لم يتمكنوا من الهروب من أرض أجـدادهم في الأنـدلس، خاصـة مـع فـرض الملكـة إيـزابيلا عـلى مـن يريـدون الرحيـل تـرك أطفـالهم خلفهـم لتتـولى الكنيسـة تـربيتهم عـلى الكاثوليكيـة، لـذلك بعثـوا برسـائل الاسـتغاثة إلى ملـوك وقـادة العـالم الإسلامي لإنقاذهـم، فبدأت عـمليات الإغاثـة الإنسانية لإنقاذ أولئك المـدنيين المستضـعفين، كـان مـن أهـم تلـك العمليـات مـا قـام بـه قائـد بحـري أوروبي مسـلم مـن أصـول ألبانيـة، هـذا القـائـد ولـد في إحـدى

الجزر اليونانية، ليتحول بعدها إلى أشهر قائد بحري في العصور الوسطى، بعد قيامه بعمليات إبحار شبه مستحيلة إلى الأندلس، أنقذ خلالها عشرات الآلاف من المسلمين واليهود من محاكم التفتيش المرعبة، هذا القائد البحري المسلم كان اسمه خضر بن يعقوب، ولقب بعد ذلك بخير الدين باشا، بينما عرف عند الأوربيين الكاثوليك باسم القرصان ذي اللحية الحمراء بارباروسا!

-أتريد أن تخبرني يا نضال أن القرصان ذا اللحية الحمراء الذي كنا نشاهده صغارًا في الرسوم المتحركة وأفلام القراصنة هو في حقيقة الأمر قائد إسلامي كبير أنقذ عشرات الآلاف من الأبرياء المسلمين واليهود من محاكم التفتيش؟!

-التاريخ يا عبد العزيز في بعض الأحيان يتم تزويره لإخفاء الحقيقة عن عامة الناس، فيعمل البعض على تشويه صور العظماء والأبطال ليظهروا من خلالها بصورة سلبية، فيتم تشويه سيرة عظيم من عظماء التاريخ عن طريق تصويره كمجرم، أو كقرصان بحار، وفي نفس الوقت يتم تلميع صورة مجرم من مجرمي التاريخ ليظهر من خلالها كعظيم من العظماء، ويتوقف ذلك كله على خلفية من يكتب التاريخ، وعلى مدى حياده ونزاهته، فالزعيم الجنوب أفريقي الشهير

«نلسون مانديلا» مثلًا كان بالنسبة لأنصاره وأحرار العالم محاربًا لأجل الحرية، بينما كان بالنسبة للنظام العنصري في جنوب أفريقيا مجرد مجرم استوجب سجنه في «جزيرة روبن» المعزولة لمدة عشرين عامًا، الأمر نفسه يتكرر مع كثير من الرموز التاريخيين الذين ما زال ينظر إليهم بصور مختلفة وفقًا للزاوية التي يُنظر من خلالها إليهم.

-ولكن ما هي الرسالة الخفية التي يراد إيصالها لنا من خلال وضع صورة راية بربروسا في هذه الورقة؟ تساءل عبد العزيز.

-لا أعلم بالضبط سبب ذلك، ولكن يبدو أن هذه الرسالة عبارة عن لغز، وأن من أرسلها يريد أن يطلعنا على شيء خفي له علاقة بتاريخ بربروسا، لذلك وضع صورة رايته في أعلى الورقة، فالراية في لغة الرموز هي الرمز الذي يحدد الهوية والانتماء، لذلك يحرص الناس على رفع الرايات والأعلام عاليًا لإظهار هوياتهم وانتماءاتهم، فالراية مكانها دائمًا في الأعلى.

-لغز بربروسا! قال عبد العزيز وهو يبتسم.

-بإمكانك أن تطلق على هذا اللغز ما تحب يا صديقي، المهم أن مفتاح حله يكمن في هذا الشكل الموجود أسفل راية بربروسا.

-أتقصد هذه الشبكة المربعة؟

-بالضبط يا عبد العزيز، أقصد هذه الشبكة، الشبكة المعروفة بغربال إراتوستينس!

* * *

غربال إراتوستينس

- ما هذا الغربال الذي تتحدث عنه يا نضال؟!

-إنه غربال منسوب للعالم اليوناني العبقري «إراتوستينس» «Eratosthenes» أو كما عرفه علماء الحضارة الإسلامية باسم «إراطوس»، وهو عالم رياضيات ومكتشف وشاعر ومؤرخ وجغرافي وفلكي إغريقي، يعتبر أحد أهم العباقرة الذين ظهروا في تاريخ الإنسانية على الإطلاق، ولد عام 276 ق.م. في مدينة تقع شرق ليبيا على مقربة من مدينة بنغازي الليبية، هذه المدينة كان اسمها مدينة قورينا، وتعرف اليوم باسم مدينة شحات، وبعد ذلك انتقل إراتوستينس إلى مصر في عهد ملوك البطالمة الإغريقيين، وعينه الملك بطليموس الثالث أمينًا على مكتبة الإسكندرية الشهيرة، وكان إراتوستينس صديقًا مقربًا للعالم الإغريقي الأسطورة أرخميدس، صاحب القاعدة الفيزيائية الشهيرة للطفو المعروفة بقاعدة أرخميدس، وقد قال عنه المؤرخ والطبيب الأندلسي المسلم ابن جُلجُل صاحب كتاب «طبقات الأطباء والحكماء»: «إراطوس المنجّم الذي لم يكن أعلم منه».

-وما الذي جعل من هذا العالم الذي لم أسمع باسمه أبدًا عالمًا عبقريًّا إلى هذه الدرجة؟

-يكفيك فقط يا صديقي أن تعلم أن كلمة «الجغرافيا» «Geography»، وتعني باليونانية القديمة «وصف الأرض»، هي في حقيقة الأمر كلمة كان أول من ابتكرها في التاريخ هو إراتوستينس، ليس ذلك فحسب، بل كان هذا العالم اليوناني أيضًا أول من أثبت بطريقة علمية أن الأرض كروية.

-أتعني أن إراتوستينس هو أول من قال بأن الأرض كروية وليست مسطحة كما كان يعتقد البعض؟

-ليس هذا بالضبط ما أعنيه يا عبد العزيز، فقد كانت فكرة كروية الأرض معروفة قبل ذلك بمئات السنين لدى عدد من العلماء، منهم على سبيل المثال «أرسطو»، ومن قبله «فيثاغورس».

-أتقصد فيثاغورس الذي درسنا نظريته في المدرسة؟

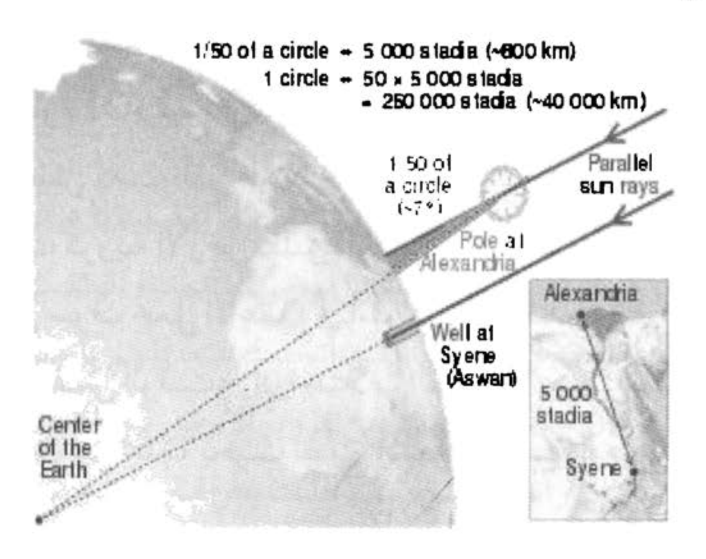
-لا أعرف بالتحديد ما الذي درستموه في المغرب يا عبد العزيز، ولكن إن كنت تقصد نظرية فيثاغورس الهندسية للمثلث القائم الزّاوية، فهو نفسه فيثاغورس الذي أتحدث عنه، المهم يا صديقي أن فيثاغورس كان أول عالم تحدث عن كروية الأرض قبل 500 عام من الميلاد، ولكن إراتوستينس أثبت ذلك بطريقة علمية عن طريق

حساب محيط الكرة الأرضية عام 240 قبل الميلاد.

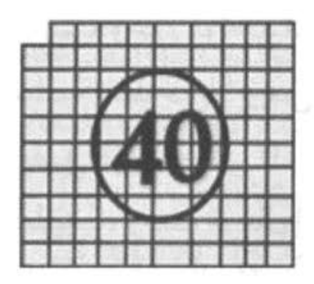
-حساب محيط الكرة الأرضية! هل كان إراتوستينس في ذلك الزمن المبكر من تاريخ الأرض يمتلك أجهزة متطورة مكنته من قياس محيط الكرة الأرضية بأكملها؟! تساءل عبد العزيز بذهول.

-ربما تعجب يا عبد العزيز أن هذا العالم اليوناني العبقري كان يملك فقط عصاه وأدوات هندسية بدائية للقياس، ولكنه تمكن من قياس محيط الكرة الأرضية بها عن طريق استخدام شيء لا يستخدمه كثير منا للأسف، لقد استخدم إراتوستينس عقله، فالعقل يا صديقي إذا ما تم استخدامه بطريقة صحيحة فإنه يتيح للإنسان صناعة المستحيلات من أبسط الأشياء، فقد سمع إراتوستينس أن ظلال الأعمدة في مدينة أسوان جنوب مصر تختفي نهائيًا عند منتصف النهار يوم 21 يونيو، في الوقت أن الأعمدة في مدينة الإسكندرية حيث يعيش كانت تلقي ظلالًا تحتها في نفس الوقت والتاريخ، وهذا ما يثبت كروية الأرض، فلو كانت الأرض مسطحة فإن أشعة الشمس سوف تجعل الأعمدة في أسوان والإسكندرية تلقي الظلال ذاتها في نفس الوقت، وإن اختلاف الظلال لا يمكن تفسيره إلا بكون الأرض محدبة بحيث تصنع أشعة الشمس زاوية مختلفة مع

الأعمدة الموجودة في أسوان عن تلك الموجودة في الإسكندرية، واستنتج إراتوستينس باستخدام عصاه أن الزاوية بين أسوان والإسكندرية مقدارها 7,2 درجات على امتداد سطح الأرض، أي أنها تشكل 1 من 50 جزء من محيط الكرة الأرضية المساوي 360 درجة، وبعد قياسه للمسافة بين أسوان والإسكندرية عن طريق توظيفه لرجل سافر من الإسكندرية إلى أسوان مشيًا لقياس المسافة بينهما بالأقدام، اكتشف إراتوستينس أن المسافة بين المدينتين تعادل تقريبًا 800 كيلومترًا بمقاييس زماننا، وبضرب الرقم 800 بالرقم 50 حصل على 40 ألف كيلومتر وهو يعادل تقريبًا محيط الكرة الأرضية.



-إذًا فهذا هو تفسير هذه الصورة للدائرة التي يتوسطها الرقم 40! قال عبد العزيز وهو يشير إلى الورقة.



-بالضبط يا عبد العزيز، الدائرة رمز للأرض، وهذا الرقم يرمز لمحيطها الذي يساوي 40 ألف كيلومترًا تقريبًا.

-ولكن ما الهدف الذي يريده صاحب اللغز بوضع رمز الأرض ضمن رموز هذا اللغز؟

-لا أعلم يا صديقي، كل ما أعلمه أن هذا الرسم يرمز بدون أدنى شك إلى الأرض، وربما أراد واضع هذا اللغز بذلك الإشارة إلى أن هذه الشبكة هي غربال إراتوستينس، لذلك وضع صورة الأرض ومحيطها في منتصف الشبكة كرمز لإراتوستينس الذي كان أول من قاس محيط الأرض.

-و ما هو هذا الغربال الذي ينسب إلى هذا العالم اليوناني؟!

-غربال إراتوستينس «Sieve of Eratosthenes» هو عبارة عن خوارزمية بسيطة ابتكرها العالم اليوناني إراتوستينس في القرن

الثالث قبل الميلاد لإيجاد جميع الأعداد الأولية حتى عدد طبيعي معين، والعدد الأولي يا عبد العزيز هو كل عدد طبيعي أكبر من واحد لا يقبل القسمة إلا على نفسه وعلى الواحد فقط، مثلًا العدد 5 هو عدد أولي لأنه يقبل القسمة فقط على 5 وعلى 1، بينما العدد 10 لا يعتبر عددًا أوليًا لأنه يقبل القسمة على 10 و 1 و 5 و 2، وهكذا بالنسبة لكل الأعداد الطبيعية، ومبدأ غربال إراتوستينس يقوم على غربلة الأعداد بحيث تبقى في الغربال الأعداد الأولية فقط، وتتم هذه الطريقة بتحديد الرقم الأولى ثم حذف مضاعفاته الموجودة في الشكل، ثم القيام بنفس الخطوة مع العدد الأولي الذي يليه ومضاعفاته، وهكذا دواليك حتى تبقى الأعداد الطبيعية فقط في هذا الغربال بعد حذف كل مضاعفاتها الموجودة.

-لم أفهم شيئًا مما تقول! هل لك أن تضرب لي مثالًا توضيحيًا؟

	2	3	~~4~~	5	~~6~~	7	~~8~~	~~9~~	~~10~~
11	~~12~~	13	~~14~~	~~15~~	~~16~~	17	~~18~~	19	~~20~~
~~21~~	~~22~~	23	~~24~~	~~25~~	~~26~~	~~27~~	~~28~~	29	~~30~~
31	~~32~~	~~33~~	~~34~~	~~35~~	~~36~~	37	~~38~~	~~39~~	~~40~~
41	~~42~~	43	~~44~~	~~45~~	~~46~~	47	~~48~~	~~49~~	~~50~~
~~51~~	~~52~~	53	~~54~~	~~55~~	~~56~~	~~57~~	~~58~~	59	~~60~~
61	~~62~~	~~63~~	~~64~~	~~65~~	~~66~~	67	~~68~~	~~69~~	~~70~~
71	~~72~~	73	~~74~~	~~75~~	~~76~~	~~77~~	~~78~~	79	~~80~~
~~81~~	~~82~~	83	~~84~~	~~85~~	~~86~~	~~87~~	~~88~~	89	~~90~~
~~91~~	~~92~~	~~93~~	~~94~~	~~95~~	~~96~~	97	~~98~~	~~99~~	~~100~~

-حسنًا يا عبد العزيز، لو أخذنا أول عدد أولي وهو 2، نقوم بتحديده، ثم نقوم بحذف جميع مضاعفاته الموجودة في الرسم، فنحذف 4، 6، 8، 10، 12 حتى نحذف كل المضاعفات الموجودة في الرسم، وبعد ذلك نتجه إلى العدد الأولي الذي يليه، وهو العدد 3، فنحذف مضاعفاته المتبقية، فمثلًا 6 حذفت قبل ذلك، فنحذف للعدد المضاعفات التالية مثل 9، 15، 21 وهكذا حتى النهاية نكرر الأمر مع كل الأعداد حتى تبقى الأعداد الأولية فقط دون مضاعفاتها.

-حسنًا، لدينا هنا 10 أعمدة رأسية و10 سطور أفقية، هل هذا يعني أن الأعداد الأولية الموجودة بين الأعداد من 2 إلى 100 هي الأرقام التي نحتاجها لحل لغز بربروسا؟

-أبدًا يا صديقي، ولا رقم من تلك الأرقام به حل اللغز! قال نضال وهو يبتسم.

-ولكن ألم تقل أنت لي في بداية حديثنا أن حل لغز بربروسا موجود في هذا الشكل؟!

-صحيح، ولكن تأمل يا عبد العزيز هذا البيت الشعري الموجود أسفل الغربال مباشرة:

من مبلغ الحيين أن مهلهلًا ... لله دركما ودر أبيكما

-وما علاقة هذا الشعر العربي بغربال ذلك العالم الإغريقي؟!

هذا البيت قاله الشاعر والفارس العربي الشهير المهلهل عدي بن ربيعة التغلبي المعروف في التاريخ بالزير سالم، بطل معركة البسوس التي وقعت في زمن الجاهلية قبل الإسلام واستمرت لـ 40 عامًا، وتقول الأسطورة أن المهلهل عندما كبر في السن وأصبح ضعيفًا سافر عبر الصحراء برفقة عبدين له، فقرر العبدان الغدر به وقتله، فلما أحس هو بذلك طلب منهما قبل قتله أن ينقلا هذا البيت الشعري إلى ابنة أخيه الجليلة بنت الملك وائل المشهور بكليب، وفعلًا قتل العبدان الزير سالم ثم عادا إلى مضارب القبيلة وهما يبكيان وينتحبان، وأخبرا أهله أن الزير مات في الطريق، وأنه طلب منهما أن ينقلا عنه هذا البيت، فلما سمعت ابنته هذا البيت تفكرت فيه وتعجبت كيف يخرج هذا البيت الركيك الذي لا يحمل معنى من شاعر عملاق مثل أبيها، فأدركت أن البيت لا يستقيم هكذا، وأن أباها إنما بعث بهذا البيت كرسالة رمزية للدلالة على لغز موته، وأن حل هذا اللغز يكمن في شطرين مكملين أخفاهما المهلهل عن العبدين، وأنه أراد أن يقول:

من مبلغ الحيين أن مهلهلًا ... أمسى قتيلًا في الفلاة مجندلا

لله دركما ودر أبيكما ... لا يبرح العبدان حتى يُقتلا

وبذلك تم قتل العبدين القاتلين بعد أن تمكن الزير سالم من الكشف عن هوية قاتليه عن طريق استخدامه لرسالة رمزية حذف فيها شطرين يحتويان على المعلومات المهمة التي تدل على حل اللغز.

-هل تريد يا 101 أن تخبرني أن واضع هذا اللغز استخدم نفس طريقة الزير سالم بحذفه من هذا الغربال لسطرين يحتويان على الأرقام التي نحتاجها لحل اللغز؟

-أحسنت يا عبد العزيز، ويظهر ذلك من خلال ملاحظتين اثنتين، الملاحظة الأولى تكمن في رمزية الرقم 40 الموجود في قلب الغربال، صحيح أنه يرمز لمحيط الأرض كما رأينا، ولكن حرب البسوس التي خاضها الزير سالم استمرت 40 عامًا، ووجود الرقم 40 في قلب الغربال ربما كان بالأساس للدلالة على قصة الشطرين الخفيين في قصة موت الزير سالم.

-وماذا عن الملاحظة الثانية أيها المحقق الجنائي؟

سأل عبد العزيز وهو يبتسم.

-الملاحظة الثانية تكمن يا صديقي في أن السطرين الذين تم إخفاؤهما من غربال إراتوستينس يبدآن بالرقم 101، وهو بالمناسبة عدد أولي أيضًا.

-الآن صار الأمر منطقيًّا أكثر بالنسبة لي يا نضال، من وضع هذا اللغز أراد منك أنت بالتحديد أن تبدأ من هنا، من عند الرقم الذي يرمز إليك، وهو الرقم 101، وهو عدد أولي كما تقول، وفي هذا دلالة على البداية، فالأول يأتي دائمًا في البداية، وهذا الرقم 101 هو أيضًا مفتاح حل اللغز، لذلك رسم في أعلى اللغز فوق كل الرموز، وبذلك تصبح الأرقام التي بها حل اللغز هي الأرقام من 101 إلى 120.

نظر نضال إلى عيني عبد العزيز الذي كان متحمسًا في شرحه، ووضع يده على كتفه وقال له وهو يبتسم:

-ما هذا يا عبد العزيز؟! لقد أصبحت محترفًا في حل لغة الرموز، تحليلك رائع وقد تفوقت علي في ملاحظة لم أنتبه إليها، وهي دلالة كلمة «أولي» كرمز للبداية.

-ولكن لماذا قام صاحب لغز بربروسا بتوجيه الرسالة إليك أنت بالتحديد يا نضال؟

-هذا هو السؤال الذي يحيرني يا صديقي، ولكن وكما هو واضح من الرسالة التي وجهها لي فهو يعلم الكثير عني، يعرف لقبي 101 الذي يعرفه المقربون مني فقط، ويعرف أنك صديقي المقرب، لذلك ترك الرسالة عندك، ومن خلال الرموز التي استخدمها في لغزه

العجيب يبدو أنه يعرف أنني مختص في دراسة «علم الرموز»«Symbologie»، وواضح أيضًا أنه يعلم أنني مهتم بالتاريخ، لا أعلم بالتحديد السر الذي يكمن خلف معرفته بتفاصيل حياتي الشخصية، والسؤال الذي يحيرني بشكل أكبر هو لماذا لم يتواصل معي مباشرة بلقاء أو اتصال؟!

-ربما لأنه لم يعد موجودًا الآن يا نضال، وأراد أن تصلك هذه الرسالة في حالة اختفائه، ولكن السؤال الذي يحيرني أكثر: لما سلك صاحب لغز بربروسا هذا الطريق الطويل لإيصال المعلومات التي يريد إيصالها إليك؟ لماذا لم يكتب مباشرة على سبيل المثال أن حل اللغز يكمن في استخدام الأرقام من 101 إلى 120؟!

-هذا يكمن في المعنى الحقيقي لاستخدام لغة الرموز يا عبدالعزيز، فالرموز لا تستخدم فقط لتوفير الجهد والوقت لإيصال الرسالة المراد توجيهها، بل أيضًا يتم استخدامها في بعض الحالات كلغة مشفرة لإيصال رسائل خطيرة لا ينبغي أن تقع بأيدي جهات أخرى معادية، وحتى في حالة وقوعها بأيديهم يكون من الصعب عليهم فك شفرتها الرمزية لفهم ما تحتويه تلك الرسائل، لذلك تلجأ المنظمات السرية ووكالات المخابرات العالمية إلى استخدام الرموز بشكل واسع في مراسلاتها.

-هذا يعني يا نضال أن واضع لغز بربروسا تعمد إيصال الرسالة لي وليس إلى بريدك مباشرة، وذلك خوفًا من أن يتم كشف أمر الرسالة، هل هذا يعني أن لديه معلومات أنك مراقب؟

-ربما كان الأمر كذلك، أو ربما كان مجرد زيادة في الحرص من جانب واضع اللغز، وعلى أي حال فقد بعث بتحذير من جهتين اثنتين لا ينبغي لهما الوصول إلى هذه الرسالة.

-ماذا تقصد يا نضال؟

-انظر هنا يا عبد العزيز، هل ترى هذين المثلثين أسفل الرسالة على جانبي بيت شعر الزير سالم، المثلث الأحمر في لغة إشارات المرور هو رمز للخطر، وهذان المثلثان يحتويان على رقمين يرمز كل منهما إلى هوية جهة محددة تمثل خطرًا كبيرًا، ومما يؤكد شدة خطورة هاتين الجهتين هو وجودهما مباشرة تحت وصية الزير سالم التي أخبر فيها عن قاتلين اثنين قاما باغتياله بطريقة غادرة، مما يشير إلى أن هذين الرقمين يدلان على جهتين اثنتين تتبعان أساليب الاغتيالات السرية.

-لقد بدأت أقلق بالفعل! يبدو أن كل رموز هذا اللغز مترابطة مع بعضها البعض بطريقة عجيبة! هل أنت متأكد يا نضال من هذا التحليل؟

-ليس تمامًا يا صديقي، هناك دائمًا احتمال للخطأ، فالرمز الواحد قد يدل على أشياء مختلفة وفقًا للظروف المحيطة به، والمعلومات

المتوافرة حوله، وقد يدل الرمز في وقت ما على شيء محدد، ولكن مع مرور الوقت واكتشاف معلومات جديدة يدل نفس الرمز على شيء آخر.

- ولكن ما هما هاتان الجهتان الخطيرتان اللتان تسعيان للوصول إلى لغز بربروسا؟

-للأسف لم أتمكن من تحديدهما يا عبد العزيز، فهذان الرقمان لا يدلان على أي رمز عرفته في السابق.

-بالمناسبة يا نضال، على مدى سنين طويلة من معرفتي بك لم تخبرني عن سر الرقم 101 الذي تنادى به من قبل أصدقائك المقربين، وبمناسبة هذه الرسالة العجيبة التي وُجهت لك بهذا الرقم بدلًا من اسمك الحقيقي، أعتقد أن الوقت قد حان لكي تحكي لي حكايتك مع الرقم 101. قال عبد العزيز وهو يبتسم.

-حسنًا، سأحكي لك الحكاية منذ بدايتها، ولكن ليس الآن، فسيكون معنا الكثير من الوقت لتبادل أطراف الحديث في طريق مغامرتنا.

-لحظة من فضلك! عن أي مغامرة تتحدث؟!

-عن المغامرة التي سنبدأها غدًا إن شاء الله، فحقيبتك التي

جئت بها من المغرب ما زالت على حالها، لذلك فأنت لا تحتاج إلى كثير من الوقت للتجهز للسفر.

-السفر إلى أين؟!

-السفر إلى مدينة إسطنبول التركية، لزيارة المكان الذي يحتوي على أول خيوط حل هذا اللغز، المكان الذي يحتوي على راية بربروسا الأصلية، هذا المكان الذي سنبدأ منه مغامرتنا هو المتحف البحري التركي، أحد أكبر المتاحف البحرية في العالم، والذي يقع في حي بشكطاش التركي، بالقرب من قبر الأسطورة خير الدين بربروسا!

* * *

بداية الحكاية

كان ذلك الطفل الصغير يسارع الخطى وهو ممسك بيد عمته في أول يوم دراسي في حياته، فأخيرًا سيصبح تلميذًا في مدرسة الأمل الابتدائية التي كان يسمع عنها، أخيرًا سيكون مع الأطفال الكبار الذين يدرسون في الصف الأول الابتدائي، وذلك بعد سنة كاملة أمضاها مع الأطفال الصغار في الروضة، كانت سعادة ذلك الطفل لا توصف، لدرجة أن خطوات قدميه الصغيرتين كانت أسرع من خطوات عمته خديجة التي كانت تحاول مجاراته في المشي وهي تخشى أن تفلت يده الصغيرة من يدها التي كان يحاول جرها أمامها.

-على مهلك يا نضال، على مهلك يا صغيري!

قالت العمة خديجة وهي تبتسم.

-أسرعي يا عمتي أسرعي، يجب أن أكون أول واحد في الصف لكي أجلس في المقاعد الأمامية، لأن الذين يجلسون في الأمام يصبحون تلاميذ أذكياء، بينما من يجلسون في الخلف يصبحون أغبياء.

ضحكت العمة خديجة ثم سألت نضال:

-وكيف عرفت أنت بهذا السر الخطير؟ هل أخبروكم بذلك في الروضة؟

-كلا يا عمتي، ابن جيراننا أحمد الذي يدرس مع الكبار في الصف الثاني الابتدائي، جلس معنا البارحة بعد أن لعبنا كرة القدم، وقدم النصائح لي ولبقية الأطفال الذين سيدخلون الصف الأول الابتدائي.

-يا إلهي! هل صار أحمد ابن سعاد صار يقدم النصائح للأطفال؟! وماذا أخبركم أحمد أيضًا عن خبرته الطويلة في الحياة المدرسية؟

-نعم يا عمتي، أنا وأبناء الحي نلتف دائمًا حول أحمد بعد انتهاء اللعب بالكرة لكي نستمع منه إلى حكاياته المسلية ونصائحه المفيدة، البارحة أخبرنا أن هناك فصلين للصف الأول الابتدائي، الفصل الأول «أ» به أستاذ لطيف لا يضرب التلاميذ، والفصل الأول «ب» به أستاذ فظ يضرب الأطفال بشدة، لذلك ينبغي علينا اختيار الفصل «أ»، وقال لي أنه يجب أن أنهي كلامي مع الأستاذ دائمًا بعبارة «يا أستاذ»، وقال لي أيضًا أنه إذا أراد أحد الأساتذة معاقبتي وضربي على يدي الاثنتين، فعلي أن أفتح إحدى اليدين فقط لكي يضربني عليها، فالضربة الأولى تؤلم، ولكن الضربة الثانية على نفس اليد تمنع الشعور بالألم.

-دعك من ابن سعاد ونصائحه، الضرب ممنوع في قانون المدارس، فقط كن تلميذًا مجتهدًا واحترم زملاءك وأساتذتك وستقضي أوقاتًا جميلةً في المدرسة، وأهم شيء اليوم هو ألا تنزع هذه البطاقة المعلقة من على قميصك، فعلى هذه البطاقة صورتك وجميع بياناتك المدرسية، هل هذا الأمر مفهوم يا نضال؟

-مفهوم يا عمتي.

كان نضال يزداد سعادة وهو يقترب أكثر فأكثر من المدرسة، وبينما هو في طريقه إلى المدرسة كان فخورًا جدًّا لارتدائه لباسه الأزرق اللون، فقد كانت تلاميذ المدرسة الابتدائية يلبسون زيًّا موحدًا تختلف ألوانه من مرحلة إلى مرحلة، فتلاميذ الصف الأول الابتدائي يلبسون ملابس زرقاء اللون، وتلاميذ الصف الثاني يلبسون ملابس حمراء اللون، أما اللون المخصص لتلاميذ الصف الثالث الابتدائي فقد كان اللون الأصفر، في حين كان اللون الأخضر هو اللون المميز لأكبر التلاميذ في تلك المدرسة الابتدائية، وهم تلاميذ الصف الرابع الابتدائي، الشيء العجيب الذي لاحظه نضال وهو في طريقه إلى المدرسة أن سرعة التلاميذ وملامح وجوههم كانت تختلف حسب اللون الذي يلبسونه،

فالتلاميذ بالملابس الزرقاء كانوا أسرع التلاميذ في طريقهم إلى المدرسة، وكانت مظاهر السعادة واضحة على وجوههم، في حين تقل تلك المظاهر في وجوه تلاميذ اللون الأحمر، وتقل معها سرعتهم إلى المدرسة أيضًا، بينما كان التلاميذ باللون الأصفر هم أبطأ التلاميذ في طريقهم إلى المدرسة، كان كثير منهم يُجَرُّون جَرًّا نحو المدرسة من قبل ذويهم، وكانت وجوههم تزداد عبوسًا وتجهمًا كلما اقتربوا أكثر من المدرسة، أما تلاميذ الملابس الخضراء فقد كانوا أغرب أنواع التلاميذ، فقد اختفت أي مظاهر إنسانية من وجوههم، وكانوا يمشون جميعًا بنفس السرعة والأسلوب، وكأنهم أصبحوا رجالًا آليين يمشون على نظام مبرمج، لم يفهم نضال وقتها سر هذا الاختلاف في سرعة وشكل التلاميذ.

ثم نظر إلى عمته ببراءة متسائلاً:

-لماذا لا يلبس جميع التلاميذ اللون الأزرق لكي يظلوا سريعين وسعيدين في المدارس؟!

ابتسمت العمة خديجة ونظرت بشفقة إلى عيني ابن أخيها الصغيرتين وقد فهمت ما يقصده، وقالت له بصوت حنون:

-ليس اللون هو السبب يا صغيري، ليس اللون، بل هي أمور أخرى!

وأمام المدرسة، لاحظ نضال وجود عدد كبير من الآباء والأمهات وهم يقبلون أبناءهم ويودعونهم، فتمنى لو أنه كان برفقة والديه مثل بقية التلاميذ، ولكن نضال كان يعلم من خلال عمته خديجة أن والديه توفيا عندما كان في الثالثة من عمره، لتتولى عمته تربيته كولد لها، خاصة وأنها لم ترزق بأطفال من زواجها، وبالرغم من عدم وجود والديه معه، كان نضال سعيدًا للغاية بمرافقة عمته له في أول يوم دراسي، فقد كان يحبها حبًّا كبيرًا، وقد كانت سعادة عمته بوصول ابن أخيها الصغير إلى المرحلة الابتدائية لا تقل عن سعادة الطفل نفسه، حتى إنها قضت الأسبوعين الماضيين وهي تبحث له عن حقيبة مميزة تهديها له بهذه المناسبة.

-إلى أين يا سيدة؟ ممنوع دخول أولياء الأمور إلى داخل المدرسة.

قال حارس المدرسة مخاطبًا خديجة بصوت غليظ.

-ولكن ابن أخي في الصف الأول الابتدائي، ولديه مشكلة في تحديد الاتجاهات والأماكن، ولا يعرف إلى أين ينبغي له التوجه، أرجوك دعني أرافقه إلى فصله!

-ممنوع دخول أولياء الأمور إلى داخل المدرسة، هذه هي تعليمات المدير، وطالما أنه يحمل بطاقته التعريفية على قميصه فلا داعي للقلق، سيقوم أستاذه باصطحابه إلى صفه.

عند تلك اللحظة حضنت خديجة ابن أخيها نضال، وطبعت قبلة رقيقة على جبينه، وودعته بعينين دامعتين قائلة:

-أنا فخورة بك يا صغيري، أنت اليوم رجل كبير، استمتع بيومك الدراسي الأول، فهذا اليوم سيكون يومًا مميزًا في حياتك، وستظل ذكراه الجميلة محفورة في ذاكرتك طيلة العمر، وعند انتهاء الدوام المدرسي سأكون بانتظارك خارج المدرسة في نفس هذا المكان.

ودع نضال عمته، ثم دخل إلى المدرسة وهو سعيد ومتفائل، وقد رسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ولكن هذه الابتسامة سرعان ما اختفت بمجرد تجاوزه لبوابة المدرسة، فقد تفاجأ نضال في تلك اللحظة بمنظر عجيب للغاية!



يوم لا يُنسى بالفعل

ما أن عبر نضال بوابة المدرسة، حتى تفاجأ بأعداد كبيرة من الأطفال لم يرَ مثلها في حياته، كان الأطفال يجرون ويصرخون في ساحة المدرسة التي لا تتسع لمثل هذا العدد الكبير من التلاميذ، وكانت الضوضاء الناتجة من صوت التلاميذ تغمر المكان، قبل أن يرن جرس المدرسة، ليزداد وقع الضوضاء، فقد خرج بعض الأساتذة من بعض الحجرات الجانبية وهم يحملون عصيًّا طويلة مختلفة الألوان، وصاروا يركضون خلف الأطفال وهم يصيحون:

-هيا أيها التلاميذ! تحركوا إلى الطابور المدرسي! إلى الطابور! أسرعوا!

كان صراخ الأساتذة مخيفًا في حد ذاته، فصار التلاميذ يركضون سريعًا بعشوائية في كل اتجاه، وزاد من سرعتهم أن الأساتذة كانوا يضربون بعصيهم من يجدونه أمامهم من الأطفال، فصار الجميع يجري في جميع الاتجاهات، الوحيد الذي كان واقفًا يتأمل هذا المنظر العجيب هو نضال، فلم يكن نضال يفهم لماذا كان هؤلاء الأساتذة يصرخون ويجرون كالمجانين خلف الأطفال وهو يحملون عصيهم،

ولم يكن يدرك ماذا كانوا يقصدون بقولهم «إلى الطابور»، بل لم يكن يفهم أصلًا ما تعنيه كلمة طابور!

وبينما نضال واقف في مكانه لاحظه أحد الأساتذة، فاقترب منه بسرعة وعيناه تقدحان بالشرر، وما أن رأى نضال عينيه المخيفتين تقتربان منه، حتى أطلق العنان لساقيه، وصار يسابق الريح في ساحة المدرسة وهو يتساءل في قرارة نفسه عن السبب الذي أغضب ذلك الأستاذ في أول يوم دراسي، واستمر نضال يركض ويركض على الرغم من اصطدام جسمه الصغير بباقي التلاميذ الذين كانوا يركضون يمنة ويسرة، فوقع لعدة مرات أثناء ركضه، ولكنه كان ينهض بعد كل مرة ليركض من جديد دون أن يعرف إلى أين يتجه، وفي لحظة واحدة، سمع نضال صوتًا ينطلق من مكبرات الصوت:

-السلام الوطني.

وفي لحظة واحدة تفاجأ نضال أن جميع التلاميذ والمعلمين في المدرسة توقفوا عن الركض، وفي ثوان معدودة اصطف التلاميذ في صفوف منتظمة، فانضم نضال إلى أحد تلك الصفوف التي كانت بجانبه، وساد صمت عجيب أرجاء المدرسة، قبل أن يُكسر هذا الصمت بموسيقى مميزة خرجت من مكبرات الصوت، ليردد

التلاميذ بعض كلمات النشيد المصاحبة لتلك الموسيقى، ولكن نضال لم يردد معهم هذه الكلمات لأنه لم يكن يحفظها، وبعد أن قلب ناظريه على بقية التلاميذ، أدرك أنه لم يكن الوحيد الذي لا يحفظ كلمات النشيد الوطني، فقد لاحظ أن بعض التلاميذ كانوا يرددون كلمات مختلفة عن الكلمات الأصلية، في حين تظاهر بعض التلاميذ بترديد النشيد، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يفتحون أفواههم فقط دون ترديد أي شيء، فتساءل نضال في قرارة نفسه عن السبب الذي يدفع بعض الناس إلى التظاهر بترديد أشياء لا يفهمونها فقط لمجاراة الآخرين!

وما أن انتهى عزف النشيد الوطني في المدرسة، حتى بدأت أعين التلاميذ من حول نضال تتجه إليه بغضب، في البداية لم يفهم نضال سبب ضيق التلاميذ من حوله به، ولكنه لاحظ أنه كان بمثابة نقطة زرقاء في بحر أصفر، فأدرك أنه يقف في المكان الخطأ، فلقد كان نضال يقف بين صفوف تلاميذ المرحلة الثالثة الابتدائية!

-أنت أيها الأزرق الصغير، ابتعد عن صفنا قبل أن نضربك.

كان التلاميذ الصفر يتناوبون في دفع نضال وضربه، ونضال يحاول التخلص منهم والتوجه إلى الصفوف الزرق، ولكن المشكلة

أن الصفوف الزرق كانت بعيدة عنه، فتلاميذ المدرسة تم تقسيمهم في الساحة على مجموعتين متقابلتين، مجموعة تضم التلاميذ الزرق والحمر وكانوا في الاتجاه القريب من بوابة المدرسة، ومجموعة ثانية تضم التلاميذ الصفر والخضر وكانوا في الاتجاه المقابل لهم، وفي منتصف المدرسة كانت تقف مجموعة من الأساتذة يتقدمها مدير المدرسة، لذلك لم يتجرأ نضال باختراق ساحة المدرسة للتوجه إلى الصفوف الزرق، خاصة وأنه لاحظ في منتصف الساحة وجود الأستاذ الغاضب الذي كان يركض خلفه بعصاه، لذلك لم يجد نضال مفرًّا من ورطته إلا باللجوء إلى المعسكر الأخضر، لعلهم يكونون أكثر ترحيبًا به، ولكن نضال بمجرد وصوله إلى الصفوف الخضر لاحظ بأنهم لم يبدوا أي ردة فعل لقدومه، فلم يرحبوا به، ولم يطردوه، لقد كانوا جميعًا واقفين بانتظام كالأصنام، فصار نضال يتحرك بين صفوفهم متأملًا وجوههم التي خلت من أي تعابير إنسانية، قبل أن ينبعث صوت جديد من خلال مكبرات الصوت:

-التمارين الصباحية: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة - واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

كان هذا الصوت يتردد في أرجاء المدرسة، ليقوم التلاميذ برفع أيديهم وخفضها والضرب بأقدامهم بقوة على الأرض مع التصفيق

بعد كل مرة يتم العد فيها، كانت الفوضى تعم صفوف تلاميذ المدرسة، فقد كانت الأيدي ترتفع وتنخفض بشكل فوضى، وكانت ضحكات التلاميذ ترتفع من بين الصفوف، وحدهم التلاميذ الخضر كانوا يؤدون هذه التمارين الرياضية بانتظام كالآلات، ومع مرور الوقت زادت سرعة الأستاذ في العد، وزادت مع ذلك وتيرة التمارين الرياضية، فسقط نضال أكثر من مرة نتيجة للحركات السريعة للتلاميذ الخضر الذين كانوا يفوقونه كثيرًا بالطول، فخاف أن يتعرض جسده الصغير للدهس تحت أقدامهم أثناء ضربهم لأقدامهم بقوة على الأرض، فانتقل من وسط صفوفهم ليكون خلف الجميع، وهناك صار ينظر إلى تلاميذ المدرسة متسائلًا عن جدوى إضاعة الوقت في مثل هذه التمارين الرياضية، فلقد مارس الجميع رياضة الركض قبل قليل!

وبعد الانتهاء من التمارين الصباحية، بدأ مدير المدرسة بالتحدث عبر الإذاعة المدرسية، واستمر بالتحدث لدقائق طويلة دون أن يفهم نضال شيئًا مما قاله، فقد كان الصوت يخرج رديئًا من مكبرات الصوت، وفي أوقات كثيرة لم يكن الصوت يصل بالأساس إلى التلاميذ، وفي نهاية الأمر انقطع الصوت بالكلية من مكبرات الصوت، فكان المدير يتحدث دون أن يسمع صوته أحد من

التلاميذ، وبالرغم من ذلك كله، لم يعترض أحد من التلاميذ أو حتى الأساتذة على هذا الأمر، ولم ينبه أحد منهم المدير المسكين الذي كان يحرك يديه وهو يتكلم دون أن يعلم أن صوته لا يصل إلى أحد، وصار نضال يحدق بوجوه التلاميذ والأساتذة الذين كانوا يتظاهرون بالاستماع إلى خطبة المدير، خاصة التلاميذ الخضر. الذين كانوا يقفون بثبات وهم يحدقون بمديرهم، وما أن انتهى المدير من خطبته، حتى علا في ساحة المدرسة صوت تصفيق حاد لم يسمع نضال مثله في حياته، ولاحظ نضال أن الأساتذة كانوا أكثر من صفق للمدير بحرارة، على الرغم من أن أغلبهم لم يسمع الخطبة من الأساس!

ومع انتهاء مدير المدرسة من خطبته، تحول التلاميذ إلى فصولهم الدراسية، وحدهم التلاميذ الزرق ظلوا واقفين في الساحة برفقة بعض الأساتذة، فتوجه نضال إليهم وانضم إلى صفوفهم، وشعر بالراحة بعد ما لقيه في دقائقه الأولى في المدرسة، فأخيرًا سيبدأ يومه الدراسي الأول، بعد ذلك جاء معلمان يحمل كل منهما ورقة في يديه، فصارا يلقيان نظرة على بطاقات التلاميذ، ونظرة أخرى على الورقة التي يحملانها، ليتم فرز التلاميذ على مجموعتين، ولم يتطلب الأمر كثيرًا من الوقت ليدرك نضال أن أحد هذين المعلمين هو نفسه ذلك المعلم الذي كان يجري خلفه، فأغمض عينيه الصغيرتين على أمل أن

يكون من نصيب المعلم الآخر، وما هي إلا دقائق معدودة حتى جاء الدور على نضال، فتقدم إليه أحد المعلمين، لقد كان المعلم نفسه ذو العينين المخيفتين، فنظر هذا المعلم إلى قميص نضال، ثم قلبه بيديه، وبعدها نظر في وجه نضال وسأله بصوت صارم:

-من أنت يا ولد؟

-أنا نضال يا أستاذ. أجاب نضال بصوت منخفض والخوف يملأ قلبه.

-نضال ماذا؟

-نضال بدوي يا أستاذ.

فنظر الأستاذ إلى ورقته وأخذ يقلب ناظريه في الأسماء.

-صحيح، نضال عبد الجليل بدوي، أين بطاقتك يا ولد؟

عند تلك اللحظة انتبه نضال لأول مرة أنه قد فقد بطاقته، فانفجرت عيناه بالبكاء، وقال وهو يلتقط أنفاسه:

-لا أعلم يا أستاذ، كانت بطاقتي معي يا أستاذ، وعندما دخلت المدرسة صرت تجري خلفي بالعصا دون أن أقوم بأي شيء خاطئ يا أستاذ، لذلك صرت أركض مسرعًا في ساحة المدرسة خوفًا منك يا أستاذ، فاصطدمت بالتلاميذ وسقطت أكثر من مرة في ساحة

المدرسة أثناء الركض وأثناء الوقوف بين التلاميذ الصفر والخضر يا أستاذ، ربما أضعت البطاقة في أحد هذه الأماكن يا أستاذ.

بعد أن سمع المعلم ما قاله نضال، نظر إليه لعدة ثوان، ثم قال له متعجبًا:

-هل أنت معتوه يا ولد؟ لماذا تكرر كلمة أستاذ في كلامك؟!

-لقد أخبرني ابن جيراننا أحمد وهو من التلاميذ الحمر أن أكرر كلمة أستاذ عند الحديث مع أي أستاذ يا أستاذ. أجاب نضال وهو مستمر بالبكاء.

-يبدو أنك ولد كثير الكلام، اذهب وابحث على بطاقتك، فأنت دون هذه البطاقة لست موجودًا بالنسبة لي.

-ولكن أنا موجود بالفعل أمامك يا أستاذ، واسمي موجود في الورقة يا أستاذ! قال نضال متعجبًا.

-الاسم الموجود لدي هو نضال عبد الجليل بدوي، ولكن ما يدريني ما اسمك أنت؟ البطاقة هي من تحدد وجودك من عدمه، اذهب وابحث عنها، فدون هذه البطاقة لن أسمح لك بعبور باب الفصل، هذا هو القانون.

بعد ذلك توجه التلاميذ الزرق كل منهم إلى فصله، ولم يبقَ في ساحة المدرسة سوى نضال، الذي كان يتساءل في قرارة نفسه عن

معنى آخر كلمة قالها له الأستاذ، كلمة «القانون»، فقد ذكرت عمته له نفس هذه الكلمة أيضًا، وأخبرته أنه وفقًا لهذا القانون فإن الضرب ممنوع في المدرسة، والآن يخبره الأستاذ أنه وفقًا لهذا القانون أيضًا فإنه لا يستطيع السماح له بدخول فصله دون بطاقة، ولكن هذا الأستاذ الذي يريد تطبيق القانون هو نفسه من خالف القانون في الصباح وكان يجري خلف التلاميذ بعصاه ليضربهم، فعلم نضال منذ ذلك اليوم أن «القانون» عبارة عن مجموعة من الأمور، بعضها يتم تطبيقه، وبعضها لا يتم تطبيقه، الأستاذ وحده هو من يحدد ما ينبغي تطبيقه من القانون، وما لا ينبغي تطبيقه من نفس هذا القانون، الأستاذ وحده هو من يحدد معنى القانون!

وعلى مدار ما يقرب من نصف ساعة، تنقل نضال من مكان إلى مكان في ساحة المدرسة بحثًا عن بطاقته الضائعة، ولكنه لم يجد أثرًا لها، وكان أثناء بحثه يفكر كيف يمكن لقطعة ورق أن تحدد وجوده من عدمه؟! وبعد أن أعياه التعب من كثرة البحث، جلس نضال في ساحة المدرسة وحيدًا ساندًا ظهره على سارية العَلَم، وتناول حقيبته الجميلة التي أهدته إياها عمته ليضعها فوق رأسه، وذلك لكي يصنع منها ظلًّا يحميه من أشعة الشمس اللاهبة التي ازدادت وطأتها مع مرور الوقت، الشيء الغريب الذي لاحظه نضال أن كثيرًا من

المعلمين كانوا يمرون بالقرب منه دون أن يسألوه عن هويته، ودون أن يسألوه حتى عن سبب جلوسه وحيدًا في ساحة المدرسة، وبعد اشتداد وطأة الشمس، فكر نضال بالرجوع إلى البيت، وفعلًا خرج من بوابة المدرسة، حتى حارس البوابة الذي منع عمته من الدخول لم يسأله عن سبب خروجه من البوابة لوحده!

وفي واقع الأمر فإن المشكلة في خروج نضال من المدرسة وتوجهه إلى البيت لم تكمن في بعد المسافة أو صعوبة الطريق، فالمدرسة كانت قريبة جدًّا من شقتهم، وكان الطريق إليها يستغرق على الأكثر خمس دقائق مشيًا، المشكلة الحقيقية التي كانت تواجه نضال كانت تتمثل في أنه كان يعاني من اضطراب نفسي يسمى علميًّا بـ «قصور الانتباه»، هذا الاضطراب يواجه صاحبه صعوبة في الانتباه وتذكر الأشياء، لذلك فقد كان نضال يجد صعوبة في تحديد الاتجاهات وتذكر الطرق، وكان في كثير من الأحيان يبحر في عالمه الخاص عندما يمشي في طريق ما أو يستمع إلى شخص أمامه، الأمر الذي جعله يتوه دائمًا عن عمته في الأسواق، وعلى الرغم من معرفة نضال بحالته، إلا أنه قرر الذهاب إلى البيت بنفسه، فقد كان نضال متفائلًا بالرغم من كل ما أصابه في المدرسة، واعتقد أن كل ما يحتاجه هو مجرد بطاقة جديدة تثبت وجوده، وكان يعلم أن عمته خديجة

موجودة في البيت، فاعتقد أن بإمكانها أن تصنع له هذه البطاقة لكي يرجع بها بسرعة ليلحق بيومه الدراسي الأول، فهذا يوم مميز كما قالت له عمته، وستبقى ذكراه الجميلة محفورة في ذاكرته طيلة العمر!

وفعلًا، بدأ نضال يمشي في طريق عودته حاملًا على ظهره حقيبته الثقيلة التي لم يكن يعرف ما بداخلها، وقد بدا الإنهاك على ساقيه الصغيرتين واضحًا من طريقة مشيه، ورغم تعبه وإحساسه بالعطش، استمر في المشي، ولكن بعد مضي أكثر من عشر دقائق من المشي، لم يظهر البيت في الأفق، فالشيء الذي لم يكن يلاحظه نضال أنه بدلًا من أن يتوجه نحو الشرق حيث يوجد بيته، توجه نحو الغرب... حيث الصحراء!

***

كان نباح الكلب يرتفع أكثر فأكثر كلما اقترب من نضال الذي كان يركض عبر الأرض الصحراوية بأقصى سرعة لديه، وبالرغم من عدم التفاته خلفه من شدة الخوف، أدرك نضال أن الكلب سيلحق به لا محالة مهما أسرع هو بركضه، فأيقن بأنه سيكون في مواجهة حتمية مع هذا الكلب خلال ثوان معدودة، عند تلك اللحظة، تذكر نضال قصة سمعها من ابن جيرانه أحمد، ففي أحد الأيام روى أحمد لأطفال الحي كيف أن أحد صبيًّا من الحي المجاور لم يتمكن من الجلوس على الكرسي لما يزيد عن سنة كاملة بعد أن عضه كلب متشرد، وأن هذا الصبي صار ينبح لمدة يومين نتيجة لعضة الكلب له، ولم يتوقف عن النباح إلا بعد أن حقنه الطبيب بإبرة بلغ طولها نصف متر، هذه الإبرة جعلته يصرخ ويتألم لعدة أيام متواصلة، كان نضال يحاول استجماع كل ما حدثهم به أحمد في نفس الوقت الذي كان يطير فيه طيرانًا من شدة الرعب، وفي لحظة تذكر نصيحة أعطاها أحمد للأطفال في نهاية ذلك الحديث، فقد قال لهم إن الكلاب تعض

فقط الأشخاص الذين يهربون منها، وأن أفضل وسيلة للنجاة من الكلاب هي أن لا يهرب الشخص من أمامها وأن لا يظهر خوفه منها، وإذا اقترب منه الكلب فعليه أن يمسح برفق على ظهر الكلب.

عند تلك اللحظة قرر نضال أن يجرب نصيحة أحمد، فتوقف عن الركض فجأة، واستدار نحو الكلب، ليرى أمامه على بعد أمتار معدودة كلبًا ضخمًا برأس كبيرة، كان ذلك الكلب يشبه إلى حد بعيد الكلب المفترس الذي كان نضال يراه في بعض حلقات الرسوم المتحركة، ففكر نضال بالركض من جديد من شدة فزعه، ولكنه تمالك نفسه وثبت في مكانه، وعندما أصبح الكلب على بعد أمتار معدودة من نضال، توقف فجأة أمامه وهدأ من نباحه قليلًا، فنظر نضال إليه وجلس على ركبتيه وهو يقول له بهدوء:

-تعال أيها الكلب الجميل، تعال!

-فتقدم الكلب نحو نضال بحذر، ودار دورة حوله، وبالرغم من توقفه عن النباح، إلا أن صوت أنفاسه كان مرعبًا، ففكر نضال بالهرب من جديد من شدة الخوف، ولكنه تذكر ما حدث للصبي في الحي المقابل، فاستجمع شجاعته من جديد، واقترب ببطء نحو الكلب، وأخذ يربت على ظهره وهو يقول:

-كلب جميل... كلب جميل.

بعد ذلك تحرك الكلب بعيدًا عن نضال، في حين قام نضال من مكانه وأكمل مشيه وهو ينظر إلى الكلب بحذر، واستمر نضال يراقب الكلب حتى اختفى عن نظره.

في ذلك الوقت، كان العطش قد بلغ بنضال مبلغًا كبيرًا، وقد أنساه خوفه من الكلب ذلك الشعور لفترة مؤقتة، ولكن ما أن غاب عنه الكلب حتى أحس بالعطش من جديد، خاصة وأن نضال ركض دون أن يشعر لمسافة طويلة هربًا من ذلك الكلب، وفجأة وبعد تجاوزه لتلة رملية صغيرة اعترضت طريقه، رأى نضال عن بعد بعض العمارات السكنية، فأخذ يجري باتجاهها، وما أن وصل إلى تلك العمارات السكنية حتى صار يتنقل بسرعة بين طرقاتها آملًا أن يعثر على العمارة التي يسكن بها، وبينما نضال يتنقل من عمارة إلى أخرى ومن طريق إلى آخر، ظهرت أمامه فجأة سيارة مسرعة كانت على وشك أن تدهسه قبل أن تتوقف أمامه مباشرة، فوقع نضال على ظهره أمام السيارة من هول الصدمة، وبالرغم من أن السيارة لم تصبه، أحس بدوار في رأسه، أعقبه شعور شديد بالتعب يجري في أوصاله، فأحس برغبة قوية في إغلاق عينيه، ولكن قبل أن يغمض عينيه تمامًا، نزلت سيدة من السيارة وهي تصرخ وتشير بأصبعها نحوه وتقول:

-أيها الولد المتشرد، كيف تجري هكذا أمام السيارات؟ لقد كدت أن تتسبب بتخريب سيارتي الجديدة، سأتصل بالشرطة لكي يرموا بك في السجن!

وما أن سمع نضال تهديد السيدة له بالشرطة، حتى أحس بالدم يجري من جديد في عروقه، ولم يعد يحس بأي دوار في رأسه، فقام على الفور من على الأرض، وأخذ يركض بأقصى سرعة لديه، فقد كان نضال يخشى أن يدخل السجن، خاصة بعد القصة المخيفة التي سمعها ذات يوم من أحمد ابن جيرانه، فقد أخبره أحمد أن أحد أجداده أودع السجن وهو طفل صغير، وبقي في ذلك السجن لمائة عام، وعندما خرج من السجن كان شعره طويلًا وأبيض، لذلك خاف نضال من أن يلقى نفس المصير الذي لقيه جد ابن جيرانه أحمد، ومما زاد من خوفه أنه سمع صوت سيارة إسعاف من بعيد، فاعتقد أنها سيارة الشرطة التي جاءت للقبض عليه، فأسرع للاختفاء بين الأبنية، وصار يركض بين أعمدة العمارات السكنية ليواري نفسه عن أعين رجال الشرطة، الذين كان نضال يظن أنهم ينتشرون في طرقات الحي كله بحثًا عنه، فلم يكن نضال يعلم وقتها أن ما قالته تلك السيدة كان مجرد أسلوب اتبعته لإثارة وعي نضال بعد أن لاحظت أنه كان على وشك أن يغمى عليه، فعمدت على إثارته

لتنشط فيه مادة في الجسم تدعى هرمون الإدرينالين، هذه المادة يفرزها الجسم في أوقات الخطر، وهي التي منحته كل تلك القوة التي أحس بها بعد سماعه بتهديد السيدة، هذا على الأقل ما أخبرته به عمته خديجة فيما بعد!

وبعد ما يقرب من ربع ساعة من الركض المتواصل، توقف نضال بعد أن كاد أن يسقط من شدة الإعياء والعطش، ولكنه رغم ذلك استمر يمشي ببطء، وبينما هو على هذه الحال المزرية، شاهد دكانًا صغيرًا بالقرب منه، فتوجه إليه ليشتري شرابًا باردًا يطفئ به عطشه الشديد، فقد كان نضال يملك بعض النقود التي أعطته إياها عمته خديجة ليشتري ما يرغب به من بقالة المدرسة.

-مرحبًا يا عم، هل عندك عصير «سَنكست» بطعم البرتقال؟
سأل نضال البائع الذي كان مشغولًا في ترتيب البضاعة.

-هناك في الثلاجة خلفك. أجاب البائع دون أن ينظر إلى نضال.

فتح نضال الثلاجة برفق، وتناول علبة عصير باردة، ووضع يده في جيبه لكي يدفع للبائع ثمنها، ولكن جيبه كان فارغًا، بعد ذلك فتح نضال الثلاجة مرة أخرى دون أن يتكلم بأي كلمة، وأعاد العصير إلى مكانه بهدوء، وهَمَّ بالخروج من الدكان.

-إلى أين أيها الصغير؟! لماذا لم تشترِ العصير؟ سأل البائع نضال وقد ترك بضاعته وانتبه إليه.

-يبدو أنني أضعت النقود يا عم، إلى اللقاء.

-انتظر! انتظر لحظة أيها الصغير!

ترك البائع كل شيء كان في يديه، واقترب من نضال، ولم يكن في حاجة لكثير من الجهد ليلاحظ الحالة المزرية التي كان بها، فتناول على الفور كرسيه ووضعه أمام نضال، وفتح الثلاجة ليخرج عصيرًا طبيعيًا باردًا.

-اجلس هنا يا بُني، وتناول هذا العصير، إنه أفضل من السنكست.

-ولكنني أضعت النقود يا عم.

-لا عليك، إنها هدية مني، اشرب يا بُني.

-وقبل أن يجلس على الكرسي، تناول نضال العصير وشربه على نفس واحد من شدة العطش، بينما تناول البائع زجاجة ماء مثلجة، وقطعة من الحلوى وأعطاها لنضال، وهو يسأله متعجبًا:

- من أنت أيها الصغير؟ لم أرك من قبل هنا! وأين بيتك؟

فأخبره نضال عن اسمه، وروى له ما حدث له في هذا الصباح، وما حصل له في المدرسة، وكيف أنه أضاع الطريق بعد خروجه منها.

-لا تقلق يا بُني، سأتصل الآن بأهلك لكي يأتوا إليك هنا، أخبرني يا نضال ما رقم هاتف منزلكم لأتصل بأهلك.

-لا أحفظ رقم الهاتف.

-إذن فقل لي ما عنوان المنزل لكي أوصلك إلى أهلك بالسيارة.

-لا أعلم.

-ما اسم مدرستك؟

-لا أعلم. أجاب نضال وهو يهز رأسه بالنفي.

-لا عليك يا بُني، لا عليك، سأتصل الآن بالشرطة، وهم سيساعدوننا في الوصول إلى أهلك.

وما أن سمع نضال بكلمة «الشرطة» تخرج من فم البائع، حتى قفز من كرسيه بسرعة، وخطف حقيبته الثقيلة من على الأرض، وأخذ يركض كالبرق خارج الدكان على قدميه الصغيرتين!

* * *

الرقم الممنـــــوع

بعد مرور أسبوعين من بداية العام الدراسي، تمكن نضال أخيرًا من الالتحاق بالصف الأول الابتدائي، فقد كان مضطرًّا للانتظار لكل تلك الفترة الزمنية لكي يتمكن من استخراج بطاقة مدرسية جديدة تمكنه من الالتحاق بالصف الأول الابتدائي، وعلى مدار تلك الفترة كان يستيقظ في الصباح الباكر لكي يرافق عمته إلى مبنى وزارة التربية والتعليم للقيام بالإجراءات القانونية لاستخراج بطاقة مدرسية جديدة، وخلال هذين الأسبوعين كان زوج عمته يلومه بشكل يومي على ضياع تلك البطاقة، ويذكره كيف أنه كان سببًا في خسارته لراتب نصف يوم من العمل، بعد أن اضطر لترك عمله باكرًا في أول أيام العام الدراسي، وذلك بعد أن اتصلت الشرطة بمقر عمله لتخبره أنه ينبغي عليه أن يحضر لاستلام نضال بعد أن عثروا عليه ظهيرة ذلك اليوم نائمًا تحت ظل شجرة في إحدى الحدائق العامة، وبالرغم من أن نضال لم يجد في فصله سوى مقعد خلفي وحيد في مؤخرة المقاعد، إلا أنه كان سعيدًا لتمكنه في نهاية الأمر من الالتحاق بالمدرسة مثل بقية التلاميذ، فلم يكن حزينًا لجلوسه وحيدًا خلف كل تلاميذ الفصل، بل على العكس كان سعيدًا لذلك، فقد

اكتشف منذ أول يوم أن ذلك المقعد الخلفي يعطيه مساحة أكبر من الحرية للقيام بما يرغب دون أن يراه التلاميذ أو ينتبه له المعلم، في حين يستطيع هو رؤية كل ما يقوم به تلاميذ الفصل، وفي بعض الأوقات عندما كان المعلم ينشغل بتصليح الكراريس، كان كل تلميذ يجلس على نفس المقعد بجانب تلميذ آخر، بينما كان نضال سعيدًا بجلوسه وحيدًا في مقعد كبير، ومستمتعًا من عدم إزعاج أحد له أثناء سرحانه في خيالاته.

ويومًا بعد يوم، بدَا واضحًا تميز نضال عن باقي التلاميذ، خاصة في مادة الرياضيات التي كانت عملياتها الحسابية تستهويه بشكل كبير، خاصة وأنها لا تحتاج إلى كثير من الحفظ الذي كان نقطة ضعفه، وفي حين كان التلاميذ يحتاجون إلى استخدام الورقة والقلم للقيام بعمليات الجمع والطرح التي كان المعلم يختبرهم فيها، كان نضال يقوم بتلك العمليات في ذهنه ليتوصل إلى الإجابة الصحيحة قبل كل التلاميذ، الأمر الذي جعله التلميذ المفضل للأستاذ الفظ الذي كان جميع التلاميذ يخافونه، وكان ذلك الأستاذ عادة ما يبتسم في وجه نضال عندما يتمكن نضال من التوصل للإجابات الصحيحة بشكل سريع، واستمرت هذه العلاقة الودية بين ذلك الأستاذ ونضال حتى جاء ذلك اليوم الذي غير من تعامل الأستاذ مع تلميذه النجيب!

فقد كان المنهاج الدراسي للصف الأول الابتدائي يفرض على التلاميذ تعلم الأرقام من 1 إلى 100، وكان الأستاذ يعد من الواحد إلى المائة في بداية كل حصة رياضيات التي كانت دائمًا أول الحصص، وكان على التلاميذ أن يرددوا كل رقم خلف الأستاذ، في بداية الأمر كان هذا التقليد اليومي مسليًا لنضال، خاصة مع تنافس التلاميذ أيهم يردد ما يقوله الأستاذ بشكل أقوى، ولكن وبعد مرور ما يقرب من أربعة أشهر من تكرار نفس التقليد، صار هذا الأمر مملًّا للغاية بالنسبة لنضال، وكان يتساءل دائمًا في قرارة نفسه عن جدوى هذا الأسلوب في التعليم، وفي حين كان التلاميذ يضحكون ويصفقون بفخر عند الانتهاء من ترديد الرقم 100 خلف المعلم، كان نضال يتساءل في قرارة نفسه عن الرقم الذي يأتي بعد الرقم 100، كان نضال يرغب بتعلم رقم جديد بدلًا من تكرار نفس الأرقام التي يلقيها المعلم على مسامعهم، وفي يوم من الأيام وبينما الأطفال يصفقون ويضحكون بعد ترديدهم للرقم 100 خلف معلمهم الذي كان ينظر إليهم مسرورًا، ارتفع صوت من المقاعد الخلفية ليخترق تلك الضحكات وذلك التصفيق الحاد:

-أستاذ ماذا يأتي بعد الرقم 100 يا أستاذ؟!

وما أن سأل نضال ذلك السؤال، حتى توقف الجميع عن الضحك والتصفيق، فلم يعتد التلاميذ على سماع مثل تلك الأسئلة، فخيم صمت عميق في أرجاء الفصل من هول ما سمعوه، قبل أن يقوم المعلم من مقعده وآثار الصدمة بادية على وجهه، ليقلب ناظريه بين التلاميذ وهو يقول بغضب:

-من الذي سأل هذا السؤال السخيف؟

فقام نضال من مقعده وأجاب بصوته الطفولي:

-أنا نضال بدوي يا أستاذ.

-نضال، أنت تلميذ مجتهد، ولو غيرك سأل هذا السؤال السخيف لعاقبته، التزم فقط بما أعلمكم إياه، فهذا هو المطلوب منك ومن بقية زملائك، أنتم مجرد أطفال صغار في المرحلة الابتدائية الأولى، ومطلوب منكم وفق المنهاج المدرسي أن تعدوا فقط من الرقم 1 إلى الرقم 100، هذا هو حدكم الذي لا يجوز لكم تجاوزه، هناك أرقام لا ينبغي لكم معرفتها لأنها أكبر من قدرتكم واستيعابكم، ويمكن لهذه الأرقام أن تسبب لكم اضطرابًا في التفكير، رددوا فقط الأرقام التي ألقيها عليكم كل صباح لتنجحوا في دراستكم، هذا هو المطلوب منكم فقط، هل فهمتم ما أقوله لكم يا أولاد؟ سأل المعلم وهو ينظر إلى التلاميذ.

-فهمنا يا أستاذ. ردد التلاميذ بصوت واحد.

نظر نضال بتعجب إلى زملائه وهم يظهرون طاعتهم وموافقتهم لكلام الأستاذ الذي لم يستطع فهمه، وبعد ذلك استمر التلاميذ في متابعة كلام أستاذهم، في حين بقي هو طيلة فترة ذلك اليوم الدراسي صامتًا يحاول فهم ما قاله الأستاذ، وبعد انتهاء وقت الدوام، أسرع نضال لكي يقابل عمته خديجة التي كانت تنتظره خارج المدرسة، وبينما هما في طريقهما إلى البيت، نظر نضال إلى عمته وسألها:

-عمتي، ماذا يأتي بعد الرقم 100؟

-ما هذا السؤال الغريب يا نضال؟ أليس مقررًا عليكم في الصف الأول الابتدائي معرفة الأرقام من 1 إلى 100 فقط؟

-أجل أجل يا عمتي أعلم ذلك، ولكن ما هو الرقم الذي يأتي بعد الرقم 100؟!

-وهل سألت أستاذك عن ذلك يا نضال؟

-نعم سألته، ولكنه بدلًا من الإجابة عن سؤالي، قال كلامًا غريبًا لم أفهمه، كل ما أريده فقط هو معرفة الرقم الذي يأتي بعد الرقم 100!

توقفت العمة خديجة عن المشي ونظرت إلى ابن أخيها بشفقة

وهي تقول له:

-أصغ إلي جيدًا يا صغيري، في هذه الدنيا ثمة أمور إذا عرفناها سببت لنا المشاكل من قبل بعض الأشخاص، هؤلاء الأشخاص لديهم من القوة ما يمنحهم سلطة تحديد ما ينبغي لنا معرفته وما لا ينبغي لنا معرفته، لذلك فهم يشعرون بإهانة كبيرة إذا أظهر أي أحد معرفته بشيء لم يأذنوا هم له بمعرفته، فيشنون لذلك حربًا لا رحمة فيها على كل من يخالف إرادتهم أو حتى يفكر مجرد تفكير السير عكس إرادتهم، لذلك فمن الأفضل لك عدم السؤال عن مثل تلك الأمور، فقط كن مثل الآخرين لكي تنعم بحياة هادئة.

-وماذا لو عرفت شيئًا لوحدي دون الحاجة لسؤال هؤلاء الأشخاص يا عمتي؟

-عند تلك الحالة يا نضال إياك ثم إياك أن تظهر ما عرفته أمامهم، فقط احتفظ بما عرفته لنفسك، أو بكل بساطة تناسى ما عرفته وسر مع التيار مثل غيرك، هذا أفضل من أن تخوض حربًا أمام أشخاص أقوى منك بكثير.

-ولكن يا عمتي ألست أنت من كنت تقولين لي دائمًا إن السمكة الميتة هي فقط من تسبح دائمًا مع التيار؟!

-ليس كل ما نقوله قابل للتطبيق يا صغيري، أحيانًا نردد بعض

العبارات المثالية فقط لأنها عبارات جميلة تداعب مخيلاتنا وأحلامنا، ولكن حينما يأتي وقت التطبيق الحقيقي لها، نكتشف أننا أضعف من تطبيقها على الواقع.

وبعد هذه الجملة الأخيرة التي قالتها بنبرة حزينة، توقفت خديجة فجأة عن الكلام، وبدا عليها التأثر وكأنها تذكرت شيئًا من الماضي، وأثناء طريقها إلى البيت لاحظ نضال أن عمته حاولت إخفاء عينيها اللتين اغرورقتا بدمع تلألأ تحت أشعة الشمس التي رافقتها طيلة الطريق.

ويومًا بعد يوم، استمر التلاميذ في ترديد الأرقام التي يلقنهم إياها معلمهم، وكان نضال من بين هؤلاء التلاميذ المرددين على الرغم من عدم قناعته بما يفعل، فقد ظل ذلك السؤال يراود تفكيره بين الحين والآخر، إلا أنه كان يذكر نفسه دائمًا بنصيحة عمته التي كان يعلم مدى حبها له، فصار يعيش في حالة من الصراع النفسي. بين رغبته الملحة في المعرفة من جهة، وبين خوفه مما قد يترتب عن تلك المعرفة من جهة أخرى، ومع مرور الأيام ازداد ذلك الصراع وطأة بين جدران ذاته، وأحس أنه في حاجة لمعرفة ذلك الرقم الذي صار يشغل باله طيلة الوقت، ففكر بسؤال عمته من جديد، ولكنه تذكر دمعها الذي لا يعرف سببه عندما سألها عن ذلك الرقم في السابق، فقرر أن لا يفاتحها بهذا الموضوع من جديد، ثم فكر نضال بسؤال

زوج عمته عن ذلك الرقم، ولكنه أعرض عن تلك الفكرة لأنه كان يخاف من ذلك الرجل خوفًا شديدًا، وكان يشعر أنه لا يهتم به أو بمشاعره على الإطلاق، وفي نهاية الأمر قرر نضال سؤال الشخص الذي يثق به وبمعلوماته، إنه أحمد ابن الجيران، خاصة وأن أحمد يدرس في الصف الثاني الابتدائي، لذلك فمن المؤكد أنه يعرف الرقم الذي يلي الرقم 100، وفعلًا انتظر نضال انتهاء أحمد من جلسته اليومية مع أطفال الحي، ليسأله بعدها عن ذلك الرقم المجهول.

وفي صباح اليوم التالي، بدأ تلاميذ الصف الأول الابتدائي يومهم كالمعتاد بترديد الأرقام من 1 إلى 100 خلف أستاذهم، وما أن فرغوا من الرقم 100 حتى بدأوا بالضحك والتصفيق، عندها تفاجأ الجميع بصوت اخترق ذلك الاحتفال اليومي:

-مائة وواحد!

عند تلك اللحظة، التفت التلاميذ إلى آخر مقعد في الفصل، فقد كان الجميع يدرك من هو صاحب ذلك الصوت الطفولي، في حين وقف الأستاذ صامتًا لا يحرك ساكنًا، وبعد بضع ثوان من الصمت الذي ساد حجرة الفصل، نهض الأستاذ من كرسيه ونادى بغضب وعيناه تقدحان شررًا:

-نضال بدوي... تعال إلى هنا يا ولد!

تحرك نضال بخطوات بطيئة نحو أستاذه والتلاميذ يراقبونه بنظراتهم، في حين تناول الأستاذ عصاه ورفعها عاليًا، ثم أمر الأستاذ نضال أن يفتح يديه لينال عليهما ضربتين بالعصا عقابًا له، دون أن يشرح له السبب الذي استحق من أجله العقاب، ففتح نضال كف يده اليمنى ليضربه الأستاذ عليها ضربة قفز بعدها من شدة الألم، ثم رفع الأستاذ عصاه ليضربه الضربة الثانية على كف يده اليسرى، ولكن نضال تذكر ما أخبره به ابن جيرانه أحمد بداية العام، ففتح كف يده اليمنى من جديد لينال عليها الضربة الثانية، فضربه المعلم عليها ضربة أفقدته الإحساس بالألم، ولكن ما أن عاد نضال إلى مقعده، حتى أدرك بأنه لا يستطيع التقاط قلمه الرصاص بيده اليمنى، فقد كانت أصابع تلك اليد متورمة لدرجة أنه لم يعد يستطيع تحريكها لما يقرب من ساعة كاملة، فقرر أن يتلقى عقابه على كف يده اليسرى في المرات القادمة!

وفي صباح اليوم التالي تفاجأ التلاميذ بأن نضال، بالرغم مما أصابه بالأمس، قام بإعادة ترديد الرقم 101 من جديد، فنادى عليه الأستاذ لينال ضربتي العقاب، وبعد ذلك حذره بأنه سيلاقي عقابًا أشد إذا قام بترديد ذلك الرقم من جديد، ولكن نضال كرر فعلته في صباح اليوم الثالث، وانتظر التلاميذ أن ينال عقابًا رهيبًا هذه المرة،

ولكن الأستاذ بدلًا من أن يأمره بالقدوم إليه، تقدم هو بنفسه إليه ليتفاوض معه، فسأله بصوت رقيق:

-لماذا تصر على مخالفة أستاذك الذي يحبك يا نضال؟ ألا تعلم أنك تلميذي المفضل في هذا الفصل؟ هل صرت مثل الأولاد السيئين الذين لا يحترمون من هم أكبر سنًّا منهم؟ ألا تعلم أن طاعة الأستاذ واجبة عليك، وأنه ينبغي عليك تنفيذ كل ما يأمره أستاذك دون إظهار اعتراض؟ فالأستاذ لا يخطئ أبدًا، وهو يعلم مصلحتك أكثر منك!

-المعذرة يا أستاذ، لم أقصد إظهار عدم احترامي لك، كل ما في الأمر أنني سئمت من ترديد نفس الكلام طيلة تلك الأشهر، نحن نضيع الوقت بترديد نفس الشيء خلفك كالببغاوات صبيحة كل يوم، لذلك أردت أن أتعلم شيئًا جديدًا.

-ولكن يا نضال ما تقوم به يعرض الفصل إلى الفوضى، فهذا الرقم أصعب من أن يستوعبه من هو في عمرك، وحتى لو استوعبته أنت فلن يستوعبه بقية التلاميذ في الفصل، أنت بذلك تسبب الفوضى!

-على العكس يا أستاذ، البارحة أخبرني كثير من زملائي التلاميذ أنهم أيضًا كانوا يتساءلون عن جدوى ترديد نفس الأرقام في كل

صباح، ولكنهم كانوا خائفين من البوح بذلك خوفًا من معاقبتك لهم، لذلك يا أستاذ فمن الأفضل أن تمنح التلاميذ حرية الاختيار، فمن أراد أن يتعلم شيئًا جديدًا فيمكنك تعليمه إياه، ومن أراد ترديد نفس الأشياء السابقة فبإمكانه أن يظل على ما هو عليه.

وبعد ما قاله نضال، أمسك الأستاذ بقميصه وهو يهزه بشدة ويصرخ في وجهه بغضب:

-لست أنت من يحدد طريقة عملي أيها الولد العنيد!

عند تلك اللحظة أدار كل من في الفصل أنظارهم نحو الأستاذ ونضال، فأدرك الأستاذ ذلك، فتمالك نفسه من جديد، ورفع يديه عن قميص نضال، وأخذ نفسًا عميقًا ليكتم به غضبه، ثم قال لنضال بصوت منخفض:

-هناك شيء أردت إخبارك به يا نضال منذ فترة، لقد طلب المدير مني اختيار عدة تلاميذ ليمثلوا المدرسة في مسابقات المعرفة المدرسية التي تجرى كل عام بين مدارس المدينة، ونحن في العادة لا نختار أي تلميذ من المرحلة الابتدائية الأولى، ولكن في هذا العام قررت اختيارك لتكون أنت أصغر تلميذ في تاريخ المدرسة يشترك في تلك المسابقات، ولكن هذا الأمر مرهون على اختيارك أنت، فإما أن

تستمع إلى كلام معلمك وتكون من ضمن التلاميذ المميزين على مستوى المدينة، وإما أن تصر على عنادك وتخسر كل شيء!

-شكرًا لك يا أستاذ على اختيارك لي، ولكني سأظل أردد الرقم 101 في كل صباح!

عندها نظر الأستاذ في عيني نضال وقال له بنبرة تحد:

-استمع إلي أيها الولد، لقد حاولت أن أكون لطيفًا معك، ولكن يبدو أن اللطف لا يجدي مع أمثالك، على مدى سنين طويلة لم يفكر أحد من التلاميذ بمخالفة أوامري، ولن أسمح الآن لطفل أحمق مثلك أن يغير هذا التقليد، هذا هو تحذيري الأخير، إذا قمت بما قمت به من جديد، فأعدك أن أجعل منك أضحوكة بين التلاميذ، هل فهمت ما أقوله جيدًا؟

وبعد ما قاله لنضال، رجع الأستاذ إلى كرسيه، فيما بقي نضال طيلة يومه يفكر بما كان الأستاذ يعنيه بتلك التهديدات التي وجهها له!

***

نضـــــال

بـدأ التلاميـذ صـباحهم كالمعتـاد بإعـادة ترديـد الأرقـام خلـف أستاذهم، ولكـن بـدا واضـحًا مـن وجـوه الأستاذ والتلاميذ على حد سواء أن الجميع كان يترقب ما سيفعله نضال في ذلك اليوم، خاصة وأن بعض التلاميذ، ممن يجلسون بالقرب من نضال، نقلوا إلى بقية تلاميـذ الفصـل مـا دار بينـه وبـين الأستاذ في اليـوم السـابق، لـذلك لم يرتفع صـوت الضـحك والتصـفيق هـذه المـرة بعـد انتهـاء التلاميـذ مـن ترديد الرقم 100، بل صمت الجميع وهـم يلتفتون نحو نضال الذي قام من كرسيه وهو يقول بصوت مرتفع:

-مائة وواحد!

بعـد ذلـك استدار التلاميـذ مـرة أخـرى نحـو أسـتاذهم لـيروا مـا سيقدم على فعله.

-أيها التلاميـذ الأعـزاء، مـن المؤكـد أن جميعكـم قـد لاحـظ خـلال الأشهر الماضية أن زميلكم نضال لديه ذاكرة ضعيفة جدًّا، لذلك ما رأيكم أن نختار لـه اسمًا جديدًا لكي يعرفه به الناس في حالة ضياعه في الطرقات، من اليوم وصاعدًا سيكون اسم نضال بدوي هو «مائة وواحد»! قال المعلم وهو يقهقه بصوت عال.

وما أن سمع التلاميذ قهقهات أستاذهم، حتى بدأوا بدورهم بالضحك على نضال وهم يشيرون بأصابعهم نحوه وينادونه بسخرية بهذا الرقم، وهو الأمر الذي لم يستوعبه نضال في البداية، فقد كان ينظر إلى زملائه التلاميذ متعجبًا من سبب ضحكهم، والذي زاد من تعجبه أن رأى أن أكثر من كان يقهقه من بين زملائه هم التلاميذ الذين أخبروه في اليومين السابقين أنهم سعيدون بما قام به، وأنهم كانوا يتمنون القيام بما قام به لولا خوفهم من عقاب الأستاذ، كان نضال ينظر إلى هؤلاء التلاميذ بالتحديد محاولًا أن يفهم السبب الذي يدفعهم للضحك بصوت أعلى من بقية التلاميذ!

وعندما حان وقت الاستراحة، خرج نضال إلى ساحة المدرسة ليتناول شطيرته التي حضرتها له عمته خديجة، ولكنه تفاجأ أن عدد كبيرًا من التلاميذ كانوا يمشون خلفه وهم يضحكون ويصيحون بسخرية:

-مائة وواحد... مائة وواحد... مائة وواحد.

فأخذ نضال يبحث في ساحة المدرسة عن مكان هادئ يتناول فيه شطيرته، ولكن التلاميذ استمروا بملاحقته وهم ينعتونه بالرقم مائة وواحد، وبعد ذلك انضم بعض التلاميذ من الفصول الأخرى إلى قافلة المستهزئين بنضال، فكانوا يمشون خلفه وهم ينادونه مرددين

مائة وواحد، دون أن يعرفوا لماذا ينادونه بهذا الرقم، بل دون أن يعرفوا بالأساس من هو هذا التلميذ الذي يمشون خلفه مستهزئين!

ومع مرور الأيام، صار نضال يشعر بالضيق الشديد أثناء وجوده بالمدرسة، فقد ازدادت وطأة الاستهزاء به، وصار بعض التلاميذ يحاولون ضربه في ساحة المدرسة وهم يدفعونه أرضًا ويصيحون مائة وواحد، الأمر الذي جعله يفضل البقاء في الفصل أثناء الاستراحة المدرسية، ولكنه وبالرغم مما كان يتعرض له، استمر بترديد الرقم 101 كل صباح بعد ترديد التلاميذ للرقم 100، ولكن بدا واضحًا أن نبرة صوته كانت تنخفض يومًا بعد يوم أثناء ترديده لهذا الرقم، هذا الانخفاض بصوت نضال لم يزد الأستاذ إلا مزيدًا من السخرية بنضال، فصار يدعو التلاميذ للسخرية من نضال ونبذه بعد كل مرة يردد فيها هذا الرقم، وبعد ذلك يقوم الأستاذ بتجاهله أثناء وجوده في الفصل، فلا يسمح له بالإجابة على أي مسألة رياضية، على الرغم من أن نضال في بعض الأحيان يكون هو التلميذ الوحيد الذي يرفع يده عاليًا للإجابة على بعض المسائل الرياضية الصعبة.

في تلك الأثناء كانت خديجة عمة نضال ترافقه كل يوم من وإلى المدرسة، وبالرغم من أن نضال لم يخبرها بما كان يتعرض له في

المدرسة، كانت خديجة تحس بحزنه وضيقه، خاصة وأنها لاحظت في الأيام الأخيرة بعض التغيرات التي زادت من قلقها عليه، فقد صار كلامه أقل، وصوته أكثر انخفاضًا، وصارت شطائره المفضلة التي كانت تعدها له ترجع في حقيبته دون أن يتناولها، وأصبح يتأخر أثناء خروجه من المدرسة، فقد كان نضال ينتظر خروج جميع التلاميذ قبله لكي يتجنب سخريتهم منه أمام عمته.

-ما الأمر يا صغيري؟ سألت العمة خديجة نضال وهما يمشيان ببطء في طريقهما إلى البيت.

-لا شيء يا عمتي، لا شيء. أجاب نضال بصوت منخفض.

توقفت خديجة عن المشي، وجلست على ركبتيها أمام نضال وهي تمسك بيديه برفق، وقالت له وهي تنظر إلى عينيه مبتسمة:

-أتعلم يا نضال، أنت لا تحتاج للتكلم لكي أفهمك، فأنا أعرف ما تريد قوله بمجرد النظر إلى عينيك، فقد كنت أثناء سنواتك الأولى لا تتكلم بأي كلمة، الأمر الذي أقلق والديك كثيرًا، فقد بدأ الأطفال في عمرك بالكلام بينما تأخرت أنت بالنطق، فكانت أمك تقرأ عليك قصصًا تاريخية قبل نومك لكي تتعود على ألفاظ الحروف، بينما قمت أنا بتعلم لغة الإشارات لكي أتواصل من خلالها معك، وبعد أن

علمتك لغة الإشارات قمت برسم كثير من الرموز لكي تختار منها الرمز الذي تريد التعبير من خلاله عن ما ترغب به، ومع مرور الوقت صرت أفهم ما تريده بمجرد النظر إلى عينيك الصغيرتين، وها أنت قد كبرت يا صغيري، وصرت تتحدث بشكل ممتاز، ولكن عمتك التي تحبك لم تتغير، فهي ما زالت تفهمك دون أن تنطق أنت بأي كلمة، والآن أخبرني عن سبب حزنك في الأيام الأخيرة.

-أعتقد أنك كنت محقة يا عمتي في كل ما قلتيه لي، في هذه الدنيا توجد أمور إذا عرفناها سببت لنا المشاكل!

-كنت متأكدة أنك لن تتوقف عن البحث بعد ما قلته لك. **قالت خديجة وهي تبتسم ابتسامة رقيقة في وجه نضال قبل أن تضيف:**

-والآن أخبرني بكل شيء يا صغيري.

بدأ نضال يقص على عمته ما حدث معه بالتفصيل ودموعه تجري على خديه، **وبعد أن انتهى من الكلام سألته عمته بهدوء:**

-والآن ماذا تريد أن تفعل؟

-لقد تعبت يا عمتي، ما عدت أستطيع التحمل، كان علي الاستماع إلى نصيحتك من البداية، ولكن الوقت قد فات الآن، لذلك أعتقد أنه ينبغي علي تغيير مدرستي والتوجه إلى مدرسة بعيدة لا

يعرفني بها أحد، وهناك سأقوم بتنفيذ كل شيء يطلبه الأستاذ مني، حتى ولو لم أكن مقتنعًا به، ولن أبحث عن أي شيء لم يأذن الأستاذ لي بمعرفته، سأكون تلميذًا مطيعًا لا يعصي أوامر الأستاذ، وبذلك أعود لحياة الهدوء والراحة التي ينعم بها بقية التلاميذ.

كانت خديجة تستمع إلى ما يقوله نضال بإنصات، وعندما فرغ من كلامه ظلت صامتة لثوان قبل أن تقول له:

-هل تعلم يا نضال أنني أنا من أسميتك بهذا الاسم؟

-نعم يا عمتي أعلم ذلك، فلقد أخبرْتِني بهذا الأمر لعشرات المرات. قال نضال وهو يمسح دمعه مبتسمًا.

-صحيح، ولكنني لم أخبرك من قبل عن السبب الذي أطلقت لأجله هذا الاسم عليك، فعندما كانت أمك حاملًا بك، لم يرغب والداك بمعرفة نوع الجنين إن كان ولدًا أو بنتًا، وبقيا أشهر عديدة يفكران بالاسم الذي سيطلقانه على مولودهما المرتقب، فقد كانا يرغبان باسم مميز لم يطلق على أحد من أفراد العائلة من قبل، فاقترحت عليهما اسم نضال، فأعجبهما الاسم لجماله وسهولة لفظه، خاصة وأنه اسم يطلق على الأولاد والبنات، لذا فهو سيناسب المولود الجديد أيا كان جنسه، ولكن الشيء الذي لم أخبر والديك به هو أنني اخترت هذا الاسم لك لكي تبقى كلمة «نضال» مرافقة لك

طيلة حياتك، فيكون طريق حياتك مقترنًا بهذه الكلمة، حتى لا تكون مثلي ومثل كثير من الناس الذين لم يفهموا معنى النضال في وقت مبكر من عمرهم، فعانوا في حياتهم كثيرًا، وتاهوا في مفترقات العمر، وتنازلوا عن كثير من أجمل ما يملكون، قبل أن يكتشفوا أخيرًا معنى النضال في إكمال طريق الحياة.

-طريق الحياة؟! ماذا تقصدين يا عمتي بطريق الحياة؟

-استمع إلي جيدًا يا صغيري...

اقتربت خديجة أكثر نحو نضال قبل أن تستأنف حديثها:

-الحياة ليست كما كنا نحلم بها في صغرنا، الحياة ليست تلك الحديقة الخضراء التي تنتشر فيها الورود والأزهار تحت السماء المشرقة، والناس في هذه الحياة ليسوا مثل هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين كنا نعرفهم صغارًا، الحياة أصعب من ذلك بكثير، وأعقد من ذلك بكثير، الحياة طريق طويل وصعب، ستواجهك فيه رياح عاتية تزداد وطأتها كلما تقدمت أكثر إلى الأمام، وستغطي سماءه من فوقك سحب داكنة لتحجب عنك ضوء الشمس، وكلما تقدمت أكثر، سترى من حولك وحوشًا مفترسةً لا تعرف أي معنى للرحمة أو الشفقة، هذه الوحوش ستحاول جاهدة بكل ما أوتيت من قوة

إيقاف تقدمك، وكسرك، وتمزيقك إربًا إربًا إن استطاعت، ومهما كنت قويًا، ومهما كنت حريصًا، فإنك لن تستطيع التقدم في هذا الطريق دون أن تتعثر فيه قدماك، ودون أن تسقط مرة تلو المرة، والناس في هذا الطريق على ثلاثة أنواع، النوع الأول يستسلم منذ البداية بعد أول سقطة، فيسلم نفسه لتلك الوحوش المفترسة لكي تنال منه، والنوع الثاني يحاول المقاومة في البداية، ولكنه يستسلم بعد ذلك بعد أن يفقد الأمل والدافع لإكمال تقدمه، بحجة صعوبة الطريق ووحشته، أو بحجة الخوف من بطش الوحوش المحيطة به، أما النوع الثالث من البشر فهو النوع المقاتل، إنه النوع المميز للعظماء، هؤلاء فقط من يتمكنون من إكمال طريق الحياة حتى النهاية، هؤلاء هم الذين لا يستسلمون أبدًا، لأنهم وبكل بساطة لا يعرفون ما تعنيه كلمة استسلام، فيستمرون في تقدمهم رغم كل ما يعترضهم من مصاعب وآلام، ليس بالضرورة لأنهم هم الأقوى أو الأذكى، بل لأنهم تميزوا عن غيرهم بأنهم آمنوا بأنفسهم، آمنوا أن الله لم يخلقهم عبثًا، آمنوا أن هناك معنى لوجودهم في هذه الحياة، فكانوا ينهضون من جديد بعد كل سقطة ليكملوا طريقهم بإصرار أكبر من ذي قبل، غير آبهين بظلمة الطريق وصعوبته، وغير مبالين

بوحوش الغابة التي تحاول إيقاف تقدمهم، بعد أن اختار هذا النوع الفريد من البشر خيارًا واحدًا فقط، خيار الاستمرار، الاستمرار في طريق الحياة!

-هل تقصدين يا عمتي أنه ينبغي علي البقاء في المدرسة ومواجهة ما يعترضني فيها بدلًا من الانتقال إلى مدرسة أخرى؟

-لست أنا من يحدد ذلك يا نضال، الوحيد الذي يستطيع تحديد ذلك هو أنت، فأنت فقط من يستطيع الاختيار، فحياتك التي وهبها الله لك ملكك أنت فقط، وأنت فقط من يملك حرية اختيار قراراتك الخاصة، أما أنا وغيري فإمكاننا فقط توجيه النصائح لك، لكن تحديد مسار حياتك، أنت فقط من يستطيع القيام به!

-وبماذا تنصحينني يا عمتي؟ تساءل نضال بتردد.

-أنا لست ممن يحبون المواجهة يا نضال، لذلك نصحتك منذ البداية ألا تسأل عن ذلك الرقم الذي قد يسبب لك المتاعب، ولكنك كنت أشجع مني، فصرت أنت بمجرد ترديدك للرقم 101 تثبت لهذا الأستاذ كل صباح فشله هو ومنظومته التعليمية، وأن هناك تلميذ مختلف يرفض أن يكون ببغاءً يردد فقط ما يريد هو سماعه من التلاميذ، لذلك حاول إيقافك عن ذكر هذا الرقم بكل الوسائل، فاستخدم التهديد والضرب والتجاهل والتفاوض والابتزاز وأخيرًا

السخرية، ولكنك وحتى الآن لم ترضخ له، وكنت أقوى منه ومن جبروته، وهذه الحرب الظالمة لست أنت من بدأها، ولكن طالما أن الحرب قد فرضت عليك، فلا ترضى أن تخرج منها إلا منتصرًا!

وبعد هذه النصيحة التي وجهتها خديجة إلى ابن أخيها، أمسكت بيده بقوة أشعرته بالطمأنينة، ثم أكملت الطريق معه بصمت إلى المنزل، فيما ظل نضال يفكر طيلة ذلك اليوم بما قالته له عمته، ليقرر ما سيقوم به في صباح اليوم التالي!

***

101

أصبح التلميذ 101 هو اللقب الذي يعرف به نضال بدوي بين كل تلاميذ مدرسة الأمل الابتدائية وذلك بعد أن انتشرت حكايته بينهم، فقد تناقل التلاميذ حكاية ذلك التلميذ الصغير الذي استطاع لوحده تغيير أساليب التدريس القديمة التي كانت المدرسة تتبعها لعشرات السنوات في تدريس مادة الرياضيات.

فبعد أن اعتقد أستاذ الرياضيات الظالم أن نضال في طريقه إلى الرضوخ والاستسلام، تفاجأ هذا الأستاذ أن نضال صار يردد كل صباح الرقم 101 بصوت أعلى من ذي قبل، وأنه صار لا يأبه بمناداة التلاميذ له باسم «مائة وواحد»، بل على العكس صار يبدي سعادة وفخرًا بذلك، حتى أنه طلب من عمته أن ترسم الرقم 101 بلون ذهبي على ظهر قميصه الرياضي الذي كان يلبسه أثناء لعب كرة القدم، وبدلًا من أن يتحول هذا الرقم إلى عار يطارد نضال، أصبح الرقم 101 رمزًا يمثل كثيرًا من المعاني الإنسانية التي كان كثير من تلاميذ المدرسة يفتقدونها، وبالرغم من خوف كثير من هؤلاء التلاميذ من إظهار تعاطفهم وتأييدهم لما يقوم به نضال، فإن الأستاذ المستبد كان يدرك أن نضال بات يمثل تهديدًا خطيرًا لأسلوبه القديم

في التدريس، وأن صاحب الرقم 101 صار مصدر إلهام لكثير من التلاميذ الذين بدأوا بطرح أسئلة لم يعتد سماعها منهم في السابق، لذلك قرر الأستاذ التخلص من نضال عن طريق وضع خطة تؤدي إلى فصله من المدرسة، أو على الأقل نقله إلى مدرسة أخرى، فقد عرض الأستاذ على أحد التلاميذ أن يمنحه العلامة الكاملة في مادة الرياضيات مقابل أن يقدم ذلك التلميذ على تمزيق جميع كتب الرياضيات الخاصة بالتلاميذ باستثناء الكتاب الخاص بنضال، وذلك عند خلو حجرة الفصل من التلاميذ أثناء الاستراحة المدرسية، وطلب الأستاذ منه أن يشيع بعد ذلك بين التلاميذ أن نضال بدوي هو من قام بهذه الفعلة انتقامًا من زملائه لسخريتهم منه في مادة الرياضيات بالتحديد ومناداته بلقب 101، وفعلًا تم تنفيذ هذه الخطة ليتبعها مباشرة اتهام نضال بتمزيق كتب زملائه، إلا أن مدير المدرسة سرعان ما اكتشف تفاصيل هذه المؤامرة، وذلك بعد قيام أولياء أمور بعض التلاميذ بإخبار المدير أن الأستاذ عرض على أبنائهم القيام بهذه الخطة من قبل، ولكن عندما رفض هؤلاء التلاميذ القيام بذلك هددهم الأستاذ بعقاب شديد إذا ما أبلغوا أحدًا بهذا الأمر، وبعد تحقيق لم يدم طويلًا مع نضال وزملائه، اعترف التلميذ الذي مزق الكتب بفعلته، وقام بإخبار المدير بأن الأستاذ هو من

طلب منه القيام بذلك، وعرف المدير بحكاية نضال والأستاذ والرقم 101، فبعث بمذكرة إلى وزارة التربية والتعليم بنتائج التحقيق، فصدر قرار من الوزارة بفصل ذلك الأستاذ المستبد نهائيًّا عن التدريس وإحالته إلى التحقيق، ثم صدر قرار آخر يعمم فيه على جميع المدارس الابتدائية في البلاد إلغاء نظام تحديد الأرقام التي يسمح للتلاميذ بمعرفتها في كل مرحلة من مراحل الدراسة الابتدائية، وبعثت الوزارة بجائزة تقديرية وشهادة شكر إلى التلميذ نضال بدوي موقعة من وزير التربية والتعليم بشكل شخصي، ليكون نضال أصغر تلميذ في تاريخ البلاد يحصل على مثل ذلك التكريم من الوزارة.

وعلى الرغم من عدم تمكنه من المشاركة في فريق المدرسة لمسابقات المعرفة المدرسية بسبب عدم اختياره من قبل أستاذه الظالم، أصبح نضال ابتداءً من الصف الثاني الابتدائي قائد فريق المدرسة في تلك المسابقات، وكانت عمته خديجة تعمل كل سنة على إعداده لتلك المسابقات، فكانت تحضر له كثيرًا من الكتب والمجلات التي تحتوي على معلومات عامة متنوعة من كافة التخصصات العلمية والمعرفية، ولإدراكها بما كان يعانيه نضال من اضطراب نقص الانتباه الذي كان يفقده التركيز ويصعب عليه عملية الحفظ، قررت العمة خديجة أن

تتبع أسلوبًا تعليميًّا مبتكرًا يتم من خلاله إيصال المعلومة في جو من المتعة، وكانت خديجة تهدف من خلال استخدام هذا الأسلوب تثبيت المعلومات برأس نضال دون أن تشعره بالملل أو الجهد، فقامت بتحويل تلك المعلومات إلى ألغاز متنوعة يحتوي كل لغز فيها على رموز خفية ينبغي على نضال معرفتها ليتمكن من التوصل إلى المعلومة النهائية في نهاية الأمر، ولإضفاء جو من الإثارة إلى هذه الألغاز قامت خديجة برسم هذه الرموز على أوراق تشبه الخرائط التي تدل على الحل في نهاية الأمر، ولفهم كل رمز من تلك الرموز كان على نضال أولًا قراءة الكثير من المعلومات التي تحتوي على حل تلك الرموز، وكان كل رمز يدله على شيء أخفته عمته في مكان محدد في المنزل، وبعد الوصول إلى ذلك الشيء يكتشف نضال معلومات جديدة تساعده على الوصول إلى الخيط التالي من اللغز، وهكذا دواليك من خيط إلى خيط حتى يتمكن في نهاية الأمر من حل ذلك اللغز، وخلال خطوات حل اللغز كانت كل معلومة يقرأها نضال ترتبط بذاكرته برموز وصور وأشكال مختلفة تعمل على تثبيت تلك المعلومات في رأسه، وكانت هذه التنشئة العلمية المبنية المبكرة سببًا مباشرًا في اكتساب نضال لحصيلة معرفية هائلة ومقدرة عقلية فائقة في حل الألغاز المعقدة.

* * *

بشكطاش

كان نضال وصديقه عبد العزيز يتبادلان أطراف الحديث وهما يسيران في شارع خير الدين بربروسا، الواقع في منطقة بشكطاش في مدينة إسطنبول التركية.

-هل تعلم يا نضال أنني اكتشفت وأنا راكب بجانبك في الطائرة بأنني مجنون؟ فكيف وافقتك على ترك لندن بعد يوم واحد فقط من وصولي إليها؟!

ابتسم نضال ثم قال:

-صديقي العزيز عبد العزيز، اكتشافك هذا قديم بالنسبة لي، فلقد اكتشفت هذه الحقيقة منذ أول يوم قابلتك فيه بجامعة أكسفورد، هل تتذكر ذلك اليوم؟

-أتقصد عندما اصطدمت بي في حديقة الجامعة وأوقعت روايتي المفضلة على الوحل؟ رد عبد العزيز وهو يكتم ضحكته.

-أولًا أنت الذي اصطدم بي بينما كنت أمشي منشغلًا بمكالمة هاتفية، وثانيًا قمت رغم ذلك بالاعتذار ورفع الرواية من على الأرض، وثالثًا عرضت عليك أن أدفع لك ثمنها مباشرة، إلا أنك

بدأت تصرخ وتسب مدعيًا قيامي بذلك متعمدًا لأنني عنصري، فأدركت لحظتها أنني أمام أحد المجانين، فلوني ولونك لا يختلفان كثيرًا، المشكلة أنك كنت في ذلك الوقت تلف شعرك الطويل على الطريقة الجامايكية، فاعتقدت أنك من إحدى دول الكاريبي، لذلك لم أتكلم معك بالعربية، حتى قمت أنت بسبي بكلمة مغربية أدركت عند سماعها أنك من إحدى دول شمال أفريقيا، على الرغم من أنني ما زلت لا أعرف معنى تلك الكلمة حتى الآن!

-لا داعي لكي تعرف معنى تلك الكلمة يا نضال، المهم أنني سامحتك وأصبحنا من يومها أصدقاء. قال عبد العزيز وهو يضحك.

وبعد ما يقرب من نصف ساعة من المشي المتواصل، توقف نضال عن المشي ونظر إلى صديقه قائلاً:



-عبد العزيز، لقد اقتربنا من الوصول إلى المتحف، هل فهمت الخطة التي اتفقنا عليها البارحة.

-لا تقلق يا نضال، فهمت تمامًا ما أخبرتني به، سندخل أنا وأنت إلى المتحف في وقتين مختلفين لكي لا يدل أحدنا على الآخر في حال انكشاف أمره، ستدخل أنت، وبعدها بربع ساعة سأدخل أنا، المتحف لا يسمح بدخول الكاميرات والهواتف المحمولة، لذلك سنتركها في صناديق الأمانات عند المدخل، بعد ذلك سنذهب إلى المبنى الثاني في المتحف المخصص للتاريخ البحري للخلافة العثمانية، وهناك سأذهب إلى دورة المياه، وهناك سأجد معلقًا على الباب من الداخل بعض القمصان البيضاء التي يستخدمها عمال النظافة أثناء قيامهم بعملهم، سأرتدي أحد تلك القمصان وأتوجه نحو قاعة بربروسا.

-ستجدني بعد خروجك من دورة المياه في القاعة الرئيسية أتحدث مع الحارس لكي أشغله عن الانتباه إلى تفاصيل وجهك أثناء دخولك إلى القاعة المخصصة لمقتنيات بربروسا.

-ولكن هل أنت متأكد يا نضال أن باب القاعة مفتوح؟

-القاعة ليس لها باب من الأساس، وإنما تحتوي على مدخل صغير يربطها ببهو المبنى الثاني، وفي الظروف العادية يكون هذا

المدخل مفتوحًا دائمًا، ولكن للأسف فإنهم يقومون في هذه الأيام بأعمال ترميم في هذه القاعة بالتحديد، لذلك أقفلوا هذا المدخل بساتر من القماش، وهذا الساتر يمكن الدخول من جانبه بسهولة، وكما أخبرتك فإنني عندما أتيت البارحة للبحث في قاعة بربروسا عن خيوط لغزنا، صدمت بأن القاعة مغلقة للترميمات، وعندما سألت عن موعد افتتاحها للجمهور أخبروني بأن الأمر سيستغرق عدة أشهر، ونحن يا صديقي لا نستطيع الانتظار كل هذا الوقت لحل لغز بربروسا، لذلك بقيت طيلة نهار الأمس في المتحف لكي أضع هذه الخطة التي تمكننا من معرفة ما تحتويه هذه الغرفة.

-ولكن هل أنت متأكد من أن القاعة لن يوجد بها أحد أثناء دخولي إليها؟

-عندما أعربت البارحة لموظفة الاستعلامات عن دهشتي عن الوقت الطويل الذي ستستغرقه أعمال الترميم، أخبرتني بأن السبب في ذلك يرجع بأن أغلب الموظفين الآن يقضون إجازتهم الصيفية، لذلك فإن أعمال الترميم متوقفة حتى نهاية الصيف.

-وماذا عن كاميرات المراقبة في القاعة؟

-الكاميرات لن ترصد أي شيء غير طبيعي، فأنت ستكون مثل أي عامل نظافة يدخل إلى القاعة، خاصة وأنك لن تلمس أي شيء

ولن تقوم بأي عمل يثير الريبة، ولقد لاحظت البارحة دخول أحد عمال النظافة إلى القاعة وخروجه منها بعد ربع ساعة، لذلك احرص على عدم مكوثك في القاعة لأكثر من ربع ساعة، تحت أي ظرف من الظروف، حتى ولو لم تجد أي خيط من خيوط اللغز هناك، فسلامتك تأتي قبل كل شيء، هل هذا واضح يا عبد العزيز؟

-واضح يا نضال، بمجرد دخولي إلى القاعة سأنتبه إلى ساعتي.

-وفي القاعة حاول أن تجد أي شيء له علاقة بالخيط الثاني لحل لغزنا، وهو الرقم 102، وفي الغالب سيكون هذا الرقم خاصًّا بإحدى مقتنيات بربروسا أو إحدى لوحاته، أرجو أن تحفظ كل تفاصيل ما ترى، حتى لو كانت هذه التفاصيل غير مهمة بالنسبة لك.



-لا تقلق يا صديقي، يمكنك الاعتماد علي، فلدي ذاكرة تصويرية حديدية.

-اعذرني يا عبد العزيز، كنت أنوي القيام بهذه المهمة لوحدي، ولكن أنت تعلم بأن ذاكرتي لا يمكن الاعتماد عليها، ولولا خوفي من أن تلاحظني كاميرات المراقبة إذا قمت باستخدام الورقة والقلم لتدوين الملاحظات في القاعة، لقمت أنا بمهمة عامل النظافة.

-لا عليك يا نضال، قم أنت فقط بإشغال الحارس الموجود في القاعة الرئيسية، وسآخذ أنا إحدى الماسح الموجودة في دورة المياه لأتجه بها إلى قاعة بربروسا، القاعة كما أخبرتني سأعرفها من خلال وجود راية بربروسا فوق مدخلها، ولكن أخبرني يا نضال، ماذا يمكن أن يحدث لو كشف أمرنا؟

-عبد العزيز، لا تنسَ أننا لا نقوم بأي عمل غير قانوني، نحن لن نسرق شيئًا، ولن نقوم بتصوير أي شيء، ولن ندون أي شيء على ورقة، وحتى لو تم اكتشاف أمرنا، فمن الناحية القانونية نحن لم نرتكب أي جريمة، وعلى العموم فإن موظفي المتاحف معتادون على بعض الزوار من المهووسين بالتاريخ، هؤلاء عادة ما يقومون بمخالفة القواعد أثناء زيارتهم للمتاحف أو الأماكن الأثرية، ويرغبون بمشاهدة كل شيء ممنوع فيها، وإذا تم سؤالك عن سبب

تخفيك بزي عامل نظافة، فأخبرهم بكل بساطة أنك قمت بذلك لكي تتمكن من الدخول إلى هذه القاعة لمشاهدة محتوياتها، لا سيما وأنك سافرت خصيصًا لإسطنبول من أجل ذلك كما هو واضح في جوازك، وفي أسوء الظروف سيتم طردك من المتحف بعد تفتيشك والتحقق من أمرك.

وبعد هذا النقاش بين نضال وعبد العزيز، وصل الصديقان إلى ساحة بربروسا الكبيرة، فقاما أولًا بزيارة قبر قائد البحرية الإسلامية خير الدين بربروسا، الذي كان يطل على البحر، ولاحظ عبد العزيز سماع أصوات لطلقات مدفعية بين الحين والآخر من السفن التي كانت تجري في البحر.

-ما هذا يا نضال؟ ما سبب هذا الصوت بين الحين والآخر؟!

-إنه صوت طلقات تحية عسكرية تطلقها مدافع السفن الحربية التركية، فهناك تقليد متبع منذ زمن العثمانيين بأن تقوم كل سفينة حربية عثمانية أثناء خروجها في مهمة حرب أو تدريب أو سفر بإطلاق قذيفة مدفعية في عرض البحر عند مرورها أمام قبر القائد خير الدين بربروسا، ومازالت السفن الحربية التركية تتبع نفس هذا التقليد إلى يوم الناس هذا.

-ألهذا الحد ما زال الأتراك يحترمون تاريخ بربروسا؟ تساءل عبد العزيز بذهول.

-وأكثر يا عبد العزيز، فلقد كان هذا القائد البحري قائدًا أسطوريًّا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لدرجة أن أعظم سلاطين آل عثمان الخليفة سليمان القانوني كان يحرص على استقباله بنفسه في إسطنبول عند رجوع سفنه من مهماته القتالية على طول البحر المتوسط، ويكفيك فقط أن تعلم أن النشيد الرسمي الذي تستخدمه البحرية التركية حاليًا اسمه «نشيد بربروسا».

وبعد زيارة قبر القائد بربروسا والدعاء له بالرحمة والمغفرة، توجه نضال إلى المتحف البحري بالقرب من مكان القبر، وبعد ذلك بربع ساعة تبعه عبد العزيز، متوجهًا إلى دورة المياه الموجودة في المبنى الثاني للمتحف، بينما كان نضال يحاول إشغال الحارس الموجود في بهو القاعة، ولكن دون جدوى، فقد كان الحارس يرد بكلمات مختصرة للغاية عند محاولة نضال سؤاله باللغة الإنجليزية عن الأشياء الموجودة في المتحف، فباءت كل المحاولات لفتح نقاش مع الحارس بالفشل، لدرجة فكر معها نضال بجدية بإلغاء العملية من بدايتها، ولكنه قرر أن يجرب محاولة أخيرة مع الحارس، وأن يفتح معه نقاشًا

جديدًا، هذه المرة لن يسأله عن المتحف، بل عن أمر يعشقه الأتراك إلى درجة الجنون، عن كرة القدم.

-هل أنت من مشجعي فريق بشكطاش أو فريق فناربخشه؟

وما أن سأل نضال هذا السؤال، حتى انطلق لسان الحارس بالكلام:

-بالتأكيد بشكطاش، فناربخشة فريق ضعيف، بشكطاش أفضل منه بألف مرة.

-ولكن فناربخشة فاز عليكم الأسبوع الماضي بهدفين نظيفين.

وما أن قال نضال جملته الأخيرة، حتى بدأ الحارس بالحديث منفعلًا عن ما يراه ظلمًا تحكيميًّا شهدته تلك المباراة، وصار يقص لنضال تحليلاته التي يرى من خلالها أن فريقه تعرض لظلم مقصود من الحَكَم، وبعد ذلك بدأ يروي لنضال عن تاريخ بشكطاش الكروي مع فناربخشة، بينما كان نضال يستمع إليه بإنصات، وهو يشاهد صديقه عبد العزيز يمشي أمامه عبر القاعة الرئيسية لابسًا رداءه الأبيض وحاملًا معه ممسحة كبيرة، قبل أن يعبر من خلال مدخل قاعة بربروسا بكل هدوء، فوجه نضال ناظره إلى الساعة الكبيرة المعلقة على جدار القاعة، وبدأ بحساب العد التنازلي للعشر

دقائق المحددة لإنهاء العملية، بينما كان يظهر إنصاته الشديد لما يرويه الحارس عن فريقه، وبعد ما يقرب من 14 دقيقة من دخول عبدالعزيز إلى القاعة، توقف الحارس فجأة عن الكلام، وأخذ يبتعد عن نضال متوجهًا نحو مدخل قاعة بربروسا، عند تلك اللحظة أحس نضال بتسارع كبير في نبضات قلبه، وبخوف شديد يسري في جسده، فخلال أقل من دقيقة سوف يخرج عبد العزيز من قاعة بربروسا، وسيلاحظه الحارس بالتأكيد، وسينكشف كل شيء، وبالرغم من أن تشتت الأفكار الذي كان يعاني منه نضال يزداد وطأة تحت الضغط النفسي، فإنه تمالك نفسه وقال للحارس الذي كان يمشي مبتعدًا عنه:

-على فكرة أنا من مشجعي فريق غلطة سراي التركي!

وما أن قال نضال ذلك، حتى استدار الحارس باتجاهه، وتقدم نحوه بغضب، وبدأ يقص له كيف أن بشكطاش كان يتفوق على غلطة سراي عبر التاريخ، وأن غلطة سراي مثل فناربخشة يعتبران الفريقين المفضلين للطبقة الغنية المترفة في إسطنبول، بينما فريق بشكطاش هو فريق غالبية سكان إسطنبول من العمال والفقراء، وبعدها تطرق الحارس إلى تاريخ اللقاءات التي جمعت بين بشكطاش

وغلطة سراي، بينما كان عبد العزيز يتنفس الصعداء وهو يشاهد صديقه عبد العزيز يخرج من قاعة بربروسا متوجهًا بهدوء نحو دورات المياه، وفجأة توقف الحارس عن الكلام بعد أن جاءه اتصال مفاجئ من أحد زملائه من خلال جهاز اللاسلكي الذي يحمله، فأخذ الحارس يستمع بإنصات للمكالمة، في حين استغل نضال انشغاله ليتركه متوجهًا إلى خارج المتحف ليلاقي صديقه في المكان الذي اتفقا عليه مسبقًا.

-أنت هناك... توقف مكانك! قال الحارس موجهًا كلامه إلى نضال.

فالتفت نضال نحو الحارس وقد أدرك أن أمرهم قد كشف، وتجمدت قدماه في مكانهما بينما كان الحارس يتجه إليه بخطوات بطيئة، قبل أن يضع الحارس يده على كتف نضال، ليفتح أزرار ردائه، فظهر من تحتها قميص رياضي مكون من اللونين الأبيض والأسود، كان هذا القميص هو الزي الرسمي لفريق بشكطاش التركي لكرة القدم.

-اسمع أيها الشاب، عندنا هنا في بشكطاش عبارة نرددها دائمًا: «الرجل الحقيقي لا يشجع فريقًا ملونًا!».



ابتسم نضال وهو يستمع إلى كلام الحارس، فقد فهم ما كان يشير إليه من سخرية على القمصان الملونة لفريقي غلطة سراي وفناربخشة، فقال للحارس مبتسمًا:

-كن على ثقة يا صديقي أنني بعد هذا اللقاء المثير معك، لن أشجع في تركيا سوى فريق بشكطاش!

ثم تصافح نضال والحارس مودعين بعضهما البعض، قبل أن ينطلق نضال بسرعة لمقابلة عبد العزيز، ليعرف منه تفاصيل ما رآه في قاعة بربروسا.

***

كان نضال يجلس بجانب عبد العزيز في قطار الأنفاق المتجه إلى منطقة الفاتح حيث يوجد الفندق الذي يقيمان به، وكانت الخطة التي اتفق عليها الصديقان تقضي بأن لا يتحدثا أبدًا مع بعضهما البعض حتى يصلا إلى الفندق، إلا أن نضال لم يستطع الصبر حتى وصولهما إلى الفندق.

-القطار شبه فارغ يا عبد العزيز، بإمكاننا التحدث دون قلق، أخبرني الآن ماذا رأيت في تلك القاعة؟

-رأيت الشيء الكثير يا نضال، لم أكن أعلم أن زيارة المتاحف بهذه الروعة، لماذا لم تكن تأخذني معك في زياراتك المتكررة لمتاحف لندن؟ قال عبد العزيز مداعبًا.

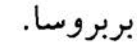
-عبد العزيز، أرجوك يا صديقي، لست الآن في حالة تسمح لي بتبادل المزاح، لقد كاد قلبي أن يتوقف أثناء وجودك داخل القاعة، الآن أخبرني ماذا رأيت هناك؟

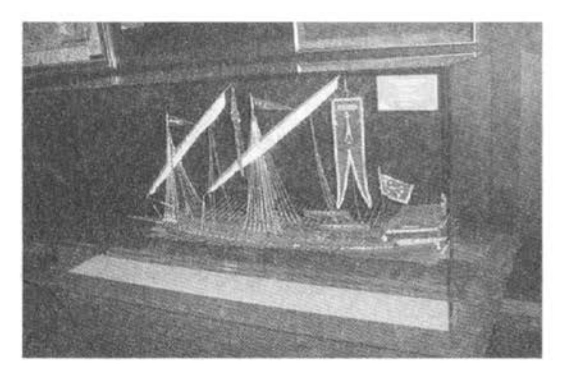
-القاعة كانت كبيرة للغاية يا نضال، وقد امتلأت بشكل خاص بمقتنيات القائد خير الدين بربروسا، وكانت هناك مجسمات كثيرة

لسفنه ومدافعه، بينما كانت اللوحات الجدارية معلقة على كل جانب من جوانب القاعة، ووضع أمام كل شيء موجود بالقاعة بطاقة مرقمة تحتوي على معلومات مكتوبة بالتركية، بحثت عن البطاقة 102، فوجدت أنها تقع أمام مجسم لسفينة حربية وخلفها لوحة فنية معلقة على الحائط، لم أفهم شيئًا من الكتابة التركية على تلك البطاقة سوى كلمة واحدة، وهي كلمة «Fransa»، وأعتقد أنها تشير لكلمة فرنسا بالتركية.

-كيف كان شكل السفينة بالتحديد يا عبد العزيز؟

-السفينة كانت تحتوي على مجاديف كثيرة على الجانبين، وتوجد على مؤخرتها راية بربروسا كتلك المعلقة أعلى مدخل القاعة، ولكن ما لفت نظري أنها كانت تحتوي على رايات أخرى برز فيها بشكل واضح الهلال التركي الشهير والسيف ذو الحدين الموجود في لغز بربروسا.



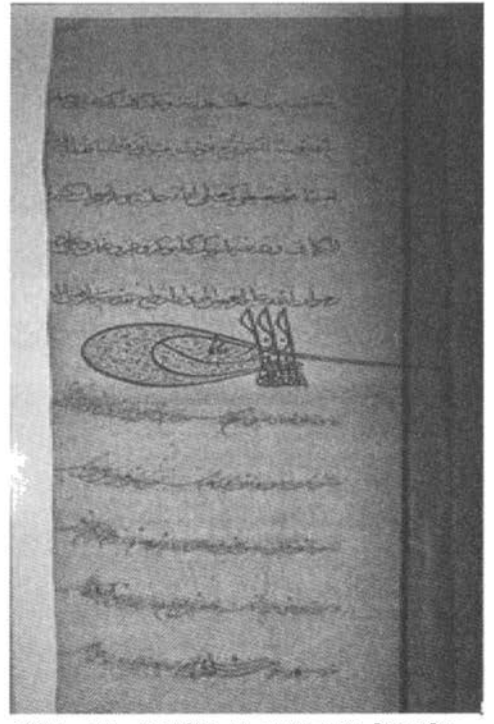


-هذا منطقي جدًّا يا عبد العزيز، يبدو أن رموز راية بربروسا يشير كل منها إلى مكان معين، فعبارة «وبشر المؤمنين يا محمد» الموجودة في أعلى راية بربروسا تشير إلى مدينة إسطنبول، حيث يكثر نقش هذه العبارة على جدران مساجدها وآثارها العثمانية، والسيف ذو الحدين يرمز إلى السفينة الحربية الرئيسية التي أبحر بها القائد خير الدين بربروسا أثناء قيادته لأسطول البحرية الإسلامية العثمانية الذي أبحر في مهمة إنقاذ لفرنسا قبل أن تسقط بأيدي الغزاة.

-ماذا؟! الأسطول الإسلامي أنقذ فرنسا! قال عبد العزيز بذهول.

-نعم يا عبد العزيز، ففي عام 1525م بعد «معركة بافيا» «Battle of Pavia» التي هُزمت فيها فرنسا من «شارلكان» ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية، تم أسر ملك فرنسا «فرانسوا الأول»، فبعثت أمه «لويز دي سافوا» التي تسلمت وصاية عرش فرنسا برسالة استغاثة إلى خليفة المسلمين السلطان العثماني «سليمان القانوني» الذي كان يعرف في الغرب باسم «سليمان الرائع» «Suleiman the Magnificent» ترجوه فيها أن يحرر ابنها، ولكن الرسالة لم تصل للخليفة المسلم لضياعها في البوسنة في الطريق

إلى إسطنبول، في تلك الأثناء تم فك أسر ملك فرنسا بعد إجباره على توقيع «اتفاقية مدريد» المذلة التي قدم فيها الكثير من التنازلات، وبعد عودته إلى فرنسا أرسل فرنسوا الأول في ديسمبر من عام 1525م برسالة إلى سليمان القانوني يحملها له سفيره «لويس فرنجباني»، وعرض الملك الفرنسي في الرسالة ما جرى له من قبل عدوهم المشترك شارلكان، فرد عليه السلطان العثماني برسالة كان مما جاء فيها:



رسالة الخليفة سليمان القانوني إلى الملك الفرنسي فرانسوا الأول

«أنا سلطان السلاطين، وبرهان الملوك، ومتوج العروش ظل الله في الأرضين، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والبحر الأحمر والأناضول والروملي وقرمان الروم وولاية ذي القدرية وديار بكر وكردستان وأذربيجان ودمشق وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن، وإن هذه الأراضي الشاسعة قد فتحها آبائي الكرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة رحمهم الله، وكم من البلاد افتتحتها بسيفي الظافر المنصور، من السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان، إلى فرانسيس ملك مقاطعة فرنسا، وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه مع تابعكم «فرانجباني» النشيط، مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بها شفاهيًا، وأعلمنا أن عدوكم استولى على بلادكم وأنكم الآن محبوسون وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم، وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سرير سدتنا الملوكانية، وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل، فصار بتمامه معلومًا، فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم، فكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر، فإن آبائي الكرام وأجدادي العظام نوَّر الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ورد العدو، ونحن أيضًا سالكون على طريقتهم، وفي كل وقت

تفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة، وخيولنا ليلًا ونهارًا مسروجة وسيوفنا مسلولة، فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته، وأما باقي الأحوال والأخبار تفهمونها من تابعكم المذكور، فليكن معلومكم هذا. تحريرًا في أوائل شهر آخر الربيعين سنة 932هـ/ 1525م، بمقام دار السلطنة العلية القسطنطينية المحروسة المحمية».

-وهل أمكن بالفعل عقد تحالف بين المسلمين العثمانيين والكاثوليك الفرنسيين؟

-هذا ما تم بالفعل، على الرغم من اعتراض بابا الفاتيكان شخصيًّا، ووصف ملوك أوروبا الكاثوليك هذا التحالف بـ«التحالف الأثيم»، إلا أن ملك فرنسا كان ذا رؤية سياسية واسعة، وكان يعلم أنه بتحالفه مع دولة الخلافة الإسلامية العثمانية التي كانت في زمن القانوني أقوى دولة في العالم سيحمي فرنسا من أطماع الإسبان والمجريين الذين تمكنوا من احتلال أغلب أراضي أوروبا تحت مسمى الإمبراطورية المقدسة، وقد استمر هذا التحالف بين العثمانيين والفرنسيين لما يقرب من 3 قرون.

-ولكن ما دور بربروسا في هذا التحالف يا نضال؟

-في صيف عام 1543م أمر الخليفة سليمان القانوني قائد الأسطول العثماني خير الدين بربروسا بالإبحار إلى فرنسا لمساعدة

الفرنسيين في تحرير مدينة «نيس» الفرنسية، فأبحر بربروسا بأسطول عثماني ضخم مكون من أكثر من 100 سفينة حربية تقل 30 ألف مقاتل عثماني، وعند وصول الأسطول الإسلامي إلى ميناء «مرسيليا» الفرنسي انضم إليهم أسطول فرنسي مكون من 50 سفينة فرنسية، فاستطاع هذا الأسطول العثماني الفرنسي بقيادة بربروسا الانتصار على أسطول مشترك مكون من أساطيل «دوقية سافوي» التي كانت تحتل المدينة، إضافة إلى أساطيل «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» و«جمهورية جنوة الإيطالية»، ليتمكن القائد المسلم بربروسا من تحرير مدينة نيس الفرنسية.

-وماذا حدث بعد ذلك؟ سأل عبد العزيز.

-حين شاهد ملك فرنسا ما يمكن للأسطورة بربروسا القيام به، عرض فرانسوا الأول عليه أن يبني العثمانيون قاعدة عسكرية لهم في ميناء «طولون»، وأن يتحول هذا الميناء الفرنسي إلى قاعدة بحرية لانطلاق الأساطيل العثمانية لصد بحرية الإسبان والإيطاليين، وذلك لكي تضمن فرنسا عدم اعتداء أساطيل الإمبراطورية الرومانية المقدسة عليها في ظل وجود قاعدة عسكرية عثمانية على أرضهم، ولإقناع العثمانيين بقبول هذا العرض الفرنسي، وعد فرانسوا الأول بربروسا أن تقوم فرنسا بمساعدته في تحرير تونس من الغزاة الإسبان إذا قَبِلَ أن

يعسكر بالأسطول العثماني الإسلامي طيلة فترة الشتاء في مدينة طولون، وبعد أخذ الموافقة من الخليفة القانوني، وافق بربروسا على العرض الفرنسي، فعسكر بجنوده في مدينة طولون الفرنسية التي تحولت بالفعل إلى قاعدة بحرية عثمانية لحماية فرنسا، وقام ملك فرنسا بدوره بتحويل كاتدرائية طولون مؤقتًا إلى مسجد لكي يصلي فيه جنود الحامية العثمانية المسلمة التي كانت تقدر بـ 30 ألفًا من الجنود، وعلى مدار 6 أشهر من نهاية 1543م إلى بداية 1544م تحولت هذه المدينة الفرنسية إلى قاعدة حربية لانطلاق الحملات العسكرية العثمانية، وقامت فرنسا بتزويد الحامية العثمانية خلال تلك الفترة بنحو 10 ملايين كيلوغرام من الخبز، وصارت العملة المتداولة في مدينة طولون أثناء تلك الفترة هي العملة العثمانية، المفارقة أن هذه المدينة التي عسكر فيها العثمانيون المسلمون لحماية فرنسا من الغزو هي نفسها المدينة التي أبحر منها «نابليون بونابرت» عام 1798م للبدء بأول هجوم فرنسي على أراضي الخلافة العثمانية في مصر.

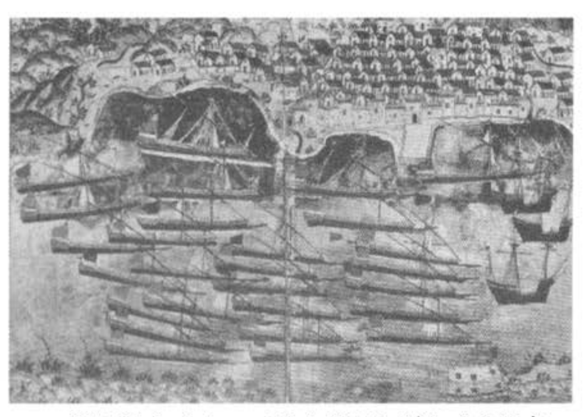
-مفارقة غريبة بالفعل! ولكن هل هذا يعني أن اللوحة التي شاهدتها في المتحف كانت لأسطول بربروسا العثماني وهو يبحر إلى فرنسا للدفاع عنها؟

-بالضبط يا عبد العزيز، وهذا هو سر وجود اسم فرنسا في

البطاقة رقم 102، ولكن هناك عدة لوحات شهيرة أرَّخت لتلك المرحلة، ولكي نحدد أي من تلك اللوحات هي التي شاهدتها أنت، عليك أولًا أن تخبرني عن تفاصيل تلك اللوحة.

بدأ عبد العزيز يسرد لنضال تفاصيل اللوحة التي رآها بدقة متناهية، فقد كان عبد العزيز معروفًا بين أصدقائه بامتلاكه لذاكرة قوية للغاية، وكان ذلك من أهم الأسباب التي حرص من أجلها نضال بأن يختاره ليكون رفيقه في هذه الرحلة، وأثناء سرد عبد العزيز لتفاصيل اللوحة التي رآها قاطعه نضال فجأة:

-لا بد أنها لوحة دخول بربروسا والأسطول العثماني إلى ميناء «طولون» التي رسمها «نصوح السلاحي»!



الأسطول الإسلامي العثماني بقيادة القائد خير الدين بربروسا يدخل ميناء طولون الفرنسي.

رسم المؤرخ نصوح السلاحي.

-ومن هو نصوح السلاحي؟! سأل عبد العزيز.

-نصوح أفندي السلاحي، أحد أشهر مؤرخي الدولة العثمانية، كان عالمًا بوسنيًّا متعدد المواهب، فقد كان كاتبًا وشاعرًا ورياضيًّا ومهندسًا ورسامًا وجغرافيًّا ومؤرخًا، وكان هذا المؤرخ البوسني محظوظًا لأنه عاصر اثنين من أهم سلاطين بني عثمان على الإطلاق، سليم الأول وسليمان القانوني، فكان من أهم من أرخ لتلك الفترة التي شهدت فتوحات ومعارك وأحداث مهمة، فترك السلاحي مؤلفات حافلة بالنصوص والصور والخرائط التي حفظت تفاصيل أكثر عهود الدولة العثمانية توسعًا.

-ولكن كيف تمكن هذا المؤرخ البوسني من احتواء تفاصيل تلك الفترة المزدحمة بالأحداث؟

-أحيانًا يا عبد العزيز يسبب اقتراب العالم من الحاكم فتنة لكل منهما، ولكنِ في أحيان أخرى يكون قرب العالم من الحاكم نعمة تتيح له ما لا تتيح لغيره من الإمكانيات التي تساعده في نشر علمه، خاصة إذا كان ذلك الحاكم محبًّا للعلم والعلماء، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ الإسلامي، وقد مهدت مهارات السلاحي المتعددة في مختلف فنون الكتابة والحساب، إضافة لإجادته لخمس لغات، إلى أن يكون كاتبًا في الديوان السلطاني، فصحب الخليفة سليم الأول ومن

بعده ابنه الخليفة سليمان القانوني، ولقاء براعته في التأليف والرسم، كُلف بتسجيل وقائع الحملات العسكرية التي كان فيها شاهد عيان، ليحول تسجيلاته إلى مزيج من أدب الرحلات والإنشاء الحماسي والشعر، والتفصيلات الحسابية والهندسية، إضافة إلى إلحاقها برسوم ملونة للمدن والطرق والمنازل وأبرز الأماكن التي كان يمر بها الجيش العثماني أثناء حملاته، وهذه اللوحة التي رأيتها أنت من أبرز لوحاته، فهو يوثق من خلالها دخول الأسطول العثماني بقيادة بربروسا إلى مدينة طولون الفرنسية.

-هذا كله كلام جميل يا نضال، ولكن ما علاقته بلغز بربروسا؟ إلى أين يجب أن نتوجه الآن؟ أنا أعرف مدينة طولون جيدًا، أحد أبناء عمومتي يعيش هناك من سنوات طويلة، وقد زرته مرارًا في تلك المدينة، ويؤسفني أن أخبرك أن طولون مدينة كبيرة جدًّا، وستحتاج لوقت طويل لكي تبحث فيها عن الخيط التالي من خيوط اللغز!

-ومن قال لك أننا سنبحث في كل المدينة يا صديقي؟ رد نضال مبتسمًا.

-ماذا تقصد يا نضال؟

-انتظر لحظة من فضلك.

في تلك اللحظة قام نضال باستخدام هاتفه المحمول للبحث في

شبكة الإنترنت عن صورة للوحة دخول بربروسا لطولون التي رسمها المؤرخ السلاحي.

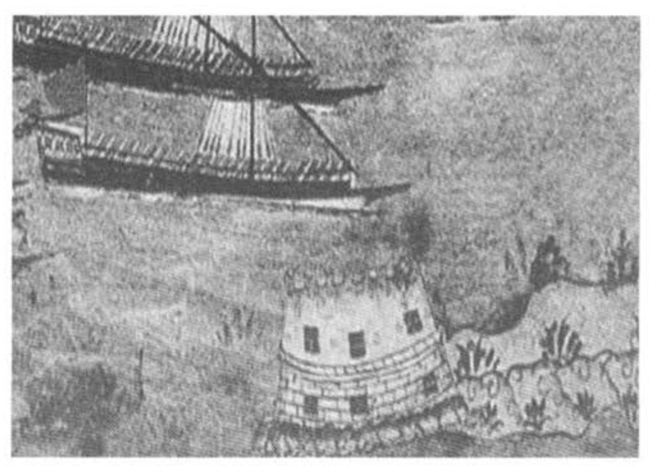
- أليست هذه هي اللوحة التي رأيتها قبل قليل في المتحف يا عبد العزيز؟ سأل نضال وهو يشير إلى شاشة هاتفه المحمول.

- نعم، هي نفس اللوحة التي رأيتها قبل قليل في المتحف.

وضع نضال أصبعه على موضع مبنى ظهر وحيدًا قرب الركن السفلي الأيمن للوحة، وقال لعبد العزيز:

-سنبحث فقط في هذا المبنى بالتحديد يا عبد العزيز.

-ولكن ماذا يكون هذا المبنى يا نضال؟



قلعة "تور رويال" "Tour Royale" عند مدخل ميناء طولون الفرنسي.

رسم المؤرخ نصوح السلاحي.



-إنها يا صديقي قلعة «تور رويال» «Tour Royale»، القلعة التي استخدمت كمخزن للسلاح أثناء وجود بربروسا في مدينة طولون الفرنسية.

-نضال، لدي سؤال خطر على بالي قبل قليل، يبدو أن من وضع لغز بربروسا يريد ربط الخطوة التالية من حل اللغز بالسلاح والحرب، فالرمز الأبرز في صورة راية بربروسا الذي يأتي مباشرة بعد عبارة «وبشر المؤمنين يا محمد» هو رمز السيف ذي الحدين المرسوم في قلب الراية، وسفينة بربروسا التي رأيتها أمام البطاقة 102 كانت سفينة حربية، والراية البارزة في تلك السفينة كانت راية السيف، وحتى شكل بعض الرايات كان يشبه السيف ذا الحدين، واللوحة المعلقة كانت تمثل تقدم سفن بربروسا الحربية إلى ميناء طولون، هذا الميناء بتحوله إلى قاعدة عسكرية يشير أيضًا إلى السلاح والحرب، بل وحتى اسم المؤرخ الذي رسم هذه اللوحة هو «السلاحي»!

السؤال هنا: هل من وضع هذا اللغز العجيب كان يقصد كل هذه الترابط بين هذه الرموز المتصلة مع بعضها البعض بهذا الشكل المحير، أم أن الأمر لا يعدو مجرد مصادفة لم يخطط لها؟!

ابتسم نضال وهو يستمع بانبهار إلى تحليل عبد العزيز، ولكنه لم

يجبه على سؤاله، ثم تناول هاتفه النقال مرة أخرى ليحجز من خلاله تذكرتي طائرة إلى مطار شارل ديغول الدولي، لكي يكمل الصديقان في فرنسا رحلة البحث عن الخيط التالي من لغز بربروسا.

* * *

تور رويال

كان نضال وعبد العزيز يسيران في مدينة طولون في طريقهما إلى قلعة تور رويال التي تحولت إلى واجهة سياحية كبيرة لهذه المدينة الفرنسية.

-لماذا لم تتعلم الطهو مثل ابن عمك يا عبد العزيز؟ الطاجين المغربي الذي استقبلنا به مساء الأمس كان في منتهى الروعة، لو أنك كنت بارعًا مثله في إعداد الطعام، لما احتجنا أنا وأنت للتسكع في شوارع لندن كالمتشردين بحثًا عن المطاعم التي لا تغلق أبوابها مبكرًا.

-السبب في ذلك يرجع إلى أمي، فلقد كانت أمي تعمل من داخل البيت في الخياطة كما تعلم، لذلك كان لديها الوقت الكافي للطهو أثناء خياطتها، فكنت أجد الطعام أمامي دائمًا عند عودتي من المدرسة، بينما كانت والدة ابن عمي تعمل كمعلمة في مدرسة بعيدة عن المدينة، فكان هو وأخوته يعدون الطعام بأنفسهم أحيانًا، فأصبح هو بذلك طاهيًا جيدًا، بينما بقيت أنا معتمدًا على ما تعده أمي لي.

-هذا هو نفس السبب الذي حال دون تعلمي للطهو أيضًا، فقد

كانت عمتي رحمها الله تعمل كمدرسة خاصة داخل البيت، وكان لديها الوقت لإعداد أشهى المأكولات. قال نضال وقد بدا عليه الحزن.

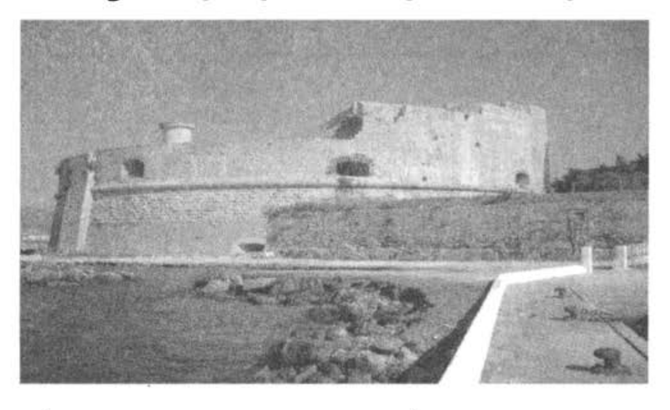
-بالمناسبة يا نضال، أعتذر منك لعدم تمكني من مرافقتك إلى غزة والوقوف معك في مثل ذلك الظرف الصعب، ولكن أنت تعلم أن حزني على عمتك لا يقل عن حزنك عليها رحمها الله، فعلى الرغم من عدم مقابلتي لها طيلة حياتي، فقد كنت أشعر بسعادة غامرة عندما كانت تتصل بي بين حين وآخر للاطمئنان عليك والسؤال عن أحوالك، لقد كانت تحبك حبًّا لا يوصف يا نضال، وكانت تحاول أن تعلم من خلالي كل تفاصيل حياتك، وكنت أنا أستغل تلك المكالمات معها للتزود بجرعات الأمل التي كانت تمنحها لي من خلال كلماتها ونصائحها، وعلى الرغم من أنها لم تكن تكبرنا كثيرًا في العمر، فقد كانت حكمتها في الحياة تفوق حكمة الشيوخ الكبار، وقد كنت مشتاقًا لمعرفتها حتى قبل أن أسمع صوتها، فما كنت ترويه أنت لي عن وقوفها معك بعد رحيل أبيك وأمك جعلني أُكِنُّ لهذه الإنسانة الرائعة مشاعر محبة كبيرة كما لو كانت أمًّا لي أنا، وما حصل لها كان شيئًا يدمي القلب، ولكنه قدر الله عز وجل، ولا اعتراض على حكمه يا صديقي.

-الحمد لله على كل شيء، أتعلم يا عبد العزيز، بعد أن اتصل زوجها بي ليخبرني بما أصابها، أصبت بحالة من الصدمة الشديدة التي أفقدتني القدرة على التفكير بأي شيء، وأحسست أن دماء جسمي كله انتقلت إلى رأسي، فشعرت بأنه على وشك الانفجار من شدة الضغط الذي أصابه، وفي لحظة من اللحظات فقدت الشعور بالعالم الخارجي تمامًا، الشيء الوحيد الذي كنت أسمعه بوضوح كان صوت دقات قلبي وهي تتباطأ بشكل مضطرد، فجثوت على ركبتي بعد أن فقدت السيطرة عليهما، وأحسست أن دقات قلبي في طريقها إلى التوقف بعد أن فقدت القدرة نهائيًّا على التنفس، في تلك اللحظة بالتحديد، تذكرت ابتسامة عمتي خديجة التي كانت تقابلني بها صغيرًا عندما كنت أشكو لها باكيًا المصاعب التي كانت تعترض طريقي في الحياة، كانت رحمها الله تضمني إلى صدرها وتمسح دموعي بكفها الحنون وتقول لي بكل طمأنينة:

-لا تحزن، فكل شيء سيصبح على ما يرام، وقدر الله كله خير، حتى ولو لم تكن أنت ترى هذا الخير في بداية الأمر، حتمًا ستراه في يوم من الأيام، واعلم أن أشد أوقات الظلام هو الوقت الذي يسبق ظهور الفجر، وأن الليالي مهما طالت لن تدوم، وتذكر قول الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وما أن تذكرت كلام عمتي هذا، حتى شعرت بطمأنينة عجيبة تسري في جسدي، أحسست معها بأن قلبي عاد ينبض من جديد، وأن الدماء عادت لتتدفق في شراييني، وصارت شفتاي ترددان طيلة الوقت هذه الكلمات: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

في تلك الأثناء وصل الصديقان إلى قلعة تور رويال، فصعدا إلى سقفها المستدير، وأخذا ينظران إلى البحر المتوسط من ذلك المكان.



-أتعرف يا عبد العزيز أن هذه القلعة ساهمت بحماية أرواح كثير من الناس في وقت من الأوقات؟

-كيف ذلك يا نضال؟

-في أواخر القرن السادس عشر الميلادي استخدمت تور رويال كملجأ احتمى داخله الفرنسيون البروتستانت في هذه المدينة، وذلك بعد سماعهم بأخبار مذبحة «سان بارتيليمي» المرعبة.

-وما قصة هذه المذبحة التي تتحدث عنها؟

-مذبحة «سان بارتيليمي» « St. Bartholomewes Day massacre» هي مذبحة وقعت في العاصمة الفرنسية باريس عام 1572م، وتم خلالها ذبح ما يزيد عن 30 ألف فرنسي من المسيحيين البروتستانت بأبشع وسائل القتل على أيدي مواطنيهم من الفرنسيين الكاثوليك، وذلك بمباركة مباشرة من سلطات الدولة والكنيسة الكاثوليكية، كان الهدف من هذه المذبحة هو القضاء على البروتستانت تمامًا بعد أن صدرت بذلك أوامر واضحة من الملك الفرنسي «شارل التاسع» ووالدته بهدف منع انتشار المذهب البروتستانتي في فرنسا، وللأسف فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية متواطئة بشكل مباشر في المذبحة البشعة، ففي يوم 24 أغسطس من ذلك العام استعد القساوسة الكاثوليك عند أجراس الكنائس لإعطاء إشارة البدء للجنود والمتطوعين من المتطرفين الكاثوليك الذين باتوا ليلتهم ينتظرون تلك ساعة الصفر لانطلاق عمليات الفتك بإخوتهم البروتستانت، وبعد أن دقت أجراس الكنائس بوقت أبكر من الوقت المعلوم للصلاة، شعر البروتستانت بالخطر، وهرب بعضهم خارج المدينة حاملين أطفالهم معهم، واحتمى بعضهم بأقاربهم من الكاثوليك، إلا أن عمليات القتل الأعمى شملت

هؤلاء جميعًا، ومن لم يستطع الهرب من البروتستانت تم اقتحام بيوتهم عليهم وقتلهم مع أطفالهم في عمليات تطهير بشعة يندى لها جبين التاريخ، وقد تفاوتت التقديرات حول عدد ضحايا تلك المجزرة، وقد قدر بعض المؤرخين عددهم بنحو 60 ألفًا.

-يا إلهي، لم أكن أعلم بأن فرنسا العلمانية لديها كل هذا التاريخ الدموي القائم على التعصب الديني!

-للأسف يا عبد العزيز، هذا هو السبب الذي دفع كثيرًا من الفرنسيين المعاصرين إلى محاربة كل شيء له علاقة بالأديان، ولقد كان من بين أهم شعارات الثورة الفرنسية الشعار الذي أطلقه «فولتير» الفيلسوف الفرنسي الشهير: «اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس»، والحقيقة أن غضب الفرنسيين من الدِّين يمكن أن يفهم على ضوء التاريخ الدموي للكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى، ولكن هذا لا يبرر أن يتحول الإنسان من تطرف ديني إلى تطرف علماني، فالتطرف بجميع أنواعه يفقد الإنسان القدرة على التعايش مع الآخرين، لذلك يختار المتطرفون دائمًا خيارًا من خيارين لا ثالث لهما، إما الانعزال التام عن المجتمع الذي يعيشون فيه، وإما محاولة التخلص من كل من يخالفهم في الرأي، أما العاقل فيعلم أن الله لم يخلق البشر نسخة واحدة، وأن تفكير البشر يختلف فيما بينهم،

بل إن تفكير الإنسان نفسه يختلف من وقت إلى وقت، وما يبدو صحيحًا له قد يبدو أمرًا خاطئًا لشخص آخر، وما يبدو خاطئًا له قد يبدو صحيحًا لشخص آخر، والإنسان كلما ارتفع بعلمه، صارت رؤيته للأمور أكثر اتساعًا، تمامًا مثل مجال رؤيتنا للأرض من نافذة الطائرة، فكلما ارتفعنا إلى أعلى زادت مساحة رؤيتنا للأرض بتفاصيلها المختلفة، لذلك فإن الحوار ومحاولة إثبات الحجة بالدليل والكلمة الطيبة هو السبيل الأمثل للتعامل بين البشر، وحتى لو لم تستطع إقناع شخص آخر بكلامك، فأنت بتوضيح وجهة نظرك قمت بما عليك القيام به، وفي نهاية الأمر الإنسان هو الذي يختار طريقه، وهو فقط من سيتحمل نتيجة اختياره.

-كلام جميل يا 101، ولكن أخبرني الآن، أين ينبغي علينا البحث عن الرقم 103؟

أخرج عبد العزيز هاتفه النقال من جيبه، ليظهر لوحة دخول بربروسا إلى طولون، ثم قال لعبد العزيز وهو يشير إليها:

-تأمل يا عبد العزيز في شكل القلعة الموجود في لوحة السلاحي، الشيء الوحيد الظاهر منها هو 6 نوافذ مقابلة للبحر، أعتقد أنه ينبغي علينا البحث في هذه النوافذ بالتحديد، اذهب أنت وتفقد النوافذ السفلية الثلاث، وأنا سأتفقد النوافذ العلوية الثلاث، وعند انتهائنا من ذلك نلتقي في نفس هذا المكان.

وبعد ما يقرب من نصف ساعة، التقى الصديقان في المكان المحدد، فقال نضال لعبد العزيز:

-للأسف لم أجد شيئًا له علاقة بلغز بربروسا أو الرقم 103، كل ما وجدته مكتوبًا على جدران النوافذ الثلاث كان مجرد كتابات للذكرى كتبها السياح بلغات مختلفة.

-وأنا مثلك أيضًا يا نضال، لم أجد شيئًا له علاقة بالرقم 103، ولكن النافذة التي كانت على الجهة اليمنى كانت تحتوي على رسمة وأرقام غريبة لم أفهمها.

-ما الذي رأيته بالتحديد يا عبد العزيز؟

-لا شيء مهم، مجرد رسمة مضحكة لسفينة يبدو أن أحد الأطفال هو من رسمها، فقد كانت رسمة لسفينة بمجاديف كثيرة، ولكن هذه السفينة لم تكن تجري في البحر، بل كانت مثبتة على مبنى حجري، ومن أسفلها مياه متدفقة من عدد من النوافير حولها، وتحت هذه السفينة كانت مجموعة من الأرقام المصفوفة بشكل مرتب خلف بعضها البعض.

-ما هذه الأرقام يا عبد العزيز؟ سأل نضال بلهفة واضحة.

-لقد كانت هذه الأرقام مرتبة بهذه الطريقة:

1 ،1، 2، 3، 5، 8، 13، 21، 34، 55، 89، 144، 233،

377... ولا أذكر البقية، لحظة يا نضال، لقد التقطت صورة للرسمة والأرقام من هاتفي النقال.

وما أن ألقى نضال نظرة على تلك الصورة التي التقطها عبدالعزيز، حتى برقت عيناه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة، ثم قال وهو يحدق بالصورة:

-كيف لم أفهم ذلك منذ البداية؟!

-تفهم ماذا بالتحديد؟ سأل عبد العزيز بتعجب.

-لم يكن ينبغي علينا أن نبحث منذ البداية عن الرقم 103، بل على النافذة الرابعة من النوافذ الستة الظاهرة في الصورة، فالرقم 103 مكون من ثلاثة أرقام هي: 1 و0 و3، ومجموع هذه الأرقام هو 4، لذلك وجدت أنت خيط لغز بربروسا في النافذة السفلية اليمنى، وهي النافذة الرابعة.

-ولكن يا نضال إنها مجرد سفينة مضحكة وأرقام لا معنى لها.

-هذه الأرقام يا صديقي لها معنى كبير جدًّا، إنها «متتالية فيبوناتشي»!

-متتالية ماذا؟! يا إلهي! ليس من جديد يا 101!!!

***

-نضال، ألم أطلب منك من قبل ألا تذكر لي أسماء غير مفهومة دون أن تشرحها؟ ألا يكفيني ما أصابني من حيرة من لغز بربروسا حتى تأتي أنت وتزيد من حيرتي؟! من هو فيبوناتشي هذا الذي تتحدث عنه؟ وما هي متتاليته؟ بل ماذا تعني كلمة متتالية من الأساس؟!

ابتسم نضال ثم قال:

-المعذرة يا عبد العزيز، «ليوناردو فيبوناتشي» « Leonardo Fibonacci» هو أشهر عالم رياضيات إيطالي في التاريخ، وأشهر عالم رياضيات أوروبي في القرون الوسطى، وأحد أشهر علماء الرياضيات في التاريخ على الإطلاق، ولد عام 1175م في مدينة بيزا الإيطالية، كان هذا العالم الإيطالي هو من نشر الأرقام العربية في أوروبا.

-طبعًا أنت تقصد بالأرقام العربية تلك الأرقام التي نستخدمها نحن في بلاد المغرب، والتي تكتب بهذه الطريقة: 1، 2، 3، 4، 5... وليس الأرقام التي تستخدمونها أنتم المشارقة.

-صحيح يا نضال، للأسف الكثير من العرب في المشرق يسمي هذه الأرقام بالأرقام الإنجليزية، على الرغم من أن اسمها المتداول في بلاد الغرب وبقية دول العالم هو «الأرقام العربية» « Arabic numerals»، وذلك لأن العلماء الذين ظهروا في الحضارة التي اصطلح على تسميتها بالحضارة العربية الإسلامية هم من طور هذه الأرقام.

-ولكن كيف تعرف فيبوناتشي على هذه الأرقام وهو في إيطاليا؟ سأل عبد العزيز.

-لقد عاش فيبوناتشي جانبًا كبيرًا من حياته بين المسلمين في دول شمال أفريقيا، فقد كان أبوه تاجرًا إيطاليًّا كبيرًا، وكان مشرفًا على أسواق بيزا في الجزائر و تونس والمغرب، فتنقل ليوناردو فيبوناتشي معه بين تلك الدول، وتلقى تعليمه في مدينة بجاية الجزائرية التي كانت زاخرة بعلماء كبار في مجال الرياضيات، من أمثال عبد الحق الإشبيلي، وابن حمد، والعالم المعروف بسيدي بومدين، وأبي حميد الصغير، وغيرهم من العلماء الكبار، وقد استفاد فيبوناتشي كثيرًا من وجوده في الجزائر التي كانت في ذلك الوقت قبلة للعلماء، وقد ظهر تأثره بالحضارة الإسلامية العربية من خلال كتاب من كتبه

قام بتحرير جزء منه من اليمين إلى اليسار، وبنشره لهذا الكتاب قام فيبوناتشي بتعريف الأوروبيين على أنظمة الحساب والكتابة العربية، وقد لاقى فيبوناتشي في بداية الأمر هجومًا عنيفًا من قبل بعض الأوروبيين الذين كانوا يرفضون استخدام الأرقام العربية، ولكن مع مرور الوقت اقتنع الجميع أن هذا النظام يفوق بمراحل النظام الروماني المعتمد آنذاك في أوروبا، ومازالت الأرقام العربية هي الأرقام المعتمدة في العالم الغربي، وهي الأرقام التي تستخدم في أنظمة الحاسوب الرقمية في هذا الزمان، أما شهرة فيبوناتشي فتعود بالدرجة الأولى إلى المتتالية التي عرفت باسمه «متتالية فيبوناتشي».

- قبل أن تستغرق في كلامك يا نضال، اشرح لي أولًا ما تعنيه كلمة متتالية!

-«المتتالية» ويطلق عليها أيضًا المتتابعة أو المتوالية أوالتناسب، هي مجموعة من العناصر المرتبة بنمط محدد وله معنى، بحيث يكون كل عنصر له علاقة بالعنصر الذي يليه، ويرتبط معه بنظام محدد، حيث يكون ترتيب أعضاء المتتالية محددًا تمامًا ومميزًا.

-هل لك أن تذكر لي مثالًا على ذلك؟

-متتالية فيبوناتشي مثال بسيط على المتتاليات، فكل رقم يأتي هو مجموع الرقمين السابقين له، فإذا اعتبرنا أن أول رقم هو 1، فالرقم

الثاني هو أيضًا 1 لأنه مجموع الرقمين السابقين له وهما 1 و0، والرقم الثالث في هذه المتتالية هو 2 لأنه مجموع الرقمين السابقين له وهما 1 و 1، وهكذا دواليك في بقية أرقام المتتالية، كل رقم هو مجموع الرقمين السابقين: 1 ،1، 2، 3، 5، 8، 13، 21، 34، 55، 89، 144، ويستمر هذا النظام إلى ما لا نهاية.

The Fibonacci Sequence

1,1,2,3,5,8,13,21,34,55,89,144,233,377...

1+1=2	13+21=34
1+2=3	21+34=55
2+3=5	34+55=89
3+5=8	55+89=144
5+8=13	89+144=233
8+13=21	144+233=377

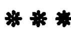
-جيد، الآن فهمت، ولكن ما زلت لا أفهم ما علاقة هذا الأمر كله بالخيط القادم من لغز بربروسا؟!

-أعتقد يا عبد العزيز أن الوقت قد حان لكي تزور أخوالك في الجزائر.

-الجزائر! هل تريد أن تبحث في الجزائر فقط بسبب عالم إيطالي تلقى تعليمه فيها؟! هل تعلم كم هي مساحة الجزائر يا نضال؟ الجزائر أكبر دولة في أفريقيا وعاشر أكبر دولة في العالم، كيف تريد أن

تبحث في كل تلك المساحة عن بقية خيوط لغز بربروسا؟!

-هدئ من روعك يا صديقي، فلن نبحث في كل أرض الجزائر، بل سنبحث فقط في مدينة جزائرية محددة، وهي المدينة التي يوجد عند مدخلها مجسم تاريخي محاط بعدة نوافير لسفينة حربية صنعت من البرونز، هذه السفينة البرونزية صنعها سكان المدينة تخليدًا للسفينة الحربية التي قادها قبل ما يقرب من 500 عام قائدان أوروبيان مسلمان، أبحرا بتلك السفينة لإنقاذ سكان المدينة من الغزاة الصليبيين، فالسفينة التي رأيت صورتها يا عبد العزيز فوق متتالية فيبوناتشي هي السفينة التي أصبحت رمزًا لمدينة جيجل الجزائرية، سفينة الأخوين بربروسا!



الجزائر

عاصمة بربروسا

في منتصف طريقهما من الجزائر العاصمة إلى مدينة جيجل الجزائرية، توقف نضال وعبد العزيز للاستراحة في المدينة التي تعلم فيها فيبوناتشي، مدينة بجاية الجزائرية، فجلسا في أحد مطاعم المدينة، وأخذا يتبادلان أطراف الحديث أثناء تناولهم لطعام الغداء.

-عبد العزيز ما اسم هذا الطبق الشهي الذي طلبته لنا؟

-إنه أشهر طبق في مدينة بجاية الجزائرية، اسمه «عصبان السميد» أو «تيكوربابين» أو كما يطلق عليه باللهجة القبائلية «تيعسفانين»، هل أعجبك مذاقه يا نضال؟

-أعجبني مذاقه كثيرًا، لدينا في بلاد الشام طبق يشبهه إلى حد كبير يسمى «الكبة»، وهي تصنع أيضًا من السميد. ولكن أخبرني هل تفهم أيضًا اللغة الأمازيغية التي يتحدث بها الناس هنا في منطقة القبائل؟

-اللغة الأمازيغية تحتوي على عدة لهجات يا نضال، ولكني أستطيع التحدث بكل تلك اللهجات تقريبًا، فأمي أمازيغية جزائرية

من منطقة القبائل، وعندنا في المغرب لهجات أخرى للأمازيغية تعلمتها من أصدقائي.

-أمك أمازيغية ولكن أباك عربي أليس كذلك؟

-هذا صحيح، أبي عربي من المغرب، وأمي أمازيغية من الجزائر، وجدتي من أبي موريسكية من أصول أوروبية أندلسية، وجدتي من أمي أفريقية من السنغال.

وبعد أن انتهى نضال وعبد العزيز من تناول طعامهما، جاء صاحب المطعم وتحدث مع عبد العزيز بكلمات أمازيغية لم يفهمها نضال، وبعد ذلك بدأ الاثنان بالصراخ على بعضهما البعض بحدة، بينما كان نضال ينظر إليهما مستغربًا، وقبل أن ينصرف إلى شأنه، نظر صاحب المطعم نحو نضال وهو يبتسم ويلوح بيديه بالسلام، فبادله نضال الابتسام والتحية.

-ما الذي كان يقوله لك يا عبد العزيز؟ ولماذا كنتما تتعاركان؟ سأل نضال بفضول.

-لم نكن نتعارك، لقد كان كلامًا عاديًا، في البداية سألني عن الطعام إن كان قد أعجبنا فأخبرته بأنه قد أعجبنا كثيرًا، وبعد ذلك سألني من أين نحن، فأخبرته أنني من المغرب، ففرح بذلك وأخبرني أن الجزائريين والمغاربة إخوة منذ قديم الزمان، وأن زوجته مغربية

تنحدر من مدينة أكادير في جنوب المغرب، وبعدها سألني عنك فأخبرته أنك فلسطيني من غزة، وعند معرفته بذلك أصر على أن تكون هذه الوجبة ضيافة منه لنا، فشكرته معتذرًا، ولكنه أصر على ذلك، فشكرته على كرم ضيافته واعتذرت منه مرة أخرى وهممت بدفع الحساب، فغضب مني غضبًا شديدًا، ورفض رفضًا قاطعًا أن أدفع دينارًا واحدًا. قال عبد العزيز وهو يبتسم.

-أتعلم يا عبد العزيز، لقد صرت أخفي عن سائقي سيارات الأجرة حقيقة أنني من فلسطين، فقد صرت أشعر بالخجل من طيبة هذا الشعب، فبمجرد معرفتهم بأنني فلسطيني يرفضون أن أدفع لهم أجرتهم، ويشرعون بالبكاء حبًّا في فلسطين والقدس.

-هذا الأمر ليس في الجزائر فقط يا عبد العزيز، كثير من أصدقائي في المغرب عادة ما يوصونني بأن أطلب منك أن تجلب لهم ترابًا من أرض فلسطين، فقضية فلسطين والقدس ليست قضيتكم وحدكم يا صديقي، بل هي قضيتنا جميعًا، وموضوع القدس بالتحديد يعتبر خطًا أحمر لدى كل الشرفاء مهما كانت اختلافاتهم، فربما نختلف مع بعضنا البعض في آرائنا السياسية، وفي توجهاتنا الفكرية، وفي أشياء كثيرة أخرى، ولكن قضية القدس هي من توحدنا جميعًا.

وبعد فراغهما من الطعام، توجه الصديقان نحو صاحب المطعم، وقاما بمعانقته وتوديعه بحرارة أخوية، وبعدها استقلا السيارة التي أعارهما إياها خال عبد العزيز، وانطلقا بها في طريقهما إلى الشرق من مدينة بجاية، إلى مدينة جيجل الجزائرية.

-هل تعلم يا عبد العزيز أن رائد علم الاجتماع، وواضع نظرياته، وصاحب المقدمة الشهيرة، العالم الإسلامي الكبير «ابن خلدون» قد عاش فترة من الزمان في مدينة بجاية الجزائرية بعد أن أبحر إليها مباشرة من مدينة ألميريا الأندلسية؟

-قبل أن أعلم هذا الأمر أريد أن أعلم ما علاقة الجزائر بالرموز الموجودة في راية بربروسا؟ تساءل عبد العزيز.

-ماذا تقصد بذلك يا عبد العزيز.

-المحطة الأولى في لغز بربروسا كانت مدينة إسطنبول التركية التي أشارت إليها العبارة الموجود في أعلى راية بربروسا «وبشر المؤمنين يا محمد»، وكان السيف ذو الحدين كما رأينا رمزًا للمحطة الثانية وهي المدينة الفرنسية، ولكن الجزائر ما الذي يربطها براية بربروسا؟

هناك رمزان كبيران يربطان الجزائر براية بربروسا، الرابط الأول ما تمثله الجزائر نفسها لبربروسا، وما يمثله بربروسا للجزائر، فتاريخ كل منهما مرتبط بالآخر، فهذا القائد الإسلامي الكبير يعتبر رمزًا من

أعظم رموز الجزائر عبر جميع مراحل التاريخ، بل يعتبره البعض المؤسس الحقيقي للدولة الجزائرية الحديثة، فبربروسا قبل أن يصبح قائدًا عامًّا للأسطول الإسلامي كان واليًا على الجزائر، وقد كان من المتعارف عليه في الدولة العثمانية أن من يتولى إمارة الجزائر يصبح بعدها أقوى المرشحين لقيادة الأسطول العثماني بشكل عام، والجزائريون حتى يوم الناس يعشقون بربروسا ويكنون له الاحترام والتقدير، فهو من حرر الجزائر من الغزاة بداية القرن السادس عشر الميلادي، وهو من حولها إلى قاعدة بحرية كبرى للتصدي لقراصنة القديس يوحنا وأساطيل الإسبان وحلفائهم الصليبيين، وهو من ساهم في انضمام الجزائر إلى دولة الخلافة العثمانية التي منحت الجزائر وضعًا خاصًّا ومميزًا بين كل الولايات العثمانية، فكانت الجزائر في زمن العثمانيين عاصمة مركزية لولايات شمال أفريقيا الثلاث «ليبيا، تونس، الجزائر»، وكانت هذه الولايات الثلاث تحت قيادة عامة من القائد خير الدين بربروسا الذي اتخذ من الجزائر العاصمة مقرًّا له وللأسطول الإسلامي العثماني في البحر الأبيض المتوسط، لتتحول الجزائر في زمن بربروسا وخلفائه إلى قاعدة كبرى لأعظم قوة بحرية في البحر المتوسط في ذلك الزمان، وصارت السفن الأجنبية التي تجري في البحر الأبيض المتوسط تدفع الضرائب للوالي العثماني في

الجزائر لكي تبحر تحت حماية الأسطول العثماني الجزائري الذي كان يشن حملات منظمة على قراصنة البحر المتوسط، خاصة قراصنة القديس يوحنا.

-وما هو الرمز الآخر في راية بربروسا الذي أراد واضع هذا اللغز الإشارة من خلاله إلى الجزائر؟ تساءل عبد العزيز.

-إنه رمز كف اليد الموجود في الراية إلى جانب مقبض السيف يا صديقي.

-ولكن ما علاقة كف اليد بالجزائر؟!

-لقد كان بطل الجزائر العظيم وقائد المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي الأمير عبد القادر بن محيي الدين المعروف بالأمير عبدالقادر الجزائري يتخذ راية تتكون من شريطين أخضرين بينهما شريط أبيض، وكان يتوسط هذا الشريط رمز كف اليد، وربما اتخذ كف اليد كرمز لرايته لأنه كان ينتسب إلى الأدارسة وهم من آل البيت، والكف في راية بربروسا كما أخبرتك من قبل يرمز أيضًا إلى آل البيت.

-بالمناسبة يا نضال، هل صحيح ما يشيعه البعض مؤخرًا بأن الأمير عبد القادر الجزائري كان ماسونيًّا؟

-بالتأكيد لا، هذه الإشاعات لا تعدو مجرد محاولة يائسة لتشويه تاريخ هذا القائد الإسلامي الكبير وتشويه تاريخ الجزائر ورموزها،

فالرجل كان أحد أعظم أبطال المسلمين عبر التاريخ، وإن كنت تقصد الصورة التي ينشرها البعض والتي تصوره وهو يلبس على ردائه نياشين على صورة صلبان، فهذه النياشين لم تكن سوى نياشين تكريم جاءته من ملوك أوروبا عرفانًا له بالجميل لإنقاذه المسيحيين أثناء أحداث الفتنة التي وقعت بين المسيحيين والدروز، وقد استقبل الأمير عبد القادر الجزائري المسيحيين في بيته لحمايتهم، وهو بدفاعه عن الأبرياء من المسيحيين الذين التجأوا إليه إنما قام بما تدعوه إليه الشريعة الإسلامية السمحاء في الدفاع عن المضطهدين والمظلومين حتى ولو لم يكونوا مسلمين، فلما سمع ملوك أوروبا بقصته أرسلوا له ملوك النياشين الوطنية لبلدانهم تكريمًا له على موقفه الإنساني النبيل، وهذه النياشين كما تعرف أغلبها على صورة صلبان، فأخذ صورة لنفسه وهو يلبس تلك النياشين ووضع نيشان الهلال التركي الذي حصل عليه من الخليفة العثماني فوق هذه النياشين كلها.

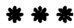
وفجأة... توقف نضال عن الكلام، بعد أن لاحظ وجود محل تجاري صغير على الطريق العام، فطلب من عبد العزيز أن يتوقف بالسيارة لكي يذهب هو ويشتري بعض ما يلزمهم لإكمال طريقهما، وبعد دقائق معدودة عاد نضال وهو يحمل بإحدى يديه كيسًا به

بعض المشروبات الباردة، بينما كان يحمل باليد الأخرى كرة هوائية صغيرة.

-ما هذه الكرة يا نضال؟ هل تعتقد بالفعل أن لدينا وقتًا للعب كرة القدم؟!

ابتسم نضال ثم أجاب:

-وَلِمَا لا يا صديقي؟ يجب ألا تلهيك أمور الحياة عن ممارسة الرياضة!



في ساحة بابا عروج

كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل بتوقيت الجزائر، وكانت ساحة بابا عروج في مدينة جيجل الجزائرية شبه خاوية من المارة عندما كان نضال وعبد العزيز أمام مجسم سفينة الأخوين بربروسا يلعبان كرة القدم بالكرة الهوائية التي اشتراها نضال في طريق رحلتهما إلى جيجل.

-ألا تعتقد أن الناس قد يعتقدون أننا مجانين للعبنا الكرة في هذا



الوقت المتأخر من الليل بهذه الكرة الهوائية التي عادة ما يلعب بها الأطفال الصغار؟ قال عبد العزيز وهو يمرر الكرة لنضال.

-صديقي العزيز عبد العزيز، فلتكن عندك روح رياضية، الكرة هي الكرة مهما اختلف شكلها، وأنت الآن في الجزائر، والناس في هذه البلاد مغرمون بكرة القدم، وليس غريبًا عليهم أن يروا بعض الشباب يلعبون كرة القدم في منتصف الليل. بالمناسبة يا عبد العزيز هل تعلم أن الجزائر كانت سببًا في تغيير قِوانين كرة القدم في العالم؟

-كيف ذلك يا نضال؟

-في كأس العالم لكرة القدم في إسبانيا عام 1982م، استطاع منتخب الجزائر في مباراته الأولى الانتصار على منتخب ألمانيا الغربية الذي كان مرشحًا قويًّا لنيل اللقب العالمي، وفي المباراة الثانية خسرت الجزائر أمام النمسا، بينما استطاعت الانتصار على تشيلي في المباراة الثالثة، وصارت الجزائر قاب قوسين من التأهل إلى الدور الثاني من البطولة، وكانت الإمكانية الوحيدة التي تحول دون تأهل الجزائر هي أن تنتصر ألمانيا في مباراتها الثالثة على النمسا بفارق هدف واحد، وهي النتيجة الوحيدة التي تؤهل ألمانيا والنمسا معًا، وفعلًا هذا ما تم، فبعد يوم واحد من مباراة الجزائر الثالثة، لعبت ألمانيا والنمسا مباراتهما الثالثة التي سجل فيها الألمان هدفًا مبكرًا، قبل أن

يكمل الفريقان الوقت المتبقي من المباراة بأداء هزيل للمحافظة على تلك النتيجة التي اعتبرت من أكبر فضائح كرة القدم في التاريخ، وفعلًا تأهل الفريقان الجرمانيان، بينما أقصيت الجزائر من الدول الأول، ومنذ ذلك التاريخ غير اتحاد كرة القدم العالمي «فيفا» قوانين كأس العالم بحيث تقام المباريات الأخيرة للفرق من نفس المجموعة في وقت واحد منعًا لحدوث تلاعب بالنتائج.

-هذا أمر مؤسف بالفعل! كنت أعتقد في السابق أن كرة القدم تدعو إلى نشر الروح الرياضية بين الشعوب، ولكن ما أراه من مؤامرات وعمليات فساد وتعصب أعمى وهتافات عنصرية من الجمهور شوه صورة كرة القدم التي أحببناها منذ صغرنا، ولكن ما يهون الأمر علينا هو وجود لاعبين خلوقين في العالم ساهموا بالفعل في نشر روح المحبة بين الشعوب، بالمناسبة يا نضال ما حكاية سفينة الأخوين بربروسا التي نلعب بجانبها؟

-في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، أصبحت الجزائر ودول شمال أفريقيا عمومًا هدفًا للغزاة الصليبيين الذين أرادوا إنهاء الوجود الإسلامي في شمال أفريقيا، وبالفعل تم احتلال الكثير من المدن المغربية والجزائرية والتونسية والليبية، وقادت أساطيل إسبانيا والبرتغال وقراصنة القديس يوحنا تلك

الحملات الصليبية التي جرت بمباركة مباشرة من بابا الفاتيكان، وفي عام 1504م، أبحرت سفن الغزاة الإسبان لاحتلال الجزائر بقيادة شخصية من الكاردينال الكاثوليكي «فرانثيسكو خيمينيث دي ثيسنيروس»، وهو رجل الدين المتطرف الذي كان يشغل منصب كبير المفتشين في محاكم التفتيش الكاثوليكة التي كانت تشرف على تعذيب المسلمين واليهود في الأندلس، وتمكن الإسبان بالفعل من احتلال مدينة وهران الجزائرية في ذلك العام، وبعدها احتلوا مدينة المرسى الكبير، وسقطت بجاية وعنابة وكثير من مدن الجزائر في قبضة الغزاة الصليبيين الذين جاءوا لتغيير دين الشعب الجزائري، وكانت مدينة جيجل واقعة من نصيب الغزاة القادمين من جمهورية جنوة الإيطالية، فبعث أهل هذه المدينة برسائل استغاثة إلى الأخوين عُروج وخير الدين بربروسا اللذين ذاع صيتهما في ذلك الزمان نتيجة لعملياتهما البطولية في إنقاذ الأبرياء من المسلمين واليهود من محاكم التفتيش في الأندلس، ونتيجة لانتصاراتهما البحرية الكبيرة على قراصنة القديس يوحنا، فأبحر الأخوان بربروسا لتحرير مدينة جيجل الجزائرية وبقية مدن الجزائر وشمال أفريقيا، ولذلك ما يزال أهل مدينة جيجل يحفظون هذا الجميل للقائد عروج وأخيه الأصغر خير الدين، فبنوا هذه السفينة البرونزية التي تشبه السفينة التي قادها

الأخوان بربروسا أثناء تحريرهما للمدينة، وسموا هذه الساحة باسم ساحة بابا عروج، نسبة للقائد عروج بربروسا.

-لقد حدثتني كثيرًا في السابق نضال عن القائد خير الدين بربروسا، ولكنك لم تخبرني الكثير عن أخيه الأكبر عروج أو بابا عروج؟

-عروج يا عبد العزيز هو الأخ الأكبر لخير الدين بربروسا، وقد ولد هذا القائد الألباني المسلم في الليلة التي يعتقد بعض المسلمين أنها ليلة الإسراء والمعارج، فأسماه أبوه «عُروج» بضم العين، وتلفظ عند غير العرب بـ «أوروج»، وعندما قام هذا القائد الألباني بإنقاذ آلاف الأندلسيين من محاكم التفتيش، أطلق عليه أهل الأندلس اسم «بابا أروس» وتعني بلغة أهل الأندلس «الأب عروج»، وذلك تقديرًا واحترامًا لهذا القائد الذي خاطر بنفسه لإنقاذهم، فحرفها الأوروبيون إلى «باربـاروس» وتعني صاحب اللحية الحمراء، ثم انتقل هذا اللقب أيضًا إلى أخيه خير الدين، وصار الاثنان يعرفان عبر شواطئ البحر الأبيض المتوسط باسم شهير هو «الأخوان بربروسا».

-إذًا فأصل كلمة «باربروسا» أو «باربروس» يرجع بالأصل إلى

عـروج، ولكـن هـل كـان عـروج بالفعـل قرصـانًا كـما يـتم تصـويره بالإعلام؟

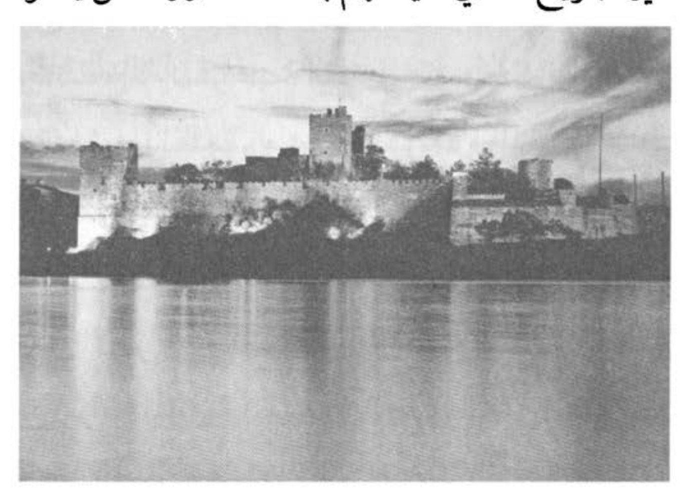
-على العكس من ذلك يا عبد العزيز، فقد كان عروج هو عدو القراصنة الأول، فهذا القائد الأوروبي المسلم كان من أعظم وأنبل وأشرف القادة البحريين الذين مروا ليس فقط على تاريخ المسلمين، بل أيضًا على تاريخ الإنسانية جمعاء، فهو من أبحر مع أخيه خير الدين وبقية إخوته لإنقاذ الأبرياء المسلمين واليهود من محاكم التفتيش الإسبانية، وذلك بعد قيادته لعمليات قتالية بحرية شبه مستحيلة استطاع على إثرها تحرير الآلاف من الأبرياء الأندلسيين، ولقد كان هذا القائد الإسلامي يتحدث بطلاقة بعدة لغات، فكان يجيد التركية والألبانية والعربية والإسبانية والفرنسية واليونانية، وكانت سيرته تشبه إلى حد كبير الأساطير الخيالية التي لا تكاد تصدق، ويكفيك فقط أن تعلم قصته عندما كان أسيرًا لدى قراصنة القديس يوحنا.

-وما حكاية أسره لدى هؤلاء القراصنة يا نضال؟

-في بداية حياته، كان عروج يعمل بالتجارة بين موانئ البحر الأبيض المتوسط، وأثناء رجوعه من إحدى رحلاته التجارية من مدينة طرابلس اللبنانية، باغتته سفن قراصنة القديس يوحنا،

واستطاعوا الاستيلاء على السفينة وقتل أخيه إلياس رحمه الله، بينما أصيب عروج أثناء قتاله ووقع أسيرًا في قبضتهم، فاقتاده القراصنة مقيدًا بالسلاسل إلى سجن مظلم تحت الأرض في «قلعة سانت بيير» المعروفة بـ «قلعة بودروم» الواقعة في مقر قراصنة القديس يوحنا بجزيرة رودس، وبقي عروج يتعرض للتعذيب في زنزانته المظلمة لعدة سنوات، في حين كان أخوه خير الدين يحاول البحث عنه في كل مكان، حتى أخبره أحد التجار المسيحيين بمكان أسر أخيه، فحاول خير الدين التسلل لإنقاذ أخيه الأكبر من الأسر، إلا أن أمره كشف قبل نجاح العملية، فعرض خير الدين على القراصنة فداء أخيه بأموال طائلة، إلا أن قراصنة القديس يوحنا كانوا يحقدون على عروج حقدًا شديدًا منعهم من قبول كل الأموال التي عرضها خير الدين، ورفض القراصنة أيضًا عرض الأمير العثماني كركود ابن السُلطان العثماني بايزيد الثاني بمبادلة عروج بأسرى لهم، وبعد سنوات من الأسر والتعذيب، قرر قراصنة القديس يوحنا إخراج عروج من زنزانته المظلمة وتقييده في إحدى السفن ليعمل جدافًا بها، وفي ليلة من الليالي وعندما كانت سفينة القراصنة بالقرب من سواحل إحدى المدن التركية، هبت ريح معاكسة قرر القراصنة بسببها انتظار الصباح، ثم قاموا بإنزال قارب السفينة ومضوا لصيد

الأسماك، وفي هذه الأثناء هبت عاصفة شديدة لم يتمكن القارب بسببها من الرجوع للسفينة، وانتهز عروج الفرصة، وتمكن من فك قيوده، وقفز في البحر وسبح حتى وصل للساحل، ثم سار حتى وجد قرية تركية وجد بها عجوزًا قامت باستضافته، وأمضى عندها عشرة أيام في القرية كانت فيها العجوز تشرف على مداواة جراحه التي أصيب بها نتيجة للتعذيب، وبعد ذلك ودع عروج تلك العجوز الطيبة، وغادر القرية راكبًا إحدى السفن التي نقلته إلى بر الأمان بعيدًا عن أعين القراصنة، الذين جن جنونهم عند علمهم بهروب هذا الأسير الجريح، الذي سيلقنهم بعد ذلك دروسًا لن ينسوها أبدًا!



-وما الذي فعله عروج بعد أن تمكن من تحرير نفسه من هؤلاء القراصنة؟ سأل عبد العزيز.

-لقد تمكن القائد عروج من تكوين أسطول بحري صغير استطاع من خلاله بمعونة من أخويه إسحق وخير الدين تلقين أساطيل الأعداء في البحر المتوسط دروسًا في فنون القتال البحري، وتحول اسم «بربروسا» إلى اسم يرعب سفن القراصنة في غرب البحر المتوسط، وبالرغم من أنه فقد إحدى يديه في إحدى المعارك البحرية مع الغزاة، استمر القائد عروج في الدفاع عن المستضعفين وإنقاذ المسلمين واليهود في الأندلس ونقلهم إلى بر الأمان الجزائري، وذاع صيت هذا القائد الأوروبي النبيل بين المسلمين في شمال إفريقيا، فبعث أهل المدن الجزائرية برسائل الاستغاثة إلى القائد عروج بربروسا طالبين منه إنقاذهم من الاحتلال الإسباني، فتنقل الأخوان بربروسا من مدينة إلى أخرى لتحريرها من الغزاة الصليبيين وعملائهم، فحررا مدينة جيجل، ثم أبحرا إلى مدينة الجزائر وتمكنا من تحريرها، بعد أن سحق الأخوان بربروسا جيش الإمبراطورية الإسبانية بقيادة «دييغو دوفيرا» وتابعه الأمير الحفصي الخائن «محمد المتوكل»، وبعد ذلك قام الأخوان بربروسا بتحصين مدينة الجزائر وتحويلها إلى مركز انطلاق عمليات التحرير إلى مدن شمال أفريقيا، وازدهرت هذه المدينة في عهدهما بعد أن انتقل للعيش فيها آلاف المهجرين من أهل الأندلس المسلمين واليهود الذين أنقذهم عروج

وأخوه خير الدين بربروسا، ثم افترق الأخوان لينتقل كل منهما إلى ساحة قتال مختلفة عام 1518م، فاختار القائد عروج التوجه إلى مدينة تلمسان الجزائرية بناء على طلب استغاثة قدمه أهلها، فقام بعض الخونة بالاتصال بالصليبيين الإسبان لوضع كمين له في تلك المدينة، فتمكنت قوات الإمبراطورية الإسبانية من حصار القائد عروج من كل اتجاه، وطلب الإسبان منه أن يسلم نفسه، إلا أن القائد عروج لم يكن يعرف ما تعنيه كلمة استسلام، وكان أحد إخوة عروج ويدعى اسحق يقاتل إلى جانبه ويحاول الذود عن أخيه الذي كان يقاتل الغزاة بيد واحدة بعد أن فقد الأخرى في إحدى عملياته القتالية ضد الغزاة، وتمكن عروج والكتيبة الفدائية التي معه من إيقاع خسائر فادحة في صفوفهم، ولكن عدد الإسبان ومن معهم من خونة كان كثيرًا جدًّا، فتمكن الغزاة في نهاية الأمر من قتل عروج وإسحق ومن معهما، فسقط القائد عروج على أرض تلمسان الجزائرية وهو يدافع عنها حتى آخر لحظة في حياته، فقطع الغزاة الإسبان رأس القائد عروج ونقلوها إلى إسبانيا، وطافوا بها في المدن الكاثوليكية في أوروبا، فكانت أجراس الكنائس في تلك المدن تدق احتفالًا كلما مر بها هذا الرأس الذي كان يسبب لملوكهم وقراصنتهم الكثير من الصداع.

-وماذا فعل خير الدين بربروسا عند علمه بسقوط أخيه عروج؟

-لقد كانت لحظة رحيل القائد عروج نقطة فاصلة في تاريخ القائد خير الدين بربروسا، فقد تسلم خير الدين راية المقاومة من أخيه، بعد أن اختاره أهل الجزائر خلفًا له، فقام القائد خير الدين بربروسا بتلقين الغزاة وأتباعهم دروسًا في فنون القتال، ولمّا سمع البابا «بولس الثالث» في روما بانتصارات هذا القائد المسلم، أعلن من الفاتيكان عام 1538م حالة النفير العام في أرجاء الممالك الكاثوليكية، فتشكل له تحالف صليبي ضخم مكون من: «إمبراطورية إسبانيا، جمهورية جنوة، جمهورية البندقية، إمبراطورية البرتغال، الدولة البابوية، دوقية مانتوفا، قراصنة القديس يوحنا»، فاجتمع للصليبيين أكبر أسطول عرفته الأرض في ذلك الوقت، وتكون هذا الأسطول من 600 سفينة صليبية، تحمل على متنها نحو 60 ألف جندي، واختير لقيادة هذا الأسطول قائد بحري إسباني كان أعظم قائد بحري عرفته أوروبا الكاثوليكية في القرون الوسطى، هذا القائد كان يدعى «أندريا دوريا» «Andrea Doria»، وكان الهدف الاستراتيجي الذي وضعه قادة الصليبيين لهذا التحالف هو تدمير القوة الإسلامية البحرية الناشئة تدميرًا كليًّا، أما على الجانب الإسلامي فقد أمر الخليفة العثماني سليمان القانوني القائد العام للقوات الإسلامية البحرية الأمير خير الدين بربروسا بالتصدي بنفسه لهذا الأسطول

الصليبي الجرار، فأبحر بربروسا على رأس أسطول إسلامي كبير لملاقاة الغزاة في عرض البحر، وتكون الأسطول الإسلامي من 122 سفينة تحمل على متنها 22 ألف من نخبة قوات البحرية العثمانية الإسلامية، والتقى الأسطولان الصليبي والإسلامي في معركة بحرية مصيرية وقعت في عرض مياه البحر المتوسط، وذلك في 4 من جمادى الأولى 945 هـ الموافق 28 من سبتمبر 1538م، لقد كان ذلك التاريخ يا عبد العزيز هو تاريخ «معركة بروزة البحرية» «Battle of Preveza»، تاريخ أكبر معركة بحرية في تاريخ الإسلام بأسره!

-وما هي أحداث تلك المعركة البحرية الكبيرة؟ تساءل عبد العزيز.

-لقد أدرك القائد الألباني الكبير خير الدين بربروسا أن قوات الصليبيين تفوقهم بكثير من ناحية العدة والعتاد، لذلك ابتكر خطة محكمة لضرب سفن الغزاة، فقام بتشكيل الأسطول الإسلامي على شكل حرف واي «Y»، بحيث يتيح هذا التشكيل مباغتة قوات العدو بالمدفعية العثمانية الثقيلة ومناورة الجناحان الإسلاميان، ووزع بربروسا قيادة أجنحة الأسطول على خيرة قادة البحرية الإسلامية، بينما اختار هو أن يكون قائد قلب هذا الأسطول الإسلامي في تلك المعركة.

التحالف الصليبي

1- فرسان المالطية
2- جيوفاني أندريا دوريا
3- فيرونتي غانزاغ
4- أندريا دوريا
5- ماركو جريماني، فينكنزو كابيللو
6- أليساندرو كوندلميرو، فرانسيسكو دوريا

1- سيدي علي الرئيس
2- خير الدين بربروس
حسن الرئيس، سنان الرئيس
جعفر الرئيس، سليمان الرئيس
3- صالح الرئيس
4- طورغوط الرئيس

-وبالمناسبة يا عبد العزيز، القائد البحري «سنان ريس» الذي كان من أصول يهودية كان من ضمن القادة القلائل الذين حاربوا بجانب القائد العام خير الدين بربروسا في هذه المعركة المصيرية.

-ماذا؟! قائد من أصول يهودية في جيش بربروسا؟! تساءل عبدالعزيز.

-لا تتعجب يا صديقي، فكثير من يهود الأندلس الذين أنقذهم

المسلمون اشتركوا في جيوش الخلافة العثمانية في قتال الممالك الكاثوليكية التي عذبتهم في محاكم التفتيش سيئة السمعة، وسنان ريس ولد في إسبانيا لعائلة من «يهود السفرديم»، وقد لجأت عائلته إلى دولة الخلافة العثمانية هربًا من محاكم التفتيش، وبعدها أصبح من أشهر قادة البحرية الإسلامية العثمانية، وقد عرف سنان ريس عند الأوروبيين بلقب «اليهودي العظيم» «The Great Jew»، وهو اللقب الذي أطلقه عليه الحاكم البرتغالي في الهند عندما سمع بأن الخليفة العثماني السلطان سليمان القانوني أوكل إلى سنان ريس في البحر الأحمر مهمة إعداد أسطول عثماني لنجدة المسلمين في الهند، وقد كان بربروسا يكن لسنان ريس احترامًا كبيرًا، لدرجة أنه وضعه من بين القادة الذين اختارهم للقتال بجانبه في قلب الأسطول الإسلامي في معركة بروزة، بل إن بربروسا بعد ذلك بسنين قاد أسطولًا عثمانيًّا اتجه به إلى سواحل إيطاليا في مهمة خاصة لتحرير ابن سنان ريس الذي أسر من قبل أحد الحكام الكاثوليك، فحرر بربروسا بنفسه ابن سنان ريس من الأسر.

-وكيف كانت نتيجة معركة بروزة البحرية؟

-قبل أن يبدأ أندريا دوريا بالتقاط أنفاسه لفهم ذلك التشكيل البحري المبتكر الذي كونه القائد بربروسا، تفاجأ قادة التحالف

الصليبي بالبحرية الإسلامية وهي تدك سفنهم بسلاح المدفعية العثمانية، فاشتعلت النيران في عدد كبير من سفن التحالف الصليبي، وتم إعطاء العشرات من تلك السفن، في حين تفرقت بقية السفن من شدة الصدمة، وتمكنت قوات الضفادع البشرية العثمانية التابعة للقائد بربروسا من أسر 36 سفينة من سفن العدو بمن عليها من الجنود، فأسر في تلك المعركة آلاف من الغزاة الصليبيين من مختلف الممالك والجمهوريات التي انضوت تحت ذلك التحالف الصليبي الكبير، في حين تمكن القائد أندريا دوريا الهروب من ميدان المعركة بمن تبقى معه من الصليبيين.

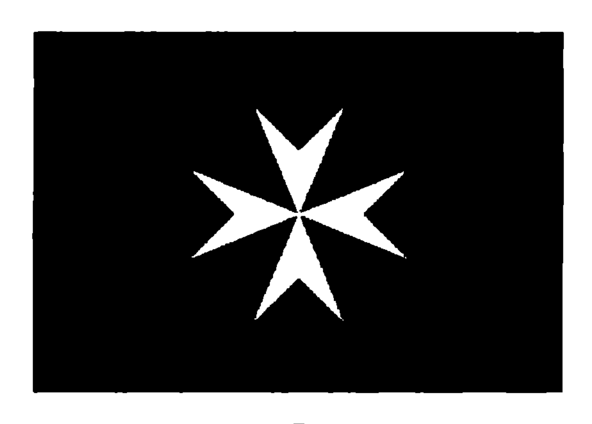
-وكم سفينة من سفن بربروسا تم إغراقها في تلك المعركة الرهيبة؟ تساءل عبد العزيز.

-المفاجأة يا عبد العزيز أن القائد الإسلامي الأسطوري خير الدين بربروسا تمكن من إنهاء تلك المعركة المصيرية لصالح المسلمين في ساعات قليلة دون أن يخسر أي سفينة! وهو الأمر الذي دفع كثيرًا من المؤرخين إلى اعتباره أحد أعظم القادة العسكريين في تاريخ المعارك البحرية في التاريخ الإنساني على الإطلاق.

-يا لها من معركة! العجيب أننا لم نقرأ عنها في كتب التاريخ!! ولكن أخبرني يا نضال، كيف كانت أصداء هذا الانتصار البحري الكبير للمسلمين في العالمين الإسلامي والصليبي؟

-لقد اعتبر الصليبيون هذه المعركة بمثابة كارثة حلت عليهم، وفقدوا بعدها القدرة على السيطرة البحرية لسنوات طويلة، في حين استقبل الخليفة القانوني هذا الانتصار بالسجود شكرًا لله، وقام باستقبال القائد خير الدين بربروسا بنفسه وتكريمه هو وقادة تلك المعركة وكل من شارك معهم من جنود البحرية الإسلامية، وما زال تاريخ معركة بروزة البحرية هو اليوم الرسمي للبحرية التركية إلى يوم الناس هذا، وقد ساعد نصر بروزة على تحرير العديد من مدن شمال إفريقيا من قبضة الغزاة الصليبيين وأتباعهم، وقام بربروسا بمطاردة قراصنة القديس يوحنا عبر أمواج البحر المتوسط، واستطاع إلحاق هزائم فادحة في صفوفهم.

-ولكن ما حكاية هؤلاء القراصنة الذين ارتبط اسمهم كثيرًا بحكاية الأخوين بربروسا؟



-«قراصنة القديس يوحنا»: ويطلقـــون على أنفسهم اسم فرسان القديس يوحنا، هم مجموعة إرهابية من أخطر المجموعات الإرهابية التي كانت تعيث الفساد في البحر المتوسط، فقد كان هؤلاء القراصنة يقومون بعمليات قرصنة بحرية ضد السفن التجارية، وخاصة سفن المسلمين منها، بداية نشأتهم كانت في الحروب الصليبية في فلسطين، كان يطلـق عليهـــم اســـم «فرسان الهوسبتاليـــة» «Knights Hospitaller»، واشتهروا أثناء الحروب الصليبية بتطرفهم الديني وحقدهم الشديد على الإسلام والمسلمين، وقاموا بارتكاب عدد كبير من المجازر المروعة بحق المدنيين المسلمين في فلسطين، حتى طردهم منها القائد الكردي المسلم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، فانتقلوا بعد طردهم إلى جزيرة رودس في البحر المتوسط، وجعلوها مقرًّا لهم لشن عمليات القرصنة في البحر المتوسط، فصاروا يمثلون خطرًا كبيرًا على حركة التجارة الدولية في البحر المتوسط، وارتكبوا العديد من المجازر بحق المدنيين المسلمين بالتحديد، حتى قرر الخليفة العثماني العملاق السلطان سليمان القانوني وضع حد لجرائمهم بحق الإنسانية، فقاد بنفسه أسطولًا إسلاميًّا ضخمًا واتجه به إلى رودس، فتحصن قراصنة القديس يوحنا داخل أسوار قلعتهم، فقامت المدفعية الإسلامية بدك حصون القلعة دون جدوى، وعندما

لم يتمكن المسلمون من العبور إليهم عبر جدران قلعتهم الحصينة، قرر القائد القانوني الزحف إليهم من تحت الأرض، فأمر الخليفة العثماني بحفر 50 نفقًا تحت أسوار قلعة رودس الحصينة، لتزحف من خلالها قوات العمليات الخاصة التابعة لجيش الخلافة الإسلامية العثمانية إلى قلب العدو، ليتم زرع الألغام الأرضية تحت أرض قلعة رودس الحصينة، ليتفاجأ هؤلاء القراصنة بالأرض وهي تتزلزل من تحت أقدامهم، وبعد ذلك صعقوا برؤية القوات الإسلامية الخاصة وهي تخرج لهم من تحت الأرض، فأعلنوا استسلامهم للخليفة سليمان القانوني الذي منحهم الأمان مقابل انسحابهم الكامل من جزيرة رودس، لتتحول تلك الجزيرة الحصينة بعد ذلك إلى قاعدة عسكرية مهمة للبحرية العثمانية لمئات السنين.

-وإلى أين توجه هؤلاء القراصنة بعد ذلك؟

-بعد طردهم على يد القانوني رحل قراصنة القديس يوحنا إلى جزيرة مالطا ليتخذوها مركزًا لهم، وسموا بعدها بـ «فرسان مالطا Knights of Malta»، وتحولت مالطا بعد ذلك إلى مركز جديد تنطلق منه عملياتهم الإرهابية ضد سفن المسلمين والمسيحيين على حد سواء، حتى قرر القائد الفرنسي نابليون بونابرت التخلص من شرهم والقضاء عليهم بشكل نهائي عام 1798م، إلا أنهم وبالرغم

من تشردهم ظلوا منظمين في أوروبا تحت تنظيم سري تحت غطاء الأعمال الخيرية، وقاموا بتأسيس «منظمة فرسان مالطا» التي كونت دولة افتراضية يعترف بها الآن ما يقرب من 100 دولة، وصار لهم ارتباطات قوية مع «فرسان المعبد» «Knights Templar»، الذين لديهم حاليًا تأثير قوي على دوائر صنع القرار الأمريكية، وهناك مؤشرات وتقارير بأن إحدى أكبر شركات المرتزقة في العالم ما هي إلا واجهة جديدة لفرسان مالطة الصليبيين.

-لحظة من فضلك يا نضال! قال عبد العزيز مقاطعًا.

-ماذا هنالك يا صديقي؟

-أعتقد أنني عرفت الآن سر أحد رمزي الخطر الموجودين في لغز بربروسا!

-ماذا تقصد يا عبد العزيز؟!

-الرقم 356 الموجود في إحدى علامتي الخطر أسفل اللغز، لدي أحد الأصدقاء الليبيين الذين يعيشون في مالطا، وعادة ما أتصل به بالهاتف، وإن لم تخني ذاكرتي فإن مقدمة هاتفه تبدأ بالرقم 0356!

-رائع يا عبد العزيز! كيف لم يخطر على بالي أن هذا الرمز يمكن أن يكون مقدمة اتصال دولية؟ ووجود رمز مقدمة هاتف مالطا في مثلث الخطر في لغز بربروسا يشير بلا أدنى شك إلى خطر قراصنة

القديس يوحنا الذين انتقلوا بعد ذلك إلى مالطا.

-هل هذا يعني أن هؤلاء القراصنة يبحثون الآن عن لغز بربروسا؟ تساءل عبد العزيز.

-لست متأكدًا من ذلك يا صديقي، ولكن يبدو أن من وضع اللغز أراد تحذيرنا من خطر اكتشاف لغز بربروسا من قبل إحدى المنظمات التي يتخفى هؤلاء القراصنة تحت لوائها في هذا الزمان، ويبدو أن هذا الخطر حقيقي، نظرًا للتاريخ الدموي لقراصنة القديس يوحنا، ونظرًا لرمزية العبدين القاتلين اللذين تم التنبيه منهما في شعر الزير سالم الذي وضع أعلى هذين الرقمين.

-هذا يبدو منطقيًا جدًّا، ولكن ماذا عن الخطر الثاني؟ فلقد بحثت الآن عبر شبكة الإنترنت عن مقدمة الاتصال الدولية 0420، فوجدت أنها تشير إلى جمهورية التشيك، هل ترى هناك علاقة بين التشيك ولغز بربروسا؟ تساءل عبد العزيز وهو يقلب هاتفه النقال.

-لا يخطر على بالي الآن أي شيء له علاقة بالتشيك، ولكن دعنا نؤجل هذا الأمر الآن، وناولني الكرة التي بين قدميك لو سمحت.

قام عبد العزيز بركل الكرة نحو نضال الذي أمسك بها بيديه قبل أن يرميها إلى داخل مجسم سفينة الأخوين بربروسا.

-ما الذي تفعله يا نضال؟ هل جننت؟!

اقترب نضال من عبد العزيز وقال له بصوت منخفض:

-اسمعني جيدًا يا عبد العزيز، من المرجح أن يكون خيط لغز بربروسا داخل هذه السفينة البرونزية، لذلك سأصعد إلى داخل هذه السفينة، وقم أنت بحراسة المكان وتنبيهي قبل أن يقترب أي شخص إلينا، وعلى أية حال إذا كشفنا أحدهم سيعتقد أنني ذهبت لكي أحضر الكرة التي علقت داخل السفينة.

-ألهذا السبب اشتريت هذه الكرة الهوائية وجعلتني ألعب معك بها طيلة الليل؟

-هذا المبنى له قيمة تاريخية كبيرة يا عبد العزيز، واحترامه يعني احترام لتاريخ بربروسا وتاريخ هذا البلد العظيم، لذلك لا ينبغي لنا أن نحدث به أي ضرر، حتى ولو كان هدفنا نبيلًا من وجهة نظرنا، لذلك فإن الكرة الهوائية الخفيفة ستؤدي المهمة ولن تصيبه بأي ضرر من الداخل، وسأعمل أنا قصارى جهدي للصعود إلى داخل السفينة والخروج منها دون أن أصيبها بأي خدش، والآن افتح عينيك جيدًا وقم بتحذيري عند أي طارئ!

وفي لحظة كلمح البصر، قفز نضال عبر نوافير المجسم التاريخي،

وتسلق المبنى الحجري الذي ثبتت عليه السفينة البرونزية، ليختفي نضال داخلها لدقائق مرت على عبد العزيز كسنوات من شدة القلق، قبل أن يظهر نضال فجأة خلف عبد العزيز وهو يحمل في إحدى يديه الكرة الهوائية الصغيرة، وفي اليد الأخرى صندوقًا نحاسيًّا صغيرًا منقوشًا على سطحه الرقم 104!

***

خزنة الجزري الرقمية

كان نضال وعبد العزيز يسيران بخطوات سريعة باتجاه الفندق الذي يقيمان به وسط مدينة جيجل الجزائرية، بعد أن أخفى نضال في حقيبته الصندوق النحاسي الصغير الذي عثر عليه في السفينة، وما أن وصل الصديقان إلى غرفتهما في الفندق حتى قاما بإخراج الصندوق وتفحصه، ليجدا أنه يحتوي على أربعة أقراص معدنية تحيط بكل منها عدة أرقام على شكل دائرة.



-ما هذا يا 101؟ سأل عبد العزيز وهو يتأمل بالصندوق النحاسي.

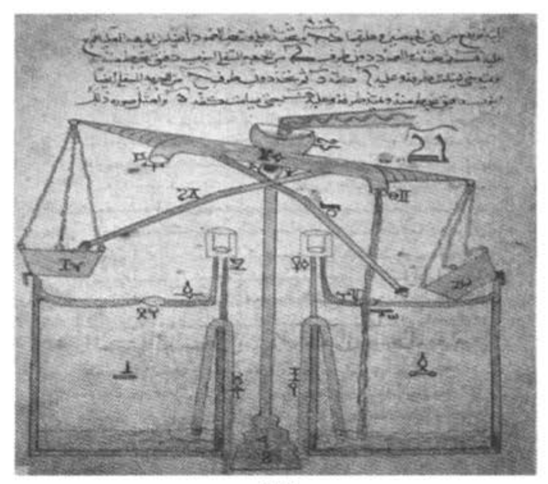
-أعتقد أن هذا الصندوق عبارة عن خزنة رقمية تم تصميمها على نفس المبدأ الهندسي لخزنة الجزري.

-وما هي خزنة الجزري التي تتحدث عنها يا نضال؟

-خزنة الجزري يا صديقي هي أول خزنة رقمية في التاريخ، صنعها العالم المسلم إسماعيل الجزري منذ ما يزيد عن 800 عام.

-غريب! لم أسمع أبدًا باسم هذا العالم المسلم في حياتي!

-للأسف يا عبد العزيز فإن كثيرًا من علماء وعظماء المسلمين لا يكاد يتم ذكرهم في المناهج الدراسية والأعمال الأدبية، على الرغم من مساهماتهم الكبيرة في النهوض بحضارة الأرض عبر التاريخ وارتقاء العنصر البشري بشكل عام.



-وهل كان العالم الجزري من بين العلماء الذين ساهموا في النهوض بالحضارة الإنسانية.

-كثير من الاختراعات والآلات التي تراها من حولك يا عبدالعزيز هي في حقيقة الأمر من بنات أفكار هذا العالم العبقري.

-لقد شوقتني لمعرفة المزيد عن هذا العالم المسلم، هل لك أن تعطيني نبذة عنه يا نضال؟

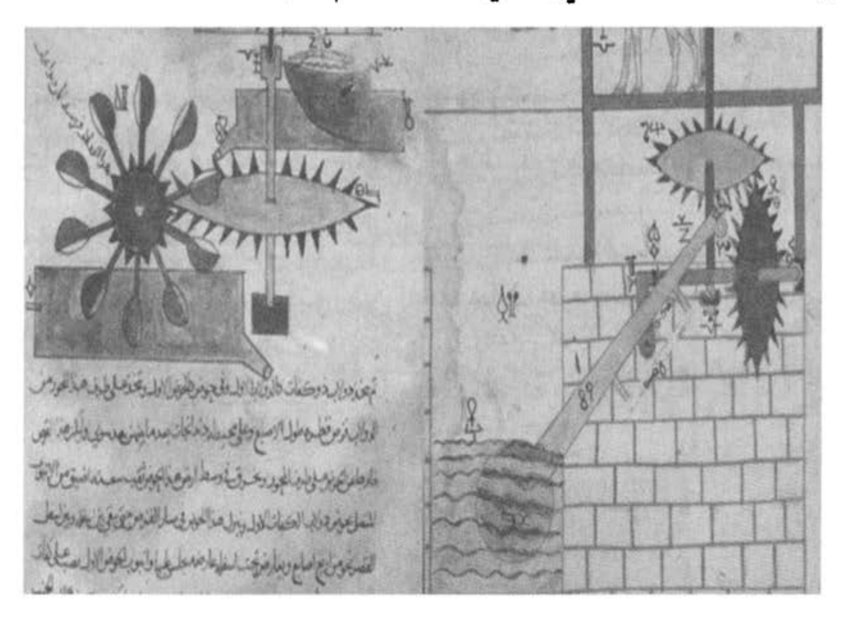
-هو بديع الزمان أَبو العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري، ولد في أرض جزيرة ابن عمر في بلاد الشام، والواقعة الآن في حدود الجمهورية التركية مع سوريا، ومنها جاء لقبه «الجزري»، ظهر في الفترة الزمنية ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ويعتبر المخترع الحقيقي للمحركات الآلية التي تقوم عليها صناعة السيارات والآلات الحديثة، وذلك بعد أن أثبت هذا العالم المسلم بشكل عملي المبدأ الذي أسس له بأنه «يمكن تحويل الحركة الدائرية إلى قوة دافعة إلى الأمام»، فالجزري هو مخترع «عمود الكامات» المعروف بـ«Camshaft»، وهو العمود الذي يدور بضغط مكابس المحرك لتوليد القوة الدافعة للأمام كما يحدث في محرك السيارة، وقام الجزري أيضًا بالتأسيس لعلم صناعة الساعات الحديثة، بعد أن أدخل التروس الدقيقة في صناعة الساعات، كما قام بصناعة

مضخات مياه تعمل بشكل آلي، بعد أن كانت مضخات المياه القديمة تعمل عن طريق استخدام حركة الحيوانات، وقام الجزري أيضًا بالاستفادة من قوة التيار المائي في صنع الحركة وتوليد الطاقة، مما يعتبر أساسًا لصناعة مولدات الطاقة الهيدروليكية الحديثة، حتى المصابيح الكهربائية الحديثة التي تراها، أخذت فكرة تشغيلها من بعض اختراعات هذا العالم المسلم.

-يا إلهي! كنت دائمًا عندما أرى الاختراعات الحديثة من حولي أعتقد أن المسلمين مجرد عالة على الحضارة البشرية!

-هذا غير صحيح على الإطلاق يا عبد العزيز، لا ينبغِ لك أبدًا كمسلم أن تشعر بالدونية أمام الأمم الأخرى، فأنت تنتمي لأمة عظيمة ساهمت بشكل كبير في تطور الحضارة الإنسانية، فكثير من الاختراعات الحديثة الموجودة في زماننا هذا ما هي سوى نتاج طبيعي لجهود علماء المسلمين، وأجدادنا ساهموا بشكل كبير بوصول الإنسان إلى ما وصل إليه، ولقد استفاد علماء الغرب من جهود المسلمين، تمامًا كما استفاد المسلمون من جهود الإغريق والهنود والصينيين وغيرهم من حضارات العالم السابقة، فالعلم له طبيعة تراكمية، ويكفيك فقط أن تعلم أن العالم والفنان والمخترع الإيطالي الشهير «ليوناردو دافنشي» «Leonardo da Vinci» استفاد في

تصميم بعض اختراعاته من جهود العالم المسلم إسماعيل الجزري، وذلك بعد أن قرأ كتابه الذي ترجم للإيطالية في القرن السادس عشر في مطبعة عائلة «مديشي» التي كانت تحكم فلورنسا بإيطاليا.

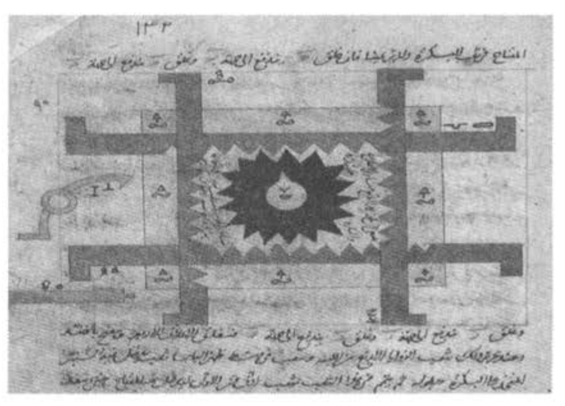


-وهل كان للجزري كتاب محدد يا نضال؟

-لقد جمع الجزري خلاصة اكتشافاته واختراعاته في كتاب دونه على مدار 25 عامًا، وقد أطلق على هذا الكتاب اسم «الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل»، ويعرف اختصارًا بكتاب «الحيل»، وقد قام الجزري بكتابة هذا الكتاب بطريقة سهلة ومفصلة تتيح للمهتمين بعلوم الهندسة والاختراعات الاستفادة بسهولة من

خلال تتبع شروحاته ورسوماته، بعد أن وضع الجزري تفاصيل صناعة كل آلة على حدة، ويعد هذا الكتاب العجيب أروع ما كتب في القرون الوسطى عن الآلات الميكانيكية والهيدروليكية، وقد أبهرت اختراعات الجزري المهندسين على مر العصور، وترجم كتابه إلى لغات الأرض، وتوجد نسخ من كتاب الجزري في عدد من المتاحف العالمية، كمتحف اللوفر في فرنسا، ومتحف الفنون الجميلة في بوسطن، ومكتبة جامعة أوكسفورد.

-يبدو أن لديك الكثير من المعلومات عن هذا العالم المسلم يا 101، أرجو أن تكون من بين تلك المعلومات طريقة فتح هذه الخزنة الرقمية. قال عبد العزيز مبتسمًا.



-هذه الخزنة هي أيضًا من بين ابتكارات الجزري، وهي كما أخبرتك أول خزنة رقمية في تاريخ الأرض، وقد صممها الجزري

بطريقة عبقرية، بحيث يتم فتح الخزنة فقط عن طريق إدارة هذه الأقراص الأربعة على الأرقام الصحيحة في آن واحد، وحتى لو تم إدارة ثلاثة منها بشكل صحيح وكان الرابع على الرقم الخطأ، فإن هذه الخزنة لن تفتح.

-الأمر بسيط يا نضال، قم بإدارة الأقراص على الأرقام الأربعة التي تعقب الرقم 104، وهي الأرقام 105، 106، 107، 108.

-انظر جيدًا يا عبد العزيز على الأرقام المنقوشة حول هذه الأقراص، الأرقام التي ينبغي علينا إدارة سهم الأقراص عليها هي الأرقام التي تقع بين الرقمين 210 و220، وهذه الأرقام ليست من بين الأرقام الموجودة في لغز بربروسا.

-ولكن ما هي هذه الأرقام التي يمكن أن تفتح هذه الخزنة العجيبة؟! تساءل عبد العزيز.

صمت نضال للحظة وهو يتأمل في الرقم 104 الظاهر على سقف الصندوق الخشبي، ثم قال:

-أعتقد أن الأمر له علاقة بمتتالية فيبوناتشي التي عثرنا عليها في فرنسا تحت الرقم 104.

-هل علينا استخدام الأرقام التي وردت في متتالية فيبوناتشي؟

-ليس ذلك بالتحديد ما أقصده يا عبد العزيز، الأرقام السرية يجب أن تكون من 210 إلى 220، لذلك أعتقد أن علينا الدمج بين الأرقام الثلاثية التي نملكها في لغز بربروسا وبين مبدأ متتالية فيبوناتشي لكي نحصل على أرقام جديدة تمكننا من فتح هذه الخزنة.

-لم أفهم شيئًا مما تقول!

-عبد العزيز، قم من فضلك بإدارة أقراص الخزنة على الأرقام التي سأذكرها لك.

حمل عبد العزيز خزنة الجزري بين يديه، وبدأ بإدارة الأقراص المعدنية على الأرقام التي أخذ نضال يذكرها.

-الرقم الأول ينبغي أن يكون مجموع أول رقمين يعقبان الرقم 104، وهما الرقمان 105 و106، لذلك أدر يا عبد العزيز لو سمحت القرص الأول على الرقم 211.

الرقم الثاني يا صديقي ينبغي أن يكون مجموع الرقمين 106 و107، وهو الرقم 213. أما الرقم الثالث فهو مجموع 107 و108 أي الرقم 215، أما الرقم الرابع فهو حاصل جمع الرقمين 108 و109، لذلك أدر يا صديقي القرص الرابع من فضلك على الرقم 217.

وما أن دار عبد العزيز القرص الرابع والأخير على الرقم الذي حدده نضال، حتى فتح باب الخزنة مباشرة، فظهرت علامات الفرح على وجهيهما، وبعد ذلك تفحصَا الخزنة من الداخل، فوجدا فيها بطاقة إليكترونية مرسوم عليها شعار بدَا واضحًا أنه شعار البريد التونسي، وكانت هذه البطاقة تحمل الرقم 110!

***

-ما هذه البطاقة؟ تساءل عبد العزيز.

-هذه يا صديقي بطاقة إليكترونية لصندوق بريدي مؤجر يتبع البريد التونسي. قال نضال وهو يقلب البطاقة ويتفحصها.

-صندوق بريدي مؤجر!



-هناك خدمات تقدمها بعض دوائر البريد في العالم للأشخاص الذين لا يملكون عنوانًا بريديًا أو سكنًا ثابتًا، هؤلاء الأشخاص

يمكنهم استئجار صناديق بريدية عند دائرة البريد يستقبلون من خلالها بريدهم المرسل إليهم، وهذه البطاقة الإليكترونية هي على الأرجح مفتاح إليكتروني لأحد صناديق البريد التابعة للبريد التونسي، قام واضع لغز بربروسا باستئجاره، ليضع الخيط القادم من لغزه داخله.

-ولكن البطاقة لا تحتوي على أي عنوان، هل سنبحث في كل صناديق البريد التابعة للبريد التونسي؟!

-بالتأكيد لا يا عبد العزيز، يبدو أن البطاقة شغلتك عن ملاحظة ما نقش على سقف الخزنة الداخلي.

تناول عبد العزيز الخزنة من جديد، وأخذ يتأمل نقشًا منحوتًا على سقفها من الداخل، كان النقش مكونًا من سيف يحتوي على الحرف «G»، ومن أسفل منه مثلث رسمت داخله جمجمة بشرية.

-ما هذا يا 101؟! ماذا يعني هذا السيف الذي يحتوي على الحرف «G»؟

-هذا الرمز يا صديقي هو رمز لقائد إيطالي مسلم كان أحد رجال القائد بربروسا، هذا القائد الإيطالي كان يلقب بـ «السيف القاطع»، أما اسمه الحقيقي فكان يبدأ بالحرف «G».

-قائد إيطالي؟! ألهذا السبب وضع صاحب لغز بربروسا متتالية العالم الإيطالي فيبوناتشي كمفتاح للوصول إلى هوية هذا القائد؟

-لم أنتبه إلى هذه الرمزية، ولكن تحليلك منطقي يا عبد العزيز، يبدو أن واضع لغز بربروسا ربط خيوط لغزه بعضها ببعض بطريقة متقنة للغاية.

-ولكن من يكون هذا القائد الإيطالي يا نضال؟

-هو أحد القادة الذين حاربوا تحت قيادة عامة من القائد خير الدين بربروسا، قبل أن يصبح واليًا للجزائر وأميرًا لولايات شمال أفريقيا، ويصبح من بعدها قائدًا عامًّا للبحرية الإسلامية العثمانية، إنه رمز لأحد أعظم القادة البحريين في التاريخ، القائد الإيطالي المسلم الذي أعد خطة لاسترجاع الأندلس بعد عشرات السنوات من سقوطها، إننا نتحدث عن ابن إقليم كلابريا الإيطالي الذي لقب بـ«السيف القاطع» لشجاعته، القائد الإيطالي المسلم «جيوفاني ديونيدجي غاليني» «Giovanni Dionig Galeni»، والذي أصبح اسمه بعد إسلامه «أولوج علي»، وهو نفس القائد الذي ذكره الروائي الإسباني الأشهر «ميجيل دي سرفانتس» باسم «أوشالي» «Uchali»، وذلك في روايته العالمية الشهيرة «دون كيشوت»، في حين أطلق عليه الخليفة العثماني «سليم الثاني بن سليمان القانوني»

اسم «قيليج علي» أي «السيف القاطع»، وذلك تقديرًا من الخليفة لشجاعته.

-هذه أول مرة في حياتي أسمع باسم هذا القائد الإيطالي المسلم!

-للأسف يا عبد العزيز فإننا جميعًا مقصرون في معرفة تاريخ أبطالنا الذين غيروا مجرى التاريخ، ففي حين أن الأمم الأخرى تحترم تاريخ أبطالها، وتنشر بين أبنائها منذ نعومة أظافرهم قصصهم لكي يزرعوا في نفوسهم روح الثقة والأمل، وبأنهم أحفاد هؤلاء العظماء، نقوم نحن بتدريس أبنائنا قصصًا خرافية لا أصل لها ولا مغزى أخلاقي، مثل قصص علاء الدين وعلي بابا وغيرها من القصص التي يتربى عليها أطفالنا على انتظار تحقيق المعجزات من خلال العثور على مصباح علاء الدين أو العثور على أموال مسروقة والاستيلاء عليها مثل ما قام به علي بابا، يكفيك فقط أن تعلم أن هذا القائد الإيطالي المسلم الذي لم نسمع نحن المسلمون باسمه، يقدره المسيحيون من سكان مدينته الإيطالية التي ولد بها، فإذا ما سافرت يومًا إلى مدينة تقع في جنوب إيطاليا في إقليم «كالابريا» الإيطالي اسمها «ليكاستيلا» «Le Castella»، ستجد هناك تمثالًا مصنوعًا لهذا القائد الإيطالي المسلم الذي يفتخر به أبناء هذه المدينة.



-وهل خطط هذا القائد الإيطالي المسلم بالفعل لاستعادة الأندلس يا نضال؟!

-في منتصف القرن السادس عشر، ومع سطوع نجم القائد الإيطالي قليج علي نتيجة لانتصاراته العديدة في البحر الأبيض المتوسط، أصدر الخليفة العثماني سليم الثاني بن سليمان القانوني مرسومًا سلطانيًّا بتعيينه أميرًا على الجزائر، وكانت الجزائر وقتها تعتبر القاعدة الأولى للجهاد البحري الإسلامي في دولة الخلافة العثمانية، وبعد تولي القائد جيوفاني لمنصبه الجديد وضع نصب عينيه تحرير

بقايا جيوب الغزاة الصليبيين في الشمال الإفريقي، ومع ازدياد عدد اللاجئين الأندلسيين من المسلمين واليهود الذين تم إنقاذهم من محاكم التفتيش في الأندلس، خطط هذا القائد الإيطالي المسلم لإعادة هؤلاء اللاجئين إلى بلادهم التي شردوا منها، فوضع خطة محكمة لاسترداد الأندلس، وقد زاد من حماسه على تنفيذ هذه الخطة ما كان يسمعه في الجزائر من اللاجئين الأوروبيين سكان الأندلس الأصليين من المسلمين واليهود عن المجازر وأدوات التعذيب التي كانوا يتعرضون لها في أقبية محاكم التفتيش الكاثوليكية، وبالفعل استطاع القائد لإيطالي جيوفاني أو كما كان يسمى قليج علي إرسال رجال المخابرات الإسلامية العثمانية إلى شاطئ الأندلس للتواصل مع الثوار هناك وتحديد ساعة الصفر للبدء بالثورة الأندلسية الكبرى ضد ملك قشتالة.

-لحظة من فضلك يا نضال... عن أي ثورة تتحدث؟!

-الثورة التي قام بها الموريسكيون من سكان الأندلس الأصليون يا عبد العزيز، والتي تعرف بالتاريخ بثورة «جبال البشرات»، ففي عام 1567م أصدر الملك الإسباني فيليب الثاني Felipe II مرسومًا بإنهاء كل أشكال التسامح مع الثقافة الموريسكية، فحظر استخدام اللغتين العربية والأمازيغية، ومنع ارتداء الملابس الموريسكية، وأجبر

الموريسكيين على التسمي بأسماء مسيحية، وأمر بتدمير كل الكتب والوثائق المدونة باللغة العربية، وبتعليم جميع الأطفال الموريسكيين على أيدي قساوسة كاثوليك، وتحت وطأة القمع وسياسة الإرهاب التي كانت تمارس على الأبرياء الموريسكيين، اندلعت ثورة مسلحة في المناطق التي كانت في الماضي جزءًا من مملكة غرناطة، وفي ليلة عيد الميلاد من سنة 1568م اجتمع قادة الموريسكيين سرًّا، وتبرأوا من المسيحية، وبايعوا أميرًا موريسكيًا اسمه «فرناندو دو قرطبة وبالور» «Fernando de Córdoba y Válor»، هذا الأمير كان يعلم أنه سليل بني أمية ملوك الأندلس في عصرها الذهبي، وكان الأندلسيون وما زالوا يكنون احترامًا وتقديرًا خاصين لتاريخ هذه العائلة القرشية التي شهدت الأندلس في عهدها أزهى عصور الحضارة والتقدم العلمي والتسامح الديني، فغير فرناندو اسمه إلى اسم إسلامي، فاختار اسم محمد بن أمية، ليقود هذا الفارس الأندلسي أنبل انتفاضة عرفتها الأندلس بعد سقوطها، سميت في التاريخ بـ«انتفاضة جبال البشرات» بالإسبانية «Rebelión de las Alpujarras»، واستطاع القائد ابن أمية توحيد صفوف المورسكيين، وتكوين جيش شعبي قوامه من الثوار المدنيين، واتخذت الانتفاضة التي قادها ابن أمية شكل حرب عصابات ضد القوات

القشتالية في جبال البشرات، وتزايد عدد الثوار باضطراد من أربعة آلاف رجل سنة 1569م إلى 25 ألف رجل في العام التالي، وقد تندهش يا عبد العزيز حين تعلم أن القوات الشعبية الموريسكية للقائد محمد بن أمية الأموي استطاعت أن تحرر مدينة «ألمرية» ومدينة «مالقا» من أيدي ملك قشتالة.

-وماذا كان دور العثمانيين والقائد الإيطالي قليج علي في هذه الثورة الأندلسية؟

-هذه الثورة الأندلسية الكبرى يا عبد العزيز ما كانت لتتم لولا أن سخر الله للمسلمين بالأندلس الدولة العثمانية التي دعمتهم بالسلاح والجنود، وقد تولى القائد الإيطالي قليج علي باشا قيادة المهمة السرية لدعم ثوار الأندلس بعد أن أمره الخليفة العثماني سليم الثاني رحمه الله بأن لا يدخر أي جهد لمساندة الأبرياء الأندلسيين الذين طالت محنتهم تحت وطأة محاكم التفتيش المرعبة، فقام قليج علي بإرسال أسطول عثماني مكون من 40 سفينة إلى ميناء «ألمرية»، وتمكن بالفعل من إيصال قدر كبير من العتاد والمؤن إلى الثوار المسلمين في جبال الأندلس، وكانت خطة القائد قليج علي تقضي بتشتيت قوة العدو في مناطق مختلفة لتخفيف الضغط على الثوار المسلمين في الأندلس، لذلك قام هذا القائد الإيطالي بتعبئة 14 ألف جندي عثماني و60 ألف فارس جزائري

ووجههم إلى مدينة «مستغنام»، وذلك للقيام بهجوم منسق ضد القاعدة الإسبانية في مدينة «وهران» المحتلة، وفي نفس الوقت جهز سفن الخلافة العثمانية للإبحار من الجزائر إلى الشاطئ الأندلسي، وبالفعل استطاع قليج علي القيام بعملية إنزال ناجحة على السواحل الأندلسية، واستطاع مئات المتسبين للقوات العثمانية الخاصة التوغل في أرض الأندلس والانضمام إلى الثوار الأندلسيين، وبعد ذلك أخذ القائد الإيطالي قليج علي يعد العدة للإبحار بنفسه على رأس قوات ضخمة إلى الأندلس لمساعدة المدنيين من سكان الأندلس في ثورتهم، وقبل أن يبحر إلى الأندلس أرسل إليه الخليفة «سليم الثاني» رسالة عاجلة يستدعيه فيها على وجه السرعة للمشاركة في معركة بحرية كبرى كان بابا الفاتيكان يعد لها بنفسه، لذلك تخلى قليج علي عن فكرة الإبحار نحو الغرب لاستعادة الأندلس، وأبحر بدلًا عن ذلك نحو الشرق للمشاركة مع جيش المسلمين في معركة كبرى ضد تحالف صليبي ضخم أشرف البابا بنفسه على تكوينه، فعقد قادة المسلمين اجتماعًا لبحث الخطة لهذه المعركة، وقد كان قائد الأسطول الإسلامي في تلك المعركة «مؤذن علي باشا» قائدًا بريًّا في الأساس، فوضع خطة لا تناسب هذه المعركة البحرية، وأثناء اجتماع القادة المسلمين في مجلس الحرب كان رأي القادة البحريين في الأسطول وعلى رأسهم القائد الإيطالي قليج علي باشا هو

عدم الدخول في هذه المعركة إلا بعد أن تقصف مدافع القلاع العثمانية سفن العدو، وهو ما يعطي فرصة كبيرة لسفن الأسطول العثماني لتتبع ومطاردة الأسطول الصليبي، أو بمعنى آخر إنهاك الأسطول الصليبي قبل بدء المعركة ثم الانقضاض عليه بعد ذلك، ولكن مؤذن علي باشا لم يوافق على تغيير خطته، ولما رأى قادة البحر في الأسطول العثماني ذلك الإصرار نصحوه بأن يخرج إلى القتال في البحار المفتوحة لأن ذلك يعطي الفرصة للسفن العثمانية بأن تقوم بالمناورة وأن تستخدم مدفعيتها القوية بكفاءة عالية ضد الأسطول الصليبي، إلا أن هذا الاقتراح قوبل أيضًا بالرفض، وفي ظل هذا الموقف العصيب، أدرك القائد قليج علي باشا أن هناك كارثة يبدو شبحها بالأفق، فوقف أمام القادة وأخذ يصيح: «أين الذين حاربوا مع خير الدين باشا وطرغود باشا، لماذا لا يتكلمون؟! هل يمكن أن تكون حرب بحرية في ساحل؟!»، ورغم صراخ هذا القائد الإيطالي واعتراضه، فإن القرار كان قد اتخذ، فقرر قليج علي باشا المشاركة بالحرب رغم اعتراضه على خطتها، وأسندت له مهمة قيادة الجناح الأيسر للأسطول الإسلامي، وفي 7 أكتوبر من عام 1571م، التقت أساطيل تحالف صليبي مكون من 10 دول كاثوليكية مع أسطول دولة الخلافة الإسلامية العثمانية في معركة «ليبانتو البحرية»، ونتيجة للخطة الفاشلة التي وضعها قائد الأسطول العثماني، انتهت هذه المعركة

بهزيمة كبيرة للعثمانيين، وقتل قائد المسلمين مؤذن علي باشا رحمه الله، وتم الاستيلاء على رايته وإرسالها إلى الفاتيكان، وبقيت راية مؤذن علي باشا موجودة في الفاتيكان حتى أعادها البابا «بولس السادس» إلى تركيا عام 1965م كبادرة صداقة.

-وماذا حل بالقائد قليج علي في تلك المعركة؟ تساءل عبدالعزيز.

-بالرغم من خسارة المسلمين في تلك المعركة، فإن القائد قليج علي قاد الجناح الأيسر للأسطول الإسلامي بمهارة كبيرة، واستطاع الصمود أمام سفن العدو، ولم يخسر في تلك المعركة أيًّا من سفنه البالغة 42 سفينة، بل على العكس، تمكن هذا القائد الإيطالي المسلم في المعركة من تدمير كتيبة قراصنة القديس يوحنا تدميرًا كاملًا والاستيلاء على رايتهم، وبعد أن رأى مقتل قادة المسلمين في تلك المعركة، قاد بنفسه ما تبقى من سفن المسلمين، واستطاع الفلات من قبضة الحصار الذي فرضه العدو حول تلك السفن.

-وهل انتهت قوة المسلمين في البحر الأبيض المتوسط بعد تلك الهزيمة التي لحقت بهم؟

-على العكس من ذلك يا عبد العزيز، فقد كانت تلك الهزيمة مقدمة لنهوض جديد للقوة الإسلامية البحرية، فرغم ذلك الانتصار

النسبي للتحالف الصليبي في معركة ليبانتو البحرية، فإن قادة المسلمين لم يسلموا الراية، وكانت أولى خطوات النهوض هي إعادة روح الثقة في نفوس المسلمين، وهذا بالضبط ما قام به القائد قليج علي باشا، فقد قرر بعد تلك الهزيمة دخول عاصمة الخلافة إسطنبول على رأس أسطول كبير يتألف من 87 سفينة حربية، فارتفع التكبير من السفن ومن الشعب المسلم الذي سمع ببطولات هذا القائد الإيطالي الذي استطاع النجاة بالمسلمين، وتقدم خليفة المسلمين سليم الثاني بن سليمان القانوني بنفسه لاستقباله على سواحل إسطنبول، وهذا اليوم هو اليوم الذي بدل فيه الخليفة سليم الثاني اسم «أولوج علي» إلى «قليج علي» ويعني السيف القاطع، وأصدر الخليفة مرسومًا سلطانيًّا بتعيينه قائدًا عامًّا للأسطول الإسلامي، لتبدأ منذ تلك اللحظة عملية إعادة بناء الأسطول الإسلامي من جديد، فقام سليم الثاني بتحويل حديقته السلطانية إلى مركز لبناء السفن، وسخر كل أموال الدولة لبناء قوة ردع إسلامية بحرية تفوق سابقتها، واستطاع العثمانيون بعد أقل من عام واحد على تلك الهزيمة بناء أسطول بحري جديد كان أكثر قوة وعددًا من الأسطول الذي تحطم في معركة ليبانتو، فأبحر القائد قليج علي بعد ذلك بهذا

الأسطول ليحقق انتصارات باهرة على سفن الأعداء، جعلت من البحرية العثمانية القوة البحرية الأولى في البحر الأبيض المتوسط.

-ولكن ماذا حل بالثوار الأندلسيين في تلك الفترة؟ تساءل عبدالعزيز.

-للأسف، نتيجة لانشغال العثمانيين في صد خطر التحالف الصليبي في الشرق الإسلامي في تلك الفترة، استفرد الإسبان بالأندلسيين، فبعد أن أحس الملك الإسباني بخطر هذه الثورة، قام بالاستعانة بحلفائه الكاثوليك في أوروبا، وتمكن من قمع هذه الثورة بعد أن زرع الجواسيس بين الثوار، فقتل قادة الثوار، وأمر ملك إسبانيا بتهجير عشرات الآلاف من الموريسكيين في أماكن متفرقة في إسبانيا لدمجهم في المجتمع المسيحي، وتم تدمير عشرات القرى الأندلسية بشكل كامل لضمان عدم عودة سكانها إليها من جديد، وتم توطين عائلات قشتالية كاثوليكية من الشمال الإسباني في مدن الأندلسيين التي هجروا منها، وهاجر آلاف الموريسكيين إلى مناطق مختلفة في العالم هربًا من القمع الكاثوليكي في إسبانيا، فتمكن بعضهم من الوصول إلى الأمريكيتين، في حين استطاع البعض الالتحاق بمناطق المسلمين في شمال أفريقيا، خاصة في الجزائر والمغرب، ولا زالت كثير من العائلات الموريسكية الأندلسية في

شمال أفريقيا تحتفظ بمفاتيح ديارهم التي هجروا منها في الأندلس.

-لدينا في شمال المغرب يا نضال مناطق كاملة غالبيتها من الموريسكيين، وكما أخبرتك فإن جدتي من أبي موريسكية، وأذكر دائمًا كيف كانت رحمها الله تنشد لنا قبل النوم بعض الأناشيد الأندلسية الشجية التي غالبًا ما كانت تدور حول موضوع الحنين إلى الديار وفراق الأحباب. قال عبد العزيز بعينين دامعتين.

-أفهم إحساسك جيدًا يا صديقي، فربما نحن الفلسطينيون أكثر الناس إحساسًا بالمعاناة التي مر بها الموريسكيون، فهذه الأناشيد الشجية التي كنت تسمعها من جدتك الموريسكية هي نفسها الأناشيد التي كنت أسمعها أنا من جدتي التي هجرت من قريتها في فلسطين بعد نكبة عام 1948م، نفس الألم، ونفس الحنين إلى الديار، ونفس الإحساس بالظلم.

-ولكن ما علاقة هذا كله بتونس يا نضال؟ كيف لنا أن نعرف المدينة التي يقع بها مكتب البريد الذي يحتوي على الصندوق البريدي الذي نملك بطاقته الإليكترونية؟

-الأمر يا عبد العزيز متعلق بمدينة تونسية محددة يشير إليها الرمز الموجود أسفل السيف.

-أتقصد علامة الخطر التي تحتوي على مثلث وجمجمة بشرية في منتصفه؟

-ومن قال لك يا صديقي أن هذه العلامة هي علامة الخطر؟

-ولكن يا نضال هذه العلامة غالبًا ما توجد على الأسلاك الكهربائية أو بعض المبيدات الحشرية كعلامة خطر.

-هذا صحيح يا عبد العزيز، ولكن كما أخبرتك من قبل، الرمز الواحد قد يكون له أكثر من معنى، هذا المثلث الذي تشاهده ما هو إلا رمز لأحد الأبراج التاريخية الشهيرة التي اتخذت شكل الهرم، أما الجمجمة التي بداخله فهي لا ترمز إلى شيء آخر، بل هي حقيقة في حد ذاتها!

-ماذا تقصد يا نضال؟ من فضلك اشرح لي أكثر!

-سأشرح لك كل شيء لاحقًا إن شاء الله، فمعنا الكثير من الوقت لكي نصل إلى جزيرة جربة التونسية.

-جزيرة جربة! ولماذا جزيرة جربة التونسية بالتحديد؟!

-هذه الجزيرة يا عبد العزيز وقعت على سواحلها معركة من أشهر المعارك البحرية في القرون الوسطى، وقد كان القائد الإيطالي قليج علي من قادة تلك المعركة، وقد تمكنت بحرية الخلافة الإسلامية العثمانية في هذه المعركة من صد الغزاة الصليبيين الذين كونوا تحالفًا

جرارًا من أساطيل 6 دول كاثوليكية، وبعد انتصار القوات العثمانية في هذه المعركة، أمر قائد العثمانيين بجمع جماجم الغزاة التي تناثرت على أرض تلك المعركة، وتم رص تلك الجماجم فوق بعضها البعض لتكون برجًا يشرف على ساحل جزيرة جربة، هذا البرج عرف في التاريخ بـ «برج الجماجم»!

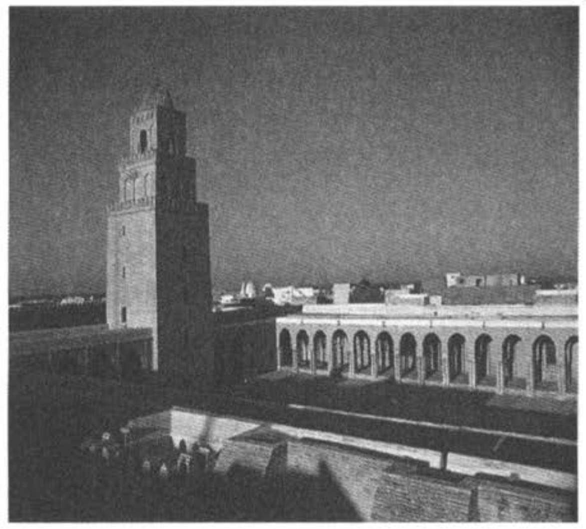
***

تونس

منارة العلم ومركز العلماء

في طريقهما إلى جزيرة جربة، توقف نضال وعبد العزيز بالسيارة التي استأجراها من العاصمة تونس للصلاة في جامع عقبة بن نافع في مدينة القيروان، وبعد أن صلى الصديقان صلاتي الظهر والعصر جمعًا وقصرًا، أخذا يتنقلان بين أعمدة هذا الجامع الكبير.

-هل شعرت بما شعرت به أثناء صلاتنا في هذا المسجد يا عبدالعزيز؟



-لقد كان شعورًا غريبًا بالفعل يا نضال، فقد كنت أشعر أثناء صلاتي بخشوع عجيب غاب عني منذ زمن.

-بالفعل يا صديقي، فهذا الجامع هو أول جامع في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي، ومن حجراته انتشر الإسلام في ربوع أفريقيا وبلاد المغرب وبلاد الأندلس، فعندما أسس القائد عقبة بن نافع مدينة القيروان وجعلها عاصمة للمسلمين في شمال أفريقيا، حرص على بناء مسجد تكون قبلته على أدق وجه، وبالفعل عندما عزم عقبة على وضع محراب هذا الجامع حرص كثيرًا في تحديد اتجاه القبلة، وراقب طلوع الشمس وغروبها عدة أيام، وأخبره أصحابه أن أهل المغرب سيضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد، لذلك فعليه أن يجهد نفسه في تقويمه، وفعلًا اجتهد عقبة بن نافع رحمه الله، وكان موفقًا في اجتهاده، وأصبح محراب القيروان أسوة وقدوة لبقية مساجد المغرب الإسلامي، حتى إن مؤرخ قضاة الأندلس الشهير محمد بن حارث الخشني بعد أن قدم من القيروان إلى مدينة سبتة المغربية، لاحظ انحراف قبلة مسجدها، فقام بتعديل المسجد وتصويبه ليتوافق مع قبلة مسجد عقبة.

-إنه مسجد كبير جدًّا يا نضال، ذكرني اتساعه بمسجد الحسن الثاني في مدينة الدار البيضاء المغربية.

-هذا صحيح يا عبد العزيز، فلقد كان مسجد عقبة بن نافع أكبر مساجد بلاد المغرب حتى أواخر القرن الماضي، تاريخ بناء مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء، وسيتحول الآن إلى المركز الثالث بعد بناء الجزائر لأكبر جامع في أفريقيا وثالث أكبر جامع في الأرض بعد الحرمين الشريفين، إلا أن جامع عقبة بن نافع سيبقى خالدًا في تاريخ البشرية، فلقد كان هذا الجامع يا عبد العزيز المركز العلمي الأول في بلاد المغرب والأندلس، ومنه انطلقت قوافل العلماء لنشر العلم في أنحاء الأندلس وأفريقيا، ومن هنا انتشر المذهب المالكي في جميع أنحاء الأرض.

-بالمناسبة يا نضال، ما علاقة تونس بلغز بربروسا؟

-تونس يا عبد العزيز، وبالتحديد جزيرة جربة التونسية، كانت القاعدة الأولى للأخوين بربروسا قبل أن تتحول الجزائر إلى القاعدة المركزية لهما.

-ليس هذا ما أقصده يا نضال، وإنما أقصد ما هو الرمز الذي أشار فيه واضع لغز بربروسا إلى تونس من خلال راية بربروسا.

-إنه رمز أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة. أجاب نضال.

-وما العلاقة التي تربط أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة بتونس.

-تونس يا عبد العزيز فتحت في زمن الخلفاء الراشدين، وقد

كانت آخر مكان في شمال أفريقيا يحرره المسلمون في زمنهم من قبضة الاحتلال الروماني، ففي عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﵁ تقدم المسلمون لتحرير تونس تحت قيادة عدد كبير من أصحاب رسول الله محمد ﷺ، وكان على رأسهم القادة العبادلة: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنهم جميعًا، فتمكن المسلمون من هزيمة قائد الاحتلال الروماني الذي نصب نفسه ملكًا على سكان شمال أفريقيا، وهو الملك الروماني «جريجوري البطريرك» « Gregory the Patrician»، وتمكن المسلمون بقيادة الصحابة من هزيمة هذا الملك الروماني في «معركة سُبيطلة» عام 647م، وبعد تحرير تونس في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﵁، توقفت عمليات التحرير الإسلامية في شمال إفريقيا نتيجة لأحداث الفتنة، قبل أن يعود المسلمون من جديد في زمن الدولة الأموية لاستكمال عملية تحرير بلاد المغرب من الاحتلال الروماني الظالم، ليتحول بعد ذلك سكان شمال أفريقيا الأصليون من الأمازيغ إلى قادة وعلماء عظام شاركوا بشكل كبير وفعال في نهضة وتقدم الحضارة الإسلامية عبر جميع مراحل التاريخ.

وبعد أن خرج نضال وعبد العزيز من جامع عقبة بن نافع، توجها إلى أحد المطاعم الشعبية في القيروان، فتناولا طبقًا تونسيًّا شهيًّا لم يعرفَا اسمه في البداية، ولكن عاملًا بسيطًا كان يتناول طعامه بجانبهما أخبرهما بأن هذا الطبق يسمى «اللبلابي»، وأضاف هذا العامل أن العثمانيين هم من أدخلوا هذا الطبق إلى تونس ليكون وجبة أساسية للجنود المرابطين على جبهات القتال، وذلك لما تمنحه هذه الوجبة من سعرات حرارية عالية تساعد الجنود على تحمل البرد ومشاق السفر، وبعد أن عرف من نضال وعبد العزيز أنهما من فلسطين والمغرب، سلم العامل عليهما بحرارة قبل أن يغادر المطعم متوجهًا إلى عمله، وعندما انتهى نضال وعبد العزيز من تناول طعامهما، ذهبا لدفع الحساب، فاكتشفا أن العامل التونسي البسيط الذي كان يجاورهما قام بدفع الحساب عنهما قبل خروجه من المطعم، فحاولا البحث عنه لشكره، ولكن دون جدوى، فدعَوَا له بظهر الغيب بالخير والبركة، وركبا سيارتهما من جديد، وأكملا طريقهما متجهين نحو جزيرة جربة التونسية.



عند برج الجماجم

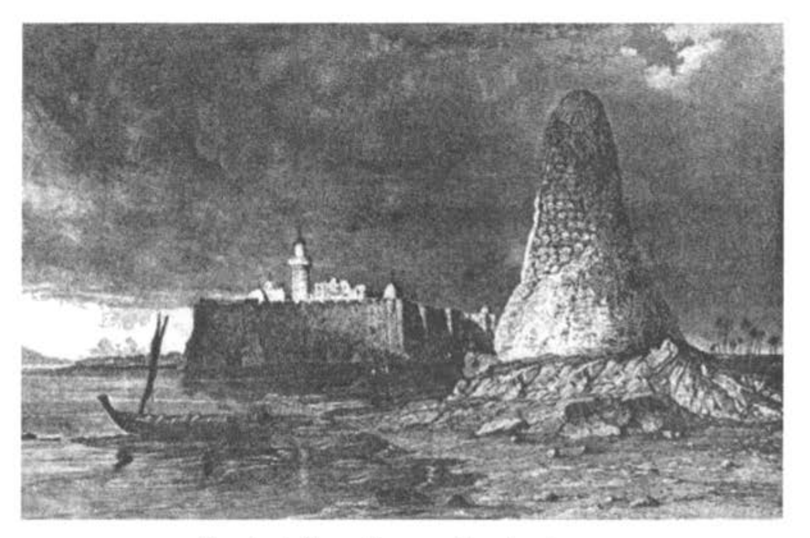
وصل نضال وعبد العزيز إلى جزيرة جربة التونسية قبل مغيب الشمس بقليل، فتوجها مباشرة إلى المدينة التي يوجد بها برج الجماجم، وهي مدينة تقع إلى شمال جزيرة جربة وتسمى «حُومَة السُوق»، وهناك بحثا عن مركز البريد التونسي التابع لتلك المدينة، فوجداه وقد أقفل قبل دقائق معدودة من وصولهما إليه، فأجلا مهمتهما إلى صباح اليوم التالي، وأوقفا سيارتهما بأحد المواقف العامة للمدينة وتوجها منها مشيًا إلى ساحل البحر، وأثناء مشيهما قبالة الساحل توقف نضال فجأة أمام نصب تذكاري حجري.

-هذا هو برج الجماجم يا عبد العزيز.

-كنت أعتقد أن هذا البرج مكون من الجماجم!

-اعتقادك في محله يا صديقي، فهذا البرج تم تشييده بالأساس من جماجم الغزاة، واستمر كذلك لما يقرب من 3 قرون، حتى تم استبداله في منتصف القرن التاسع عشر بهذا البناء الحجري في عهد باي تونس «أحمد باي الأول».

-وما حكاية برج الجماجم يا نضال؟



برج الجماجم في جزيرة جربة التونسية.

-حكاية هذا البرج يا عبد العزيز إلى عام 1560م، في ذلك العام أعلن بابا الفاتيكان «بيوس الرابع» النفير العام في أرجاء أوروبا الكاثوليكية بهدف استعادة مدن شمال أفريقيا التي حررها العثمانيون، فتجمعت للبابا أساطيل صليبية تابعة لـ 6 دول أوروبية هي: الإمبراطورية الإسبانية، جمهورية جنوة، جمهورية البندقية، الدولة البابوية، دوقية سافوي، وطبعًا انضم إليهم قراصنة القديس يوحنا، وعسكر الغزاة الصليبيون في هذا المكان الذي نقف عليه الآن في جزيرة جربة التونسية، فتقدم أسطول الخلافة الإسلامية العثمانية إلى جربة

لمواجهة الغزاة الصليبيين، وكان الأسطول الإسلامي بقيادة عامة من قائدين مسلمين عظيمين، أحدهما كرواتي، والآخر يوناني، وكان القائد الإيطالي قليج علي يحارب تحت إمرة القائد اليوناني، وقد كان لتحركات قليج علي الأثر العظيم في انتصار المسلمين الكبير في هذه المعركة المصيرية، وبعد أن تم سحق هذا التحالف الصليبي الكبير، جمعت جماجم الغزاة المتناثرة في أرض المعركة، ورُصَّت فوق بعضها لتكون برجًا ضخمًا من الجماجم عرف في التاريخ ببرج الجماجم، في نفس هذا المكان الذي نتواجد به الآن على ساحل جزيرة جربة التونسية.

-ومن يكون هذان القائدان الأوروبيان اللذان قادا جيش المسلمين في هذه المعركة؟ سأل عبد العزيز.

-القائد الكرواتي كان اسمه «بيالي باشا»، وقد كان القائد العام للبحرية الإسلامية، أما القائد اليوناني فاسمه «طرغود باشا»، وكان حاكمًا لولاية طرابلس، إحدى ولايات الشمال الأفريقي الثلاث حسب التقسيم العثماني.

-هل هذا القائد اليوناني هو نفسه القائد الذي ذكرت لي بالسابق أن قليج علي كان ينادي باسمه قبل معركة ليبانتو عند قوله: «أين الذين حاربوا مع خير الدين باشا وطرغود باشا، لماذا لا يتكلمون؟!»، أما أن قليج علي كان يقصد شخصًا آخر؟

-هو نفسه يا عبد العزيز، لقد كان القائد الإيطالي قليج علي أحد القادة الذين يحاربون ضمن سفن هذا القائد اليوناني، وكانت تربطه به علاقة قوية للغاية.

-وما حكاية هذا القائد اليوناني المسلم يا نضال؟

-اسمه في المصادر التركية طرغود ريس، أو تورغوت ريس «Turgut Reis»، وفي بعض المصادر العربية الريس درغوت أو درغوث، ولد عام 1485م في قرية في أقصى جنوب غرب تركيا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وسُميت هذه القرية عام 1972م باسم «طرغود ريس» «Turgutreis» تشريفًا لذكرى هذا القائد العثماني، كان طرغود يونانيًّا من أصول مسيحية أرثذوكسية، بدأت موهبته تبرز منذ أن كان عمره 12 سنة، فلفت انتباه السلطان قرقرود (الأخ الأكبر للسلطان سليم الأول)، فتربى طرغود تربية بحرية في أساطيل الدولة العثمانية الإسلامية، فاشتغل أولًا ملاحًا بسيطًا، ثم مدفعيًّا في سلاح المدفعية البحرية، وفي عهد الخليفة سليم الأول انتقل إلى مصر، وفي مدينة الإسكندرية المصرية انضم طرغود لأسطول القائد الكرواتي المسلم الريس «سنان باشا»، ومنذ ذلك الوقت تحول طرغود إلى كابوس مخيف لسفن القراصنة الصليبيين في

شرقي البحر المتوسط، وفي عام 1520م انضم طرغود إلى أسطول عملاق البحرية الإسلامية الأسطوري خير الدين بربروسا، وسرعان ما أعجب بربروسا بشجاعة طرغود وإخلاصه، الأمر الذي دفع القائد خير الدين بربروسا للاعتماد عليه والوثوق به وقبوله زوجًا لابنته، وتحول هذا القائد اليوناني إلى الساعد الأيمن للقائد بربروسا، فكان طرغود في تلك الفترة بمثابة رجل المهمات الصعبة في الأسطول الإسلامي، فكان هذا القائد الأوروبي المسلم يبحر من أقصى شرق المتوسط إلى أقصى غربه للمشاركة في تحرير المسلمين واليهود الأندلسيين من محاكم التفتيش الكاثوليكية، فاستطاع إنقاذ الآلاف من المسلمين الأوروبيين من الشاطئ الأندلسي، وفي تلك الفترة قام بمعارك بحرية ناجحة ضد أساطيل الصليبيين من مملكة البندقية ومملكة نابولي وأساطيل قراصنة القديس يوحنا، وفي عام 1538م عند وقوع معركة «بروزة البحرية» المصيرية، كان طرغود باشا أحد القادة الثلاث الذين اعتمد عليهم القائد بربروسا في قيادة جيش المسلمين في تلك المعركة، وقد أوكل إليه بربروسا قيادة الجناح الخلفي للأسطول العثماني مباشرة خلف قلب الأسطول الذي كان بقيادة مباشرة من القائد بربروسا، وكان لوجود طرغود باشا ضمن قادة هذه المعركة أثره البالغ في حسم ذلك

الانتصار التاريخي الكبير، وبعد هذه المعركة وأثناء إحدى غاراته على الأعداء الصليبيين في إحدى جزر البحر المتوسط عام 1540م، سقط طرغود أسيرًا في أسر قوات جمهورية جنوة الصليبية، قبل أن يتم تحريره في عملية خاصة للقوات الإسلامية.

-وكيف تم تحرير هذا القائد اليوناني؟ تساءل عبد العزيز بفضول.

- ما أن وردت أنباء أسر القائد طرغود، حتى تدخل خليفة المسلمين السلطان سليمان القانوني شخصيًّا في الموضوع، وعرض على جمهورية جنوة إطلاق سراحه مقابل أي فدية يطلبونها، إلا أنهم رفضوا ذلك العرض السلطاني، عند ذلك أمر القانوني قوات التدخل السريع بقيادة الأسطورة بربروسا بالإبحار إلى الشاطئ الإيطالي في عملية خاصة لتحرير القائد طرغود، وبالفعل رسا الأسطول الإسلامي بقيادة بربروسا أمام سواحل إقليم ليغوريا الإيطالي، وأمر بربروسا حكومة جنوة بتسليم طرغود باشا على الفور، مهددًا إياها بدك مينائها بالمدفعية العثمانية وتدمير سفنها عن بكرة أبيها إذا امتنعت عن تسليمه، فأذعنت حكومة جمهورية جنوة الصليبية لأمر بربروسا وقامت بإطلاق سراح القائد طرغود.

-وماذا حصل له بعد ذلك يا نضال؟

-لقد أسرع هذا القائد الأوروبي يا عبد العزيز بمجرد إطلاق سراحه للالتحاق بعمليات القتال البحري العثماني للدفاع عن المسلمين في شمال أفريقيا بالتحديد، وعلى مدار سنوات طويلة، كانت سفن طرغود باشا تخوض غمار المتوسط للتصدي لهجمات الغزاة الصليبيين، فاستطاع القائد طرغود تحرير مدينة المهدية التونسية، وفي عام 1551م، استدعاه السلطان سليمان القانوني وأوكل إليه مهمة قيادة الجبهة البحرية لتحرير مدينة طرابلس الليبية التي سقطت بأيدي قراصنة القديس يوحنا، وذلك بعد أن وجه سكان ليبيا رسائل استغاثة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني باعتباره خليفة للمسلمين، بينما أسند القانوني مهمة قيادة الجبهة البرية في حرب التحرير الليبية إلى القائد الكرواتي المسلم «سنان باشا»، وبالمناسبة هذا القائد ليس نفسه «سنان ريس» الذي تحدثنا عنه سابقًا، فاتفق الخليفة القانوني مع هذين القائدين على وضع خطة مباغتة للعدو، وذلك بهجوم بري من ناحية الشرق يقوده سنان باشا الذي كان وقتها واليًا على مصر، وهجوم بحري يقوم به طرغود باشا بالأساطيل العثمانية من ناحية الشمال، وقبل إبحاره بالأسطول الإسلامي في تلك المهمة القتالية، قدم الخليفة القانوني للقائد طرغود

مصحفًا وسيفًا مرصعًا بالجواهر، ودعا له وللمسلمين بالنصر، وبالفعل أطبق القائدان الأوروبيان سنان وطرغود على القراصنة من كل الاتجاهات، وبعد حصار استمر لأسبوع كامل، استسلم قراصنة القديس يوحنا لجيش التحرير الإسلامي، فتم تحرير طرابلس في 12 شعبان 958هـ الموافق 15 أغسطس 1551م، وبعد تحرير طرابلس، أصدر الخليفة سليمان القانوني أمرًا سلطانيًّا بتعيين القائد اليوناني طرغود باشا كأول حاكم عثماني على ولاية طرابلس التي أصبحت إحدى الولايات العثمانية الثلاث في الشمال الأفريقي، فقام القائد طرغود بإعادة بناء ما خربه القراصنة في طرابلس، وبنى الكثير من المنشآت الحضارية فيها، وما زال «مسجد طرغود باشا» الذي بناه هذا القائد اليوناني في هذه المدينة الليبية العريقة يحمل نفس الاسم إلى يوم الناس هذا.

-وهل ترك طرغود باشا عمليات القتال البحري بعد أن أصبح حاكمًا على طرابلس ليستريح مما عاناه في حياته؟

-هناك نوع فريد من البشر يا عبد العزيز يسير في هذه الحياة دون توقف، حتى وإن أتيحت له فرص عديدة وإغراءات كبيرة للتوقف عن إكمال مسيرة هذه الحياة، هؤلاء فهموا حقيقة هذه الدنيا الفانية، فأدركوا أن أعمالهم هي فقط ما سيبقى خلفهم بعد فناء أعمارهم،

القائد طرغود باشا كان ينتمي لهذه النوع الخاص من البشر، فبالرغم من كونه حاكمًا على إحدى الولايات الكبرى في الإمبراطورية العثمانية، وبالرغم من عمره الكبير الذي وصل إلى 80 عامًا، وبالرغم من كل ما عاناه من أسر وجراح وترحال في تلك السنوات الطويلة، قرر هذا القائد اليوناني المسلم تخليص المسلمين والعالم المتحضر من شر قراصنة القديس يوحنا، فترك كرسي الحكم في طرابلس ليشترك بنفسه مع بقية قادة أسطول المسلمين في مهمة شبه مستحيلة هدفها مالطا، وهي الجزيرة التي جعلها القراصنة مقرهم الثالث بعد طردهم من قبل صلاح الدين الأيوبي من مقرهم الأول في القدس وطردهم من مقرهم الثاني في جزيرة رودس على يد القانوني، فوصل الأسطول العثماني إلى سواحل مالطا في مايو من عام 1565م الموافق 972هـ، وفرض المسلمون حصارًا على القراصنة وقوات الإمبراطورية الإسبانية التي توجهت للجزيرة للدفاع عنهم، واستمر حصار المسلمين للقراصنة ومجرمي محاكم التفتيش لمدة تزيد عن 3 أشهر، ولكن قوة تحصينات حصون تلك الجزيرة واستماتة الصليبيين في الدفاع عنها حالت دون تمكن المسلمين من دخول المدينة، وفي تلك الأثناء سقط القائد طرغود باشا وهو يقاتل في أرض المعركة نتيجة لإصابته بشظية قذيفة مدفعية، فحزن المسلمون

حزنًا شديدًا لفقدان هذا القائد اليوناني العملاق، وما زال الموضع الذي سقط فيه طرغود باشا في جزيرة مالطا يسمى إلى يوم الناس هذا بـ «نقطة طرغود» «point dragut»، في حين أطلق اسم «فاليتا» على عاصمة مالطا نسبة إلى القائد الصليبي الذي قادهم في تلك المعركة «جان باريسوت دي لافاليت» «Jean Parisot de Valette».

-وهل دفن طرغود باشا في مالطا يا نضال؟

-كلا يا عبد العزيز، فلقد خشي المسلمون أن ينبش القراصنة قبر هذا القائد الإسلامي الذي كان يعتبر عدوهم الأول، فقام القائد الإيطالي قليج علي بحمل جثمان أستاذه طرغود باشا على سفينته الخاصة، ونقله إلى المدينة التي حررها طرغود قبل ذلك بسنوات من هؤلاء القراصنة، مدينة طرابلس الليبية، ليدفن هذا القائد اليوناني المسلم في طرابلس، بالقرب من ساحل البحر المتوسط، الذي ارتبطت أمواجه بحكايته منذ الصغر.

-وماذا حصل لليبيا بعد رحيل محررها طرغود باشا؟

-بعد ذلك تسلم القائد قليج علي ولاية طرابلس بأمر من السلطان سليمان القانوني، واستمر قليج علي في تحصين البلاد وتجهيزها لتكون قاعدة قوية لانطلاق البحرية العثمانية، وحتى بعد

انتقال قليج علي بعد ذلك بثلاث سنوات إلى الجزائر ليتقلد منصب القائد العام للجزائر وولايات شمال أفريقيا الثلاث، استمرت طرابلس بلعب دور كبير في عمليات القتال البحري ضد الغزاة، ومع مرور الوقت أصبحت البحرية الإسلامية المتمركزة في ولاية طرابلس رقمًا صعبًا في معادلة البحر الأبيض المتوسط، لدرجة أن السفن الأوروبية التجارية صارت تدفع لحاكم طرابلس أجرًا ماليًّا مقابل تأمينها في البحر المتوسط والعبور في المياه الإقليمية التابعة لليبيا، ومع تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية نهاية القرن الثامن عشر حرص حكام أمريكا الجدد على إقامة علاقات طيبة مع الإمبراطورية العثمانية والمسلمين من حكام ليبيا وشمال أفريقيا بصفة عامة، ودفعت الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت أجرًا ماليًّا سنويًّا مقابل تأمين إبحار سفنها التجارية في المياه الإقليمية الإسلامية في البحر المتوسط، وفي زمن أول رئيس في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية «جورج واشنطن» «GeorgeWashington»، وبالتحديد في 4 من شهر نوفمبر من عام 1796م، تم توقيع «اتفاقية طرابلس» «Treaty of Tripoli» بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية والوالي العثماني في طرابلس، ووقعت الإمبراطورية العثمانية (كضامن) والوالي العثماني في الجزائر (كطرف ثالث شاهد في

يناير 1797م)، وقد حرص المسلمون أن تكون النسخة الأصلية لهذه الاتفاقية مكتوبة باللغة العربية وذلك للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، لذلك فإن النسخة الأصلية لهذه الاتفاقية ما زالت محفوظة في الأرشيف الأمريكي باللغة العربية، وبعد توقيع هذه الاتفاقية تم تقديمها إلى مجلس الشيوخ الأمريكي من قبل الرئيس الأمريكي الثاني «جون آدامز» «John Adams»، وتم تصديق الاتفاقية من الكونغرس الأمريكي في 10 يونيو من عام 1797م، وقد اكتسبت هذه المعاهدة أهمية كبيرة في التاريخ الأمريكي، خاصة لوجود البند الحادي عشر من بنود هذه المعاهدة.

-وماذا ورد في هذا البند يا نضال؟

-لقد حرص الأمريكيون في هذه المعاهدة على طمأنة مسلمي شمال أفريقيا الذين تعرضوا لغزوات صليبية عديدة عبر تاريخهم، فأوضحت الولايات المتحدة في هذه المعاهدة بأنها لا تحمل عداء تاريخيًّا دينيًّا مع المسلمين، لذلك عرفت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها لأول مرة في تاريخها في البند الحادي عشر من معاهدة طرابلس بأنها «دولة غير مسيحية».

-ولذلك اكتسبت هذه المعاهدة أهمية كبيرة لدى القانونيين الأمريكيين، فقد أصبح «البند رقم 11» المعروف عند الجهات

القانونية الأمريكية بـ «Article 11» من اتفاقية طرابلس سندًا قانونيًّا لدى كل المنادين بالحرية الدينية وعدم تدخل الكنيسة في شؤون أمريكا السياسية.

-وماذا ورد بالتحديد في هذا البند؟

-هذا هو نص «البند رقم 11» من معاهدة طرابلس لعام 1796م:

«حيث إن الولايات المتحدة الأمريكية لم تنشأ، بأي حال من الأحوال، على أساس الدين المسيحي؛ وليس لها في حد ذاتها أي طابع عدائي ضد قوانين أو دين أو سلم المسلمين، وحيث إن الولايات لم تدخل أبدًا في أي حرب، أو عمل من أعمال العدوان ضد أي شعب مسلم.

فقد أعلن الطرفان أن لا ينشأ بسبب الآراء الدينية أي انقطاع في الانسجام القائم بين البلدين».

«Art. 11. As the Government of the United States of America is not, in any sense, founded on the Christian religion; as it has in itself no character of enmity against the laws, religion, or tranquility, of Mussulmen; and, as the said States never entered into any war, or act of hostility against

any Mahometan nation, it is declared by the parties, that no pretext arising from religious opinions, shall ever produce an interruption of the harmony existing between the two countries.»

-ولكن يا نضال هل يعرف السياسيون الحاليون في أمريكا هذا البند الذي وضع فيه الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الأمريكية الأسس التي ينبغي أن تبنى عليها العلاقات الأمريكية مع العالم الإسلامي؟

-لا أعلم إن كان جميع السياسيين الأمريكيين قد سمعوا بهذا البند، ولكن أتذكر أن الرئيس الأمريكي السابق «باراك أوباما» ذكر هذا البند بالتحديد في خطابه الذي ألقاه عام 2009م من جامعة القاهرة ووجهه إلى العالم الإسلامي، وقد مر الرئيس الأمريكي في هذا الخطاب على ذكر اتفاقية طرابلس، واستشهد بما ورد في البند الحادي عشر بأن الولايات المتحدة لا تكن عداء تجاه المسلمين أو دينهم.

* * *

سر الرقم 420

بعد أن فرغ نضال وعبد العزيز من جولة تاريخية حول المواقع الأثرية في جزيرة جربة، بحثا عن فندق ليقضيا فيه ليلتهما، ولكنهما اكتشفَا أن كل غرف الفنادق التي بحثوا فيها كانت محجوزة بشكل كامل، وبعد طول بحث في فنادق المدينة، وجدَا فندقًا نائيًا يمكنهما قضاء ليلتهما فيه.

-مرحبًا، نرغب بحجز غرفة لشخصين. قال نضال لموظف الاستقبال في الفندق.

-مرحبًا بك يا سيدي، للأسف جميع الغرف المزدوجة محجوزة في الفندق، فنحن في ذروة الموسم السياحي، ولكن توجد لدينا غرفتان متجاورتان في الطابق الرابع كل منهما لشخص واحد فقط.

-حسنًا، نرغب بحجز هاتين الغرفتين لليلة واحدة من فضلك.

-على الرحب والسعة يا سيدي، يمكنكما ترك جوازي سفركما هنا، وسأقوم أنا بإتمام عملية الحجز، وسيرافقكما زميلي إلى غرفتيكما.

نادى موظف الاستقبال على أحد الموظفين ليرافق نضال وعبدالعزيز إلى غرفتيهما، ليلاحظ نضال شيئًا غريبًا أثار دهشته، وبعد ما يقرب من نصف ساعة من افتراق الصديقين وذهاب كل

منهما إلى غرفته، سمع عبد العزيز صوت نضال وهو يطرق عليه باب غرفته، ففتح له الباب وهو يقول له:

-صديقي الغالي نضال، أعلم أنك لا تنام قبل الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل، ولكن يؤسفني أن أخبرك أنني في غاية الإرهاق من السفر، وأرغب بأخذ قسط من الراحة قبل أن نذهب إلى مكتب البريد في صباح الغد.

-لقد وجدته يا عبد العزيز، وجدت حل لغز الرقم 420! قال نضال منفعلًا.

-أتقصد الرقم الثاني الموجود أسفل لغز بربروسا؟

-أجل يا صديقي، الرقم الموجود في مثلث التحذير.

-وإلى ماذا يرمز هذا الرقم؟ وكيف وجدت معنى هذا الرقم في هذا الوقت المتأخر من الليل؟! سأل عبد العزيز.

-عندما أوصلنا عامل الفندق إلى غرفتينا، وجدت أن الغرفتين متجاورتان بالفعل كما أخبرنا موظف الاستقبال، ولكن لاحظت أن رقمي الغرفتين هما الرقم 419 والرقم 421، مما أثار حيرتي، فكيف تكون الغرفتان متجاورتين وهما لا يحملان رقمين متجاورين؟! فخرجت إلى بهو الطابق لكي أبحث عن الغرفة 420، ولكني لم أعثر

على أثر لها، ولكني وجدت أحد عمال النظافة أمامي، فسألته عن مكان الغرفة 420، فابتسم لي وأخبرني أن الفندق لا يحتوي على غرفة بهذا الرقم، وبعد أن علمت منه سبب عدم وجود غرفة بهذا الرقم، قمت ببحث سريع على شبكة الإنترنت، لأكتشف أخيرًا معنى الرقم 420!

-وإلى ماذا يرمز هذا الرقم يا نضال؟ هل له علاقة بجمهورية التشيك التي تبدأ مقدمتها الدولية بهذا الرقم؟

-على الإطلاق يا عبد العزيز، فعلى عكس رقم التحذير الآخر الذي يشير إلى مقدمة مالطا الدولية كرمز لقراصنة القديس يوحنا، فإن هذا الرقم لا يرمز في لغز بربروسا من قريب أو بعيد بالتشيك، بل يرمز إلى شيء آخر، يرمز إلى الحشيش!

-أتقصد الحشيش الذي نسميه في المغرب بالكيف؟! تساءل عبدالعزيز بتعجب.

-هذا بالتحديد ما أقصده يا صديقي، أقصد مخدر القنب الهندي أو «الماريجوانا»، والذي يسمى أيضًا بالحشيش أو الكيف، وهو المخدر الذي يعد أشهر أنواع المخدرات في العالم.

-ولكن يا نضال ما علاقة الحشيش بالرقم 420؟!



-هذا الرقم يا عبد العزيز هو الرمز الذي تم اعتماده من مدخني هذا المخدر على مستوى العالم بأسره، وقصة ارتباط الرقم 420 بالحشيش تعود إلى بداية السبعينيات من القرن الماضي، وبالتحديد إلى عام 1971م في ولاية كاليفورنيا الأمريكية، فقد كان بعض تلاميذ إحدى المدارس الثانوية في هذه الولاية وتدعى مدرسة «سان رافييل الثانوية» «San Rafael High School» يجتمعون كل يوم عند أحد التماثيل لتدخين الحشيش في ذلك المكان، وقد اتفقوا على أن تكون الساعة 4:20 من عصر كل يوم هي الموعد المحدد لالتقائهم عند التمثال لكي يدخنوا الحشيش معًا، وأصبح الرقم 420 بمثابة كود سري لهم، وبعد ذلك انتشر هذا الرمز على شكل واسع بين

مدمني الحشيش للدلالة على هذا المخدر الذي يدمر الجهاز العصبي للإنسان، فصار مدخنوه يجتمعون كل عام في تاريخ 20 من شهر أبريل «4» في بعض البلدان للتظاهر مطالبين بالسماح بتدخين هذا المخدر، وصار مناصرو هذا المخدر يختارون غرف الفنادق التي تحمل الرقم 420 لكي يمارسوا فيها عمليات التدخين الجماعي للحشيش، مما اضطر كثير من الفنادق حول العالم إلى عدم ترقيم أي غرفة في تلك الفنادق بالرقم 420، وهذا هو سر عدم وجود غرفة بهذا الرقم في فندقنا يا صديقي.

-هل تقصد يا نضال أن المنظمة الخطيرة الأخرى التي حذر منها واضع لغز بربروسا هي منظمة لها علاقة بتجارة الحشيش في العالم؟

-ليس ذلك ما أقصده يا عبد العزيز.

-ماذا تقصد إذًا؟!

-أعتقد أن الخطر الحقيقي المشار إليه في لغز بربروسا يرمز إلى تنظيم من أخطر التنظيمات التي ظهرت في تاريخ الإنسانية على الإطلاق، إنه تنظيم «الحشاشين»!



-ما حكاية هذا التنظيم الخطير يا نضال؟ ولماذا كان من أخطر التنظيمات الإجرامية التي ظهرت في تاريخ الأرض؟! تساءل عبدالعزيز.

-تاريخ هذا التنظيم يا صديقي يرجع إلى مئات السنين، إلى وقت سبق ظهور الحروب الصليبية بقليل، كانت المهمة التي كلف بها أفراد هذا التنظيم السري هي القيام بعمليات اغتيال إجرامية ضد كل من يقف في طريقهم، والحشاشون كانوا ينتمون بالأساس إلى طائفة من طوائف الشيعة، وهي الطائفة الإسماعيلية النزارية، هذه الطائفة الباطنية انفصلت عن العبيديين «الفاطميين»، الذين كانوا أيضًا من الشيعة الإسماعيلية، وذلك في أواخر القرن الخامس الهجري الموافق الحادي عشر الميلادي، وتؤمن هذه الطائفة بأن كلمات القرآن لها تفسير باطني يختلف عن المعنى الحرفي المفهوم، لذلك فقد كانت لهم تفسيرات غريبة لمفردات القرآن الكريم تشبه الشفرات السرية التي يحددها شيخ الطائفة.

-وكيف تأسست هذه الطائفة يا نضال؟

-يعود تأسيس هذه الطائفة إلى أحد أخطر المجرمين في التاريخ

الإنساني، هذا الشخص كان يدعى «الحسن الصباح»، وكانت بدايته في أحد الحصون المنيعة الواقعة في إيران الحالية والتي اتخذها الحسن الصباح كمقر سري لنشر دعوته الباطنية.



-ويقع هذا الحصن الجبلي بوسط جبال البرز أو جبال الديلم في بلاد فارس جنوب بحر قزوين، ويبعد حوالي 100كم عن العاصمة طهران، هذا المقر الحصين لهذا التنظيم السري كان اسمه «قلعة آلموت» «Alamut Castle»، ويعني بالفارسية «وكر العقاب»، وقد استولى الحسن الصباح على قلعة آلموت ليحولها إلى مركز

تدريب لأتباعه الذين كان يسيطر عليهم بواسطة نبات القنب الهندي المعروف بالحشيش، لذلك سموا بالحشاشين، وكانت المهام التي أوكلت إليهم هي القتل غدرًا بدون مواجهة، لذلك فإن كلمة «يغتال» في كثير من اللغات الأجنبية مشتقة في الأساس من كلمة «حشاشين»، فبالإنجليزية على سبيل المثال اشتق من كلمة «حشاشين» الكلمة الإنجليزية التي تعرف القاتل المحترف الذي يقتل بطريقة الاغتيال«Assasin»ومنها اشتق فعل «assassinate» ويعني بالإنجليزية «يغتال».

-وكيف كان الحسن الصباح يسيطر على أتباعه؟ تساءل عبدالعزيز.

-الرحالة الإيطالي الشهير «ماركو بولو» «Marco Polo» الذي جاب بلاد آسيا في أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر- روى قصة مخيفة عن تنظيم الحشاشين، وكيف كان قائدهم الذي أطلق عليه لقب «شيخ الجبل» يقوم بالسيطرة عليهم، وقد **كتب ماركو بولو يصف مقر الحشاشين السري المعروف بقلعة آلموت:**

«كانت فيها حديقة كبيرة مليئة بأشجار الفاكهة، وفيها قصور وجداول تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وبنات جميلات يغنين

ويرقصن ويعزفن الموسيقى، حتى يوهم شيخ الجبل لأتباعه أن تلك الحديقة هي الجنة، وقد كان ممنوعًا على أي فرد أن يدخلها، وكان دخولها مقصورًا فقط على من تقرر أنهم سينضمون لجماعة الحشاشين، كان شيخ الجبل يدخلهم القلعة في مجموعات، ثم يُشرِبهم مخدّر الحشيش، ثم يتركهم نيامًا، ثم بعد ذلك كان يأمر بأن يُحملوا ويوضعوا في الحديقة، وعندما يستيقظون فإنهم سوف يعتقدون بأنهم قد ذهبوا إلى الجنة، وبعدما يُشبعون شهواتهم من المباهج، كان يتم تخديرهم مرة أخرى، ثم يخرجون من الحدائق ويتم إرسالهم عند شيخ الجبل، فيركعون أمامه، ثم يسألهم من أين أتوا؟، فيردون: «من الجنة»، بعدها يرسلهم الشيخ ليغتالوا الأشخاص المطلوبين، ويعدهم أنهم إذا نجحوا في مهماتهم فإنه سوف يعيدهم إلى الجنة مرة أخرى، وإذا قُتلوا أثناء تأدية مهماتهم فسوف تأتي إليهم ملائكة تأخذهم إلى الجنة».

وبذلك استطاع قادة الحشاشين السيطرة على أتباعهم وتحويلهم إلى آلات قتل بشرية مخيفة، لدرجة أنه لو أمر أحدهم بأن يقتل نفسه لفعل ذلك، فاستطاع الحشاشون بهذه الكتيبة المخيفة من القتلة أن يغتالوا كل من يعترض طريقهم، من مسلمين وغير مسلمين، فسقط

ضحية لهم كثير من الشخصيات العليا في الأمة الإسلامية، فكان أول ضحاياهم هو الوزير الفارسي للدولة السلجوقية «نظام الملك الطوسي»، والذي كان يعد أحد أشهر الوزراء في تاريخ الأمة الإسلامية، ثم تتالت عمليات الاغتيال التي كان يقوم بها الحشاشون، وكان كثير منهم يقوم بقتل نفسه بعد أن ينجح في عمليته الإجرامية، وبذلك تمكنوا من اغتيال شخصيات كبيرة للغاية، كان على رأسهم رأس الخلافة الإسلامية شخصيًّا الخليفة العباسي «المسترشد»، وقد تمكن التنظيم السري لهذا التنظيم الخطير من التغلغل إلى داخل أروقة الحكم، حتى إن أحد الحراس الشخصيين للقائد الكردي «صلاح الدين الأيوبي» كان منتميًا لتنظيم الحشاشين السري، وقد قام الحشاشون بقتل كثير من القادة الصليبيين أيضًا، ومن هنا بدأت أوروبا باستخدام لفظ «أساسين» للدلالة على عمليات الاغتيال والقتل السري.

-هل هذا يعني أن تنظيم الحشاشين هو الطرف الثاني الذي يبحث عن لغز بربروسا؟

-لقد تم إنهاء وجود تنظيم الحشاشين مع تدمير مقرهم من قبل القائد المغولي «هولاكو خان» في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، فقبل غزوه لبغداد قام هولاكو بتدمير قلعة آلموت عام

1256م وتشتيت شمل الحشاشين، وفي عام 2004م سقطت الجدران المتبقية من القلعة جراء الزلزال الشديد الذي ضرب إيران، ما أخشاه يا عبد العزيز، أن سقوط قلعة الحشاشين نهائيًّا مع زلزال إيران الأخير أحيى هذا الفكر المتطرف من جديد، فأعاد أتباع هذا الفكر الباطني تنظيم أنفسهم من جديد تحت مسمى «الحشاشين الجدد»، مثلما نظم «النازيون الجدد» أنفسهم في الفترة الأخيرة في أوروبا.

-ما تقوله يا نضال جعلني أفكر برمزية «العبدين القاتلين» في قصة اغتيال الزير سالم التي وردت في لغز بربروسا، فتنظيم قراصنة القديس يوحنا وتنظيم الحشاشين يتشابهان باتباعهما لنهج القتل المنظم، إضافة إلى أن أتباع هذين التنظيمين كما أوضحت لي عبارة عن عبيد ينفذون أوامر القيادة دون تفكير.

-أحسنت يا عبد العزيز، يبدو أنك صرت تتفوق علي في فهم كثير من الإشارات الرمزية، تحليل منطقي أهنئك عليه!

-ما رأيناه يا نضال في هذه الأيام القليلة كفيل بأن يحول أي إنسان إلى خبير في لغة الرموز. قال عبد العزيز وهو يبتسم.

-والآن علي أن أتركك لكي تنال قسطًا من الراحة، فأمامنا يوم طويل غدًا إن شاء الله، تصبح على خير يا صديقي.

-تصبح على خير يا نضال، وأرجو منك إن وجدت شيئًا جديدًا في لغز بربروسا هذه الليلة، أن تحتفظ به لنفسك حتى صباح الغد، فلن أفتح الباب لك مجددًا!

ابتسم عبد العزيز وهو يقول هذه الكلمات التي ودع بها نضال، الذي ذهب بدوره إلى غرفته ليخلد للنوم.

* * *

بعد أن تناول نضال وعبد العزيز طعام الإفطار في الفندق، أسرعا إلى مكتب البريد التونسي الموجود والواقع في منطقة «حُومَة السُوق» في جزيرة جربة، وهناك قام نضال بعرض البطاقة الإليكترونية البريدية التي وجدها في خزنة الجزري على موظفة الاستقبال، فقامت الموظفة بإرشاد الصديقين إلى مكان الغرفة التي تحتوي على الصناديق البريدية الإليكترونية، وبعد لحظات من البحث، عثر عبد العزيز على الصندوق البريدي الذي يحمل الرقم 110 الموجود على البطاقة، فأسرع نضال بوضع البطاقة الإليكترونية في المكان المخصص لها.

-الصندوق لم يفتح يا عبد العزيز، يبدو أن هناك خللًا ما في الصندوق، من فضلك استدع الموظفة لكي تحل الموضوع.

غاب عبد العزيز للحظات ثم عاد برفقة الموظفة.

-تفضل يا سيدي، ما المشكلة؟

-لقد وضعت البطاقة الإليكترونية في الصندوق البريدي الخاص بي ولكنه لم يفتح!

-ينبغي أن تضع الرقم السري الخاص بالصندوق بعد وضعك للبطاقة في مكانها يا سيدي.

-الرقم السري؟ أي رقم تقصدين؟

-الرقم السري المكون من 21 رقمًا والذي يحدده العميل عند استئجاره للصندوق مباشرة يا سيدي.

-نعم نعم، تذكرت الآن، شكرًا لك على المساعدة. قال نضال وهو يبتسم في وجه الموظفة.

تركت الموظفة نضال وعبد العزيز، في حين بقي نضال وعبدالعزيز جامدين في مكانهما.

-دعنا نجرب الأرقام السبعة التي تلي الرقم 110 يا نضال، فكل منها مكون من 3 أرقام، وسيكون عدد الأرقام الكلي 21 رقمًا. قال عبد العزيز.

-لقد فكرت بهذا الأمر، ولكن أي محاولة خاطئة قد تنشط جرس الإنذار الخاص بهذه الصناديق، وقد نتعرض للسجن بتهمة سرقة هذه البطاقة الإليكترونية، ونحن لا نملك أي مستند رسمي يدل على استئجارنا لهذا الصندوق، ولقد لاحظت أن سؤالنا عن الصندوق قد أثار شك موظفة الاستقبال، وإذا نظرت خلفك ستلاحظ أنها بدأت

تتحدث مع أحد الحراس وتنظر إلينا، لذلك أعتقد أنه من الصواب أن نخرج من هنا بحجة العودة إلى الفندق لجلب الرقم السري، وهناك في الفندق يمكننا التفكير بهدوء بهذه الأرقام.

-الأمر أسهل من ذلك يا نضال، ليس هناك مبرر للخوف، دعنا نضغط على هذه الأرقام ونرى ما سيحدث، وفي أسوء الحالات يمكننا أن نخبرهم أن أحدهم ترك لنا أمانة في هذا الصندوق وترك لنا هذه البطاقة لكي نفتح الصندوق ونسترد الأمانة.

لم ينتظر عبد العزيز لكي يسمع رأي نضال باقتراحه، فقام على الفور بوضع البطاقة الإليكترونية من جديد في مكانها بالصندوق، ثم ضغط على الرقم:

111112113114115116117

ففتح الصندوق البريدي بعدها مباشرة.

-أحسنت يا عبد العزيز، أغبطك على جرأتك وحزمك في اتخاذك القرارات، أعتقد أنني أحتاج إلى قلب جريء مثل قلبك! قال نضال وهو يضم عبد العزيز بسعادة.

-أحيانًا يا نضال تكون الأمور واضحة وجلية أمامنا، ولكن خوفنا يمنعنا من اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، فالخوف يحد من حرية الإنسان وحركته وتفكيره أيضًا، فمخاوفنا الداخلية

تجعلنا نتخيل مخاطر وأوهام لا وجود لها إلا في مخيلتنا، فإذا نويت القيام بشيء ترى فيه خيرًا، فقم أولًا بدراسته دراسة موضوعية بعيدًا عن الأوهام التي تسببها المخاوف، ثم توكل على الله، واعلم أنه لن يصيبك إلا ما كتبه الله لك.

-شكرًا لك على نصيحتك الغالية يا صديقي، تعجبني نظرتك البسيطة للحياة.

وبعد فتح الصندوق البريدي، وجد نضال وعبد العزيز أنه يحتوي على ظرف بريدي كبير، فتناوله نضال ووضعه في حقيبته دون أن يفتحه، ثم خرج بهدوء برفقة عبد العزيز من أمام الموظفة التي ودعتهما بابتسامة مطمئنة، وعندما وصل الصديقان إلى غرفتهما في الفندق، فتحَا الظرف البريدي، ليجدا في داخله صورة لجمجمة بشرية، مرسوم فوقها الرقم 118.

-ما هذا يا نضال؟ مجرد صورة لجمجمة بشرية!

-هذه الجمجمة يا عبد العزيز هي رمز لأحد أشهر الأفلام الأمريكية التي أنتجتها شركة ديزني الأمريكية في السنوات الأخيرة، إنها رمز لسلسلة أفلام «قراصنة الكاريبي» «Pirates of the Caribbean».



-أعرف هذا الفلم، كنت أشاهد إعلاناته دائمًا في شوارع لندن، ولكن ما علاقة هذا الفلم بلغز بربروسا؟ تساءل عبد العزيز.

-الدور الرئيسي لهذه السلسلة الشهيرة يا صديقي هو الدور الذي أداه الممثل الأمريكي «جوني ديب» والذي جسد من خلاله شخصية القرصان الإنجليزي «الكابتن جاك سبارو» « Captain Jack Sparrow»، وقد نالت هذه الشخصية شهرة كبيرة في أنحاء العالم، ورشح جوني ديب عن دوره في هذا الفلم لنيل جائزة الأوسكار لأفضل ممثل عن دور رئيسي، ولكن الشيء الذي لا يعرفه عشرات الملايين من محبي هذه السلسلة الشهيرة أن شخصية هذا القرصان مستوحاة في حقيقة الأمر من شخصية حقيقية لأحد أبطال البحرية

الإسلامية، وهي شخصية قائد بحري إنجليزي مسلم هاجر إلى تونس بداية القرن 17 الميلادي.

-قائد مسلم من أصل إنجليزي! قال عبد العزيز بتعجب.

-اسمه الحقيقي «جاك وارد» «Jack Ward»، أو «جون وارد» «John Ward»، ويطلق عليه البعض اسم «جون بيردي»« John Birdy»، وذلك لحبه الكبير للطيور.

-هل حبه للطيور هو الذي دفع شركة ديزني الأمريكية لإضافة اسم «سبارو» إلى بطل فلم قراصنة الكاريبي؟

-بالتأكيد، فكما تعلم كلمة «سبارو» «Sparrow» تعني بالإنجليزية «عصفور»، فاستخدمت بدلًا عن كلمة «بيردي»، المشتقة من كلمة «بيرد» «Bird» التي تعني بالإنجليزية كلمة «طائر».

-ولكن ما هي حكاية هذا البحار الإنجليزي المسلم يا نضال؟ وكيف انتقل إلى تونس؟

-ولد جاك وارد عام 1553م في بلدة «فافلشام» «Faversham» الواقعة في مقاطعة «كينت» «Kent» جنوب شرق إنجلترا، وعمل في بداية حياته في صيد الأسماك، وبعد هزيمة الإسبان الساحقة في حملتهم التي أرادوا فيها غزو إنجلترا والتي عرفت بـ«الأرمادا»، تحول جاك وارد عام 1588م مع كثير من البحارة الإنجليز إلى الإغارة على سفن الإسبان

بتكليف رسمي من ملكة إنجلترا «إليزابيث الأولى» «Queen Elizabeth I of England»، وقد كان العداء بين الإسبان والإنجليز كبيرًا نتيجة لتحول إنجلترا من الكاثوليكية إلى البروتستانتية الإنجيلية، وقد أعلن بابا الفاتيكان الحرب صراحة على ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى، واعتبرها حاكمة غير شرعية، وأحل البابا رعاياها من الولاء لها، الأمر الذي عرض الملكة الإنجليزية لكثير من المؤامرات للتخلص منها، وقد تولت إسبانيا مهمة قيادة الكاثوليك للتخلص من هذه الملكة البروتستانتية وإعادة إنجلترا للكاثوليكية من جديد، في نفس الوقت قام الإسبان بتعذيب وقتل كثير من البروتستانت في إسبانيا والدول الأوروبية التي كانت واقعة تحت احتلالها، ومع مرور الوقت، صار البحار الإنجليزي جاك وارد من قادة البحارة الذين أوقعوا خسائر فادحة في سفن الإسبان، وصار يملك ثروة لا بأس بها نتيجة للغنائم التي كان يحصل عليها.

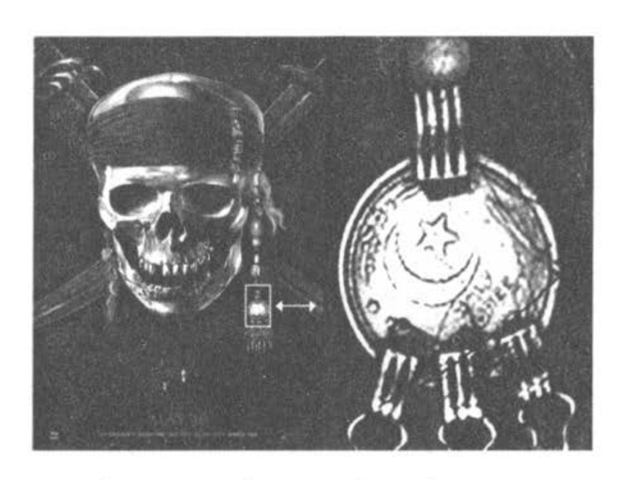
-ولكن لماذا رحل جاك وارد من إنجلترا بينما كان وضعه جيدًا فيها؟

-هذا الأمر تغير بعد رحيل الملكة إليزابيث الأولى وتولي الملك الإنجليزي «جيمس الأول» «James I of England» لمقاليد الحكم في إنجلترا، فقد عقد الإنجليز والإسبان اتفاقية سلام عام

1603م، فمنعت تلك الاتفاقية جاك وارد وكثير من البحارة الإنجليز والأوروبيين من قتال أعدائهم الإسبان، فأبحر كثير منهم إلى دول شمال أفريقيا المسلمة التي كانت تتعرض لغزوات متكررة من الإسبان وبقية الممالك الكاثوليكية، واشترك هؤلاء البحارة الإنجليز والأوروبيين مع المسلمين في قتال الإسبان، وبعد احتكاكهم بالمسلمين ومعرفتهم عن قرب بالإسلام، تحول كثير من هؤلاء البحارة الأوروبيين إلى الإسلام، وكان جاك وارد من بين القادة الإنجليز الذين أسلموا، وقد تمكن هذا القائد الإنجليزي المسلم من إيقاع كثير من الهزائم البحرية في صفوف الإسبان وحلفائهم، ولذلك ارتبطت صورة جاك وارد في ذهن الأوروبيين بالقرصنة، خاصة وأنه أعتبر خائنًا في المفهوم المسيحي في ذلك الوقت نتيجة لاختياره الإسلام دينًا له، وقد قام الكاتب المسرحي الإنجليزي «روبرت دابرون» «Robert Daborne» في عام 1612م بتأليف مسرحية كاملة عن جاك وارد أسماها «مسيحي يتحول إلى التركية» «A Christian Turned Turk»، وفي المفهوم الأوروبي في ذلك الوقت كانت كلمة تركي تعني مسلم، ولا زال كثير من المسيحيين في أوروبا وأمريكا اللاتينية ينادون المسلم بالتركي حتى يوم الناس هذا.

-هذا صحيح، كان لدي زميل أرجنتيني أخبرني أن أحد أجداده من أصول تركية، ولما سألته أكثر عن هذا الجد، تبين لي أنه يقصد أن جده كان عربيًّا، لكن أخبرني يا نضال، ما علاقة جاك وارد والصورة الدعائية لهذا الفلم بلغز بربروسا؟

-إحدى أهم الشخصيات في فلم قراصنة الكاريبي يا عبد العزيز هي شخصية القرصان «بربوسا»، المستوحاة من اسم القائد خير الدين بربروسا، الذي كان ولا زال يعد في الثقافة المسيحية من أشهر القراصنة على الإطلاق، إضافة لذلك فإن القائد الإنجليزي المسلم جاك وارد اتخذ تونس مقرًّا له لتنفيذ عملياته البحرية ضد سفن الإسبان وحلفائهم، وقد عاش فيها حتى وفاته عام 1622م، وقد كانت تونس في تلك الفترة من أقوى الولايات العثمانية على الإطلاق، لذلك فقد حرص منتجو هوليوود على وضع رمز يشير إلى ذلك في فلم قراصنة الكاريبي، وهذا الرمز هو عبارة عن ميدالية يلبسها بطل الفلم جاك سبارو، وقد نقش على هذه الميدالية رمز الخلافة الإسلامية العثمانية المكون من الهلال والنجمة، وبإمكانك أن ترى ذلك في الميدالية المعلقة على الجمجمة في صورة الفلم التي تحملها بيدك يا عبد العزيز.



-بالفعـل توجـد ميداليـة بالفعـل معلقـة عـلى الجمجمـة، ولكـن النقش الذي أراه في الميدالية يحتوي فقط على نجمة دون هلال!

-ماذا؟! هذا مستحيل! الرمز الذي نقشته ديزني على ميدالية جاك سبارو يحتوي على نجمة وهلال معًا، هل أنت متأكد مما تقوله؟

-انظر هنا بنفسك يا نضال، النجمة فقط هي ما تبدو في الميدالية.

قال عبد العزيز وهو يشير بإصبعه إلى الصورة.

نظر نضال إلى الصورة التي كان عبد العزيز يحملها بيديه، وظل يتأملها لما يقرب من دقيقة كاملة دون أن ينطق بأي كلمة، وبعد ذلك ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وقال:

-شكرًا لك يا عبد العزيز، فلم أنتبه في البداية لاختفاء الهلال من



النقش على الميدالية، وأنت بقوة ملاحظتك هذه استطعت إيجاد الخيط الأخير من لغز بربروسا، إنها النجمة الخماسية، آخر رمز في لغز بربروسا.

-ماذا تقصد بالتحديد؟!

-لقد كان الأوروبيون في العصور الوسطى يطلقون اسم «Barbary Coast» «الساحل البربري» للإشارة إلى المناطق الساحلية الوسطى والغربية من شمال أفريقيا، والتي تشمل حاليًا دول ليبيا، تونس، الجزائر، والمغرب، وجميع هذه الدول لديها أعلام تحتوي على شعار الخلافة الإسلامية العثمانية المكون من الهلال والنجمة الخماسية، باستثناء دولة واحدة علمها مكون فقط من النجمة الخماسية، إنها بلدك الجميل يا صديقي.

-ولكن يا نضال ما علاقة المغرب بجاك وارد ولغز بربروسا؟ تساءل عبد العزيز.

-الأمر يتعلق بالرمز الذي أخفاه واضع لغز بربروسا من الميدالية، رمز الهلال.

-وما علاقة رمز الهلال بالمغرب؟ تساءل عبد العزيز من جديد.

-الهلال يرمز للمكان الذي عاش فيه جاك وارد لفترة من الزمن، إنه رمز للدولة المستقلة التي أسسها مقاتلو البحار في المغرب.

-ماذا؟! دولة مستقلة لمقاتلي البحار؟!

ابتسم نضال بوجه عبد العزيز الذي غمرته الدهشة، ثم قال:

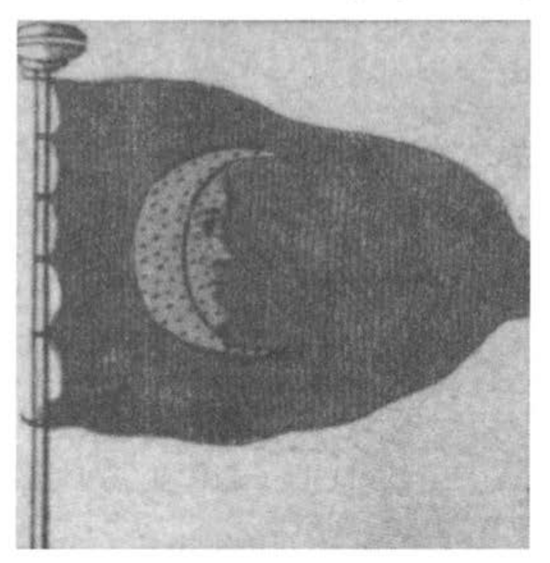
-مرحبًا بك يا صديقي في «جمهورية بورقراق»!

***

دولة مقاتلي البحار

«جمهورية بورقراق»

-ما حكاية هذه الدولة يا نضال؟



-تاريخ هذه الدولة المستقلة يعود إلى بداية القرن السابع عشر الميلادي، عرفت في التاريخ بـ «جمهورية أبي رقراق» أو كما كان يسميها أهل المغرب «جمهورية بورقراق»، وتعرف أيضًا باسم «جمهورية مقاتلي البحار»، وتعرف في التاريخ المسيحي بـ «جمهورية القراصنة»، أو «جمهورية سلا» «Republic of Salé»، وذلك لأن

هذه الجمهورية المستقلة ظهرت في منطقة مصب نهر «أبي الرقراق» عند المحيط الأطلسي، وتمركزت في مدينتي «سلا» و «الرباط» المغربيتين.

-على الرغم من زيارتي العديدة لهاتين المدينتين، فإنني لم أسمع في حياتي بوجود دولة مستقلة تم تأسيسها بين هاتين المدينتين المغربيتين، يبدو أنني أجهل كثيرًا عن تاريخنا الحقيقي يا نضال!

-للأسف يا صديقي هذا الأمر ليس مقصورًا عليك وحدك، فحصة التاريخ كانت بالنسبة لي من أكثر الحصص التي كنت أشعر خلالها بالملل أيام الدراسة، وذلك لأن المادة التاريخية كانت في كثير من الأحيان تقدم للتلاميذ بطريقة جافة ومكررة، ودراسة التاريخ بشكل عام لم تمنح الاهتمام الكافي من ناحية التطوير ومواكبة الوسائل العصرية الحديثة لإيصال المعلومة التاريخية للتلميذ بطريقة محببة وشيقة، فالتاريخ ليس فقط حكايات الماضي، بل هو مرآة الحاضر، وبوصلة المستقبل، ونحن عندما ندرس التاريخ نقوم في حقيقة الأمر بدراسة الأسس والأسباب التي أدت إلى قيام وانهيار الأمم والحضارات المتعاقبة عبر التاريخ، فنستفيد من تجارب تلك الأمم والحضارات مهما كانت عقيدتها، ومهما كانت هويتها، والعاقل هو من يرى العالم من حوله بنظرة واسعة لا تقتصر فقط على البقعة

الصغير المحصورة بين قدميه، وقد آن الأوان لكي نبدأ دراسة التاريخ بصورة مختلفة تمكننا من فهم حاضرنا، وبناء مستقبلنا.

-تاريخ هذه الدولة يا عبد العزيز مرتبط ارتباطًا كليًّا بتاريخ المأساة التي تعرض لها الأوروبيون المسلمون من سكان الأندلس الأصليين، فبعد سنوات قليلة من سقوط الأندلس نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، تمكن الكاثوليك من إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس عن طريق قيامهم بعلميات تطهير عرقي للسكان الأصليين من المسلمين واليهود، وتم ذلك لهم إما عن طريق القتل والتعذيب في محاكم التفتيش، وإما عن طريق الطرد خارج البلاد، وفي ظل هذا الجو من الإرهاب والقمع الذي قام به ملوك إسبانيا الكاثوليكة في ذلك الزمان، تمكنت مجموعة صغيرة من الموريسكيين الأثرياء من الصمود لما يزيد عن 100 عام من سقوط الأندلس، هذه المجموعة من الموريسكيين كانت تسمى بـ «الحرناشيين» نسبة لبلدتهم «هورناتشوس» «Hornachos» الواقعة غربي الأندلس، وقد استطاع الحرناشيون البقاء في موطنهم الأصلي بسبب ثرائهم ونفوذهم الكبيرين في الأندلس، ولكن الوضع تغير في 9 أبريل من عام 1609م، عندما أصدر الملك الإسباني الكاثوليكي «فيليب

الثالث» «Philip III» قرار الطرد النهائي للموريسكيين، وبموجب هذا القرار تحتم على جميع الموريسكيين مغادرة الأراضي الإسبانية، فتم تهجير آلاف الموريسكيين إلى المغرب ودول شمال أفريقيا، ونتيجة لاختلاف اللغة والثقافة مع السكان المغاربة، استوطن الأندلسيون المهجرون في مناطق متجاورة، فسكن كثير منهم مدن الشمال المغربي، خاصة مدينتي تطوان وطنجة، بينما سكن آلاف الأندلسيين الحرناشيين في منطقة على مصب نهر أبي الرقراق عند مدينتي سلا والرباط، وقد كانت الرباط في ذلك الوقت مدينة صغيرة غير مكتملة البناء، وقد كان الحرناشيون والأندلسيون بشكل عام من المقاتلين الأشداء، فانضموا إلى إخوتهم المغاربة في قتال الغزاة الإسبان والبرتغاليين الذين تمكنوا في ذلك الوقت من احتلال بعض المدن المغربية نتيجة لخيانة بعض السلاطين السعديين الذين تعاونوا مع هؤلاء الغزاة الصليبيين، وبعد أن تجاوز الحرناشيون الأندلسيون مرحلة الصدمة، قرروا الثأر من إسبانيا التي هجرتهم من وطنهم، فصاروا يبحرون بسفنهم في عرض المحيط الأطلسي للإغارة على سفن الغزاة الإسبان، ومع انتشار أخبار انتصاراتهم، انضم إليهم كثير من الموريسكيين الآخرين الذين هُجروا من أرضهم في الأندلس أيضًا، وانضم إلى هؤلاء أيضًا بعض المغاربة من العرب

والأمازيغ، وانضم إليهم كذلك كثير من البحارة الأوروبيين، كان بعض هؤلاء الأوروبيون من المسيحيين الذين أرادوا الانتقام من جرائم الإسبان الكاثوليك بحق المسيحيين البروتستانت، وكان من بينهم أيضًا كثير من الأوروبيين الذين أعلنوا إسلامهم، كثير منهم كان من الإنجليز، أحد هؤلاء كان الإنجليزي المسلم جاك بيردي الذي عاش في هذه المنطقة لفترة من الزمن.

-وهل هناك أسماء أخرى اشتهرت في التاريخ من الإنجليز الذين انضموا للمسلمين في ذلك الوقت؟

-لقد برزت الكثير من الشخصيات الإنجليزية المسلمة في ذلك الزمان يا عبد العزيز، كان من بينها ابن مقاطعة «نورفولك» الإنجليزية القائد الإنجليزي المسلم «سامسون رولي» « Samson Rowlie» الذي اشتهر بعد إسلامه باسم «حسن آغا»، وقد كان ضمن طاقم القائد الإنجليزي جاك بيردي العديد من البحارة الإنجليز المسلمين، ليس فقط الإنجليز هم من برزوا من الأوروبيين الذين أسلموا وانضموا إلى صفوف المسلمين في ذلك الوقت، بل كان من بين الأوروبيين المسلمين كثير من القادة الهولنديين الذين قادوا الأساطيل الإسلامية.

-لحظة من فضلك يا نضال، هل تريد أن تخبرني أنه كان يوجد في وقت من الأوقات قادة مسلمين من هولندا؟!

-ربما تصاب بالصدمة يا عبد العزيز عند معرفتك أن ثاني حكام مقاتلي البحار في المغرب هو القائد الهولندي المسلم «يان يانزون فان هارلم» «Jan Janszoon van Haarlem» المعروف بـ «مراد ريس الأصغر» «Murat Reis the Younger» الذي انتخب عام 1624م ليكون ثاني الحكام الذين قادوا تلك المجموعات المقاتلة، هذا القائد الهولندي لم يكن الوحيد الذي برز من بين الهولنديين المسلمين، فقد ظهر أيضًا القائد الهولندي المسلم «إيفان ديركي دي فينبور» «Ivan Dirkie De Veenboer»، الذي عرف بعد إسلامه باسم «سليمان ريس» «Sulayman Reis»، وقد كان هذا الهولندي من أبرز القادة في البحرية الهولندية، ولكنه بعد ذلك أسلم وصار يقاتل في صفوف البحرية العثمانية الجزائرية، ومن بين القادة الهولنديين المسلمين القائد الهولندي «زيمن دانسكر» «Zymen Danseker»، ابن مدينة «دوردريخت» الهولندية الذي هاجر إلى فرنسا وتزوج بابنة محافظ مدينة «مرسيليا» الفرنسية، قبل أن يهاجر منها إلى الجزائر ليعلن إسلامه وينضم إلى القوات الجزائرية، وقد عرف هذا القائد الهولندي بعد إسلامه باسم «الريس سيمون»

«Simon Reis»، وهو بالمناسبة أحد رفاق القائد الإنجليزي جاك بيردي، وقد أصبح مثله من قادة الأساطيل الإسلامية العثمانية الجزائرية والتونسية.

-لم أكن أعلم من قبل أن الهولنديين كان لهم تاريخ قديم جدًّا مع الإسلام، معرفتي بهولندا في السابق لم تتجاوز أسماء بعض لاعبي منتخب هولندا لكرة القدم! ولكن بالعودة إلى موضوعنا يا نضال، لم تخبرني كيف تكونت جمهورية مقاتلي البحار؟

-هذه المجموعات المختلفة من المقاتلين الأندلسيين والأوربيين والعرب والأمازيغ توحدت جميعًا تحت هدف واحد: الانتقام من الغزاة الإسبان وحلفائهم، فاستطاع هؤلاء المقاتلون عام 1614م تكوين كيان سياسي لهم بمنطقة مصب نهر أبي الرقراق عند مدينتي سلا والرباط، وقاموا بإرساء نظام حكم جماعي في المدينة، على رأسه قائد يتم انتخابه لولاية سنة واحدة، يساعده في الحكم مجلس استشاري يسمى «الديوان» مكون من 16 عضوًا يرأسه أمير بحر «أميرال»، وتم انتخاب «إبراهيم بارغاس» «Ibrahim Vargas» وهو أحد الأوروبيين الأندلسيين من الحرناشيين كأول حاكم لهذا الكيان، وبعده الهولندي «مراد ريس الأصغر» الذي كان الحاكم

الثاني، أعلن مقاتلو البحار استقلالهم التام عن السلطان السعدي، وأعلنوا قيام جمهوريتهم المستقلة عام 1624م، واستطاعوا الاستمرار في تلك الجمهورية لما يزيد عن 4 عقود، وخلال تلك الفترة تمكنوا من إلحاق هزائم كبيرة بالسفن الإسبانية، ثم أغاروا على سواحل إنجلترا وإيرلندا، وأبحروا بعيدًا بسفنهم حتى وصلوا إلى سواحل إيسلندا في أقصى الشمال الأوروبي، ولكن مع مرور الوقت تمزقت هذه الجمهورية نتيجة للصراعات بين المجموعات المختلفة، وأغرى حب السلطة والمال كثيرًا منهم، فوقعوا في وحل الفساد والخيانة، وتفرقت تلك الجمهورية الصغيرة إلى عدة دويلات مستقلة يستقوي بعضها على بعض بجهات أجنبية، وقد مرت المغرب بشكل عام في ذلك الوقت بمرحلة من التفرق والتشرذم بين كيانات سياسية مختلفة، حتى ظهر العلويون وتمكنوا من إنهاء وجود جمهورية بورقراق إلى الأبد عام 1668م، وبعد إنهائهم للفوضى التي سادت المغرب في ذلك الوقت تمكن العلويون من توحيد المغرب من جديد، ومازالت العائلة العلوية هي العائلة الحاكمة في المغرب منذ ذلك التاريخ.

-حسنًا يا نضال، إذا كنت قد فهمت كلامك جيدًا، ووفقًا

لتحليلك الذي خرجت به من حكاية القائد الإنجليزي جاك بيردي والصورة التي عثرنا عليها لفلم قراصنة الكاريبي، أنت ترى أن الخيط الأخير من خيوط لغز بربروسا موجود في المكان الذي وجدت فيه جمهورية بورقراق، وهذا يعني أنه ينبغي علينا البحث عن هذا الخيط بين مدينتي سلا والرباط، هل لديك أدنى فكرة عن مساحة هاتين المدينتين؟!

-ومن قال لك أننا سنبحث بين سلا والرباط؟ سأل نضال وهو يبتسم.

-يبدو أنك مصمم على أن أفقد ما تبقى من عقلي! لقد أمضيت ما يقرب من نصف ساعة وأنت تحكي لي حكاية جمهورية بورقراق التي وجدت بين هاتين المدينتين، وشرحت لي قبلها أن الهلال الذي أخفي من نقش الميدالية إنما يرمز لهذه الجمهورية، أستحلفك بالله أن تخبرني أين ينبغي لنا أن نبحث بالتحديد؟!

-لن نبحث في كل تلك المساحة يا عبد العزيز، سنبحث فقط في القلعة التي اتخذها مقاتلو البحار كعاصمة لهم.

-وما هي هذه القلعة التي كانت عاصمة لجمهورية بورقراق؟

-إنها «قصبة الوداية»، أقدم بناء في العاصمة المغربية الرباط.

-أعرف هذه القلعة جيدًا يا نضال، لقد زرتها من قبل في إحدى

الـرحلات المدرسـية، وهـي قصـبة كبـيرة جـدًّا، تحتـوي عـلى حصـون كثيرة مطلة على نهر أبي رقراق، وتنتشـر فيهـا كثير من الأبنية الأثرية التـي تتفـرع منهـا شبكة مـن الأزقـة القديمـة، ويؤسـفني أن أخـبرك أن البحـث في تلـك القلعـة عـن أي شيء يشـبه البحـث عـن إبـرة في كومـة قش!

-استمع إلي جيـدًا يـا عبـد العزيـز، استحضـار تـاريخ الإنجليـزي جـاك بـيردي ليكـون الرمـز الـذي يـدلنا عـلى الخـيط الأخـير مـن لغـز بربروسا له مدلول كبير، أعتقد أن واضع هذا اللغز المعقد أراد بذلك أن يشير إلى مكـان لـه علاقـة بكـل مـن جمهوريـة بـورقراق وهـذا البحـار الإنـجليزي.

-وما هو هذا المكان؟ تساءل عبد العزيز.

-لا أعلـم بالتحديد، ولكن الرقم 118 الموجود على هذه الصورة هو مفتـاحنا للوصول إلى ذلك المكان!

***

في قصبة الوداية

كان نضال وعبد العزيز يتنقلان بين الأزقة الضيقة لقصبة الوداية في العاصمة المغربية الرباط، ويتفحصان الأرقام التي وضعت لترقيم الأبنية الموجودة في تلك القلعة الكبيرة.

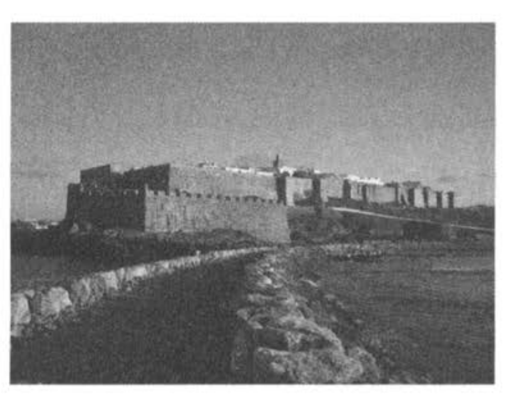
-هل زرت جنوب إسبانيا من قبل يا نضال؟ سأل عبد العزيز.

-لقد زرت إسبانيا لمرات عديدة، ولكن زياراتي إليها اقتصرت على العاصمة مدريد وبعض مدن الشمال الإسباني، أما الجنوب فلم أزره على الإطلاق، ولكن لماذا تسأل يا عبد العزيز؟

-هذه الأزقة والأبنية الموجودة في قصبة الوداية تذكرني بما شاهدته في مدن إقليم الأندلس في جنوب إسبانيا، فالأزقة والأبنية القديمة في إشبيلية وقرطبة وغرناطة تشبه إلى حد كبير ما نراه هنا في قصبة الوداية.

-لا تنسَ يا عبد العزيز أن أبنية هذه القصبة بنيت على الطراز الأندلسي، فبعد أن أسس أمير المرابطين يوسف بن تاشفين البناء الأول لهذه القلعة، قام الموحدون ببناء القصبة في القرن الثاني عشر الميلادي وأطلقوا عليها اسم المهدية، ولكن بعد انهيار دولة الموحدين أصبحت هذه القصبة مهملة لمئات السنين، حتى

استوطنها الموريسكيون الحرناشيون بعد طردهم من بلادهم في بداية القرن السابع عشر، وهؤلاء هم من أضفوا على هذه القصبة الصبغة الأندلسية التي تراها من حولك، ولعلك لاحظت أثناء تجولنا بين أزقة هذه القصبة أن كثيرًا من الأسماء التي مرت علينا هي أسماء لعائلات أندلسية موريسكية، مثل بيرو وبلامينو وتريدانو، وحتى بعد سيطرة العلويين عليها بعد انهيار جمهورية بورقراق، حرص ملوك العلويين على المحافظة على الطراز الأندلسي المميز لأبنية هذه القصبة.

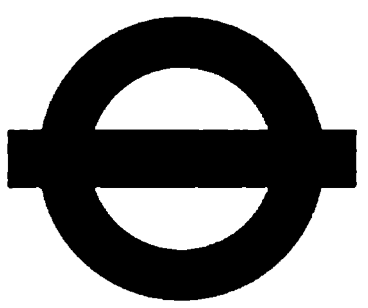


-نضال... انظر هناك! قال عبد العزيز مقاطعًا وهو يشير إلى أحد أبراج القصبة.

-ماذا هنالك يا عبد العزيز؟!

-انظر إلى ذلك البرج الذي يقابلنا، ركز نظرك على الموقع أعلى

الرجل المسن الذي يبيع الهواتف النقالة أمام البرج، ستجد لوحة معلقة مرسوم عليها رمز لدائرة يتوسطها خط، ألا يذكرك هذا الرمز بشيء؟



- إنه يشبه رمز «هيئـــــة النقل في لنـــــــدن» «Transport for London»، وقد لاحظت هذا الرمز أثناء مرورنا بالقرب من هذا البائع قبل قليل، ولكني اعتقدت أنه رمز يستخدم في المغرب لشـركة من شـركات الهواتف النقالة، أو لأي جهة من الجهات الحكومية، لذلك لم ألقِ له اهتمامًا.

-نحن لا نستخدم هذا الرمز في المغرب يا نضال، ألا يوحي لك هذا الرمز بشيء ما؟

-ماذا تقصد يا عبد العزيز؟!

ابتسم عبد العزيز ثم قال:

-اعذرني يا صديقي، نسيت أنك تعاني من نقص التركيز، هذا

الرمز هو نفس الرمز الموجود على محطة الحافلات المقابلة لشقتك في لندن، والتي تمر عليها حافلة واحدة فقط، هي الحافلة رقم 118.



وضع نضال يده على كتف عبد العزيز وقال له بسعادة واضحة:

-عبد العزيز، لا أعلم ماذا كنت سأفعل من دونك في هذه الحياة!

-نفس السؤال أطرحه دائمًا على نفسي عندما أركض خلفك لألحق بك بمفاتيحك وأغراضك التي تنساها عندي باستمرار بعد زياراتك لشقتي. قال عبد العزيز ضاحكًا.

-يبدو يا صديقي أن واضع لغز بربروسا يعرف عني الكثير من المعلومات، فهو يعرف حتى رقم الحافلة التي تمر أمام شقتي!

-لا تستغرب ذلك يا نضال، فمن خلال ما رأيته في هذه الأيام القليلة، تيقنت أن هذا الشخص لديه معلومات كافية عنك أتاحت له توقع تحركاتك وطريقة تفكيرك!

توجه نضال وعبد العزيز نحو البرج الذي علقت عليه تلك العلامة، فصعدا على قمته، وأخذا يتفحصان جدرانه مليًّا، ولكنهما لم يعثرا على أي شيء يثير الاهتمام، وبعد ما يقرب من الساعة من البحث المتواصل، قررا أخذ قسط من الراحة قبل معاودة البحث من جديد، فنزلا من أسفل البرج، وتوجها نحو بائع الهواتف الموجود أمام هذا البرج.

-السلام عليكم يا عم، كيف حالك؟

-وعليكما السلام، بخير والحمد لله، هل تريدان هاتفًا جوالًا أو بطاقة هاتفية؟

-عذرًا يا عم، لسنا بحاجة إلى شيء من هذا الآن، نريد فقط أن نشتري زجاجتين من المياه الباردة لو سمحت. قال عبد العزيز.

-ليس لدي مياه للبيع، ولكن تفضلًا واشربًا من هذه الزجاجة التي أشرب منها.

-شكرًا للطفك وكرمك يا عم. قال عبد العزيز ونضال.

وبعد أن فرغ الصديقان من شرب الماء وشكرًا البائع المسن مجددًا، توجه عبد العزيز إليه بالسؤال:

-ما حكاية هذا البرج يا عم؟

-أتقصد «برج الصراط»؟

-هل هذا هو اسمه؟! سأل نضال بفضول.

-صحيح أيها الشاب، هذا البرج هو أحد الأبراج الثلاثة الكبيرة المكونة لقصبة الوداية، وهي «الصقالة»، و«برج الدار»، و«برج الصراط»، وهذا البرج بالتحديد تم ترميمه في القرن الثامن عشر الميلادي، من قبل مهندس إنجليزي مسلم كان يُدعى «أحمد الإنجليزي» «Ahmed the English».

-يبدو أنك تعرف تاريخ هذا البرج جيدًا، منذ متى وأنت تبيع الهواتف النقالة من أمام هذا البرج يا عم؟ سأل نضال.

-أنا أبيع الهواتف والبطاقات الهاتفية في نفس هذا المكان أمام البرج منذ ما يزيد عن 10 أعوام كاملة.

-قل لي بالله عليك يا عم، هل يعني الرقم 119 لك شيئًا؟

-هذا الرقم هو الرقم الهاتفي الخاص بخدمة الرسائل الصوتية الخاصة.

-الرسائل الصوتية الخاصة؟! تساءل نضال.

-بعض الشركات الخاصة لا توفر للمتصل خدمة ترك رسالة صوتية في حالة عدم تمكن المتصل عليه من الإجابة على المكالمة، في هذه الحالة يمكن أن يحول المتصل المكالمة إلى هذا الرقم الذي يتيح خدمة ترك رسالة صوتية مسجلة بالمجان، وذلك بعد أن يختار رقمين سريين مكون كل منهما من 3 خانات، ولمزيد من إجراءات الأمن يشترط أن يكون الرقم الثلاثي الأول مكتوبًا، والرقم الثلاثي الآخر مسموعًا، وبعد ذلك يمكن للمتصل ترك رسالة مكتوبة للمتصل عليه بهذين الرقمين لكي يتمكن المتصل عليه بعد ذلك من الاتصال على الرقم 119 وسماع الرسالة الصوتية المسجلة، وذلك بعد أن يكتب أحد الرقمين السريين ويقرأ بعده الرقم السري الآخر.

-وماذا لو قام المتصل باختيار أرقام تم اختيارها من أحد قبله. تساءل عبد العزيز.

-في هذه الحالة يُطالب المتصل بتغيير الأرقام حتى يجد في نهاية الأمر رقمًا شاغرًا، وعلى أية حال هذا الأمر لا يتكرر كثيرًا، وذلك لأن الرسالة الصوتية المسجلة يتم حذفها مباشرة بعد الاستماع إليها لمرة واحدة، ويحذف معها الرقمين السريين الخاصين بها ليصبحا متاحين مرة أخرى.

ابتسم نضال، واتسعت حدقتا عينيه، وقال للبائع المسن وهو يودعه:

-شكرًا جزيلًا لك يا عم على معلوماتك القيمة، لقد استفدت منك كثيرًا، وأشكرك مجددًا على لطفك وكرمك.

بعد ذلك صعد نضال وعبد العزيز إلى أعلى البرج من جديد، فوقف نضال بجانب أحد المدافع الأثرية التي نصبت على سطح البرج وأخذ يتأمل من هناك منظر غروب الشمس عند مصب نهر أبي الرقراق في المحيط الأطلسي، بينما وقف عبد العزيز أمام نضال مستغربًا من صمته.

-بالمناسبة يا نضال، غروب الشمس جميل أيضًا في مدينة خريبكة، وبإمكانك تأمله لوقت طويل هناك، بينما أكون أنا بجوار أمي التي لا تعرف بوجودي بالمغرب حتى الآن لكي أتفرغ معك لهذا اللغز الذي قلب حياتي رأسًا على عقب، لذلك سأكون ممنونًا لك إن تركت هذا المنظر الجميل مؤقتًا لكي تركز قليلًا في حل لغز بربروسا!

-كل شيء يبدو منطقيًّا! قال نضال وهو يتأمل غروب الشمس.

-ماذا تعني يا نضال بكلامك هذا؟ تساءل عبد العزيز.

-رموز لغز بربروسا يا عبد العزيز، كل رمز من هذه الرموز يبدو

منطقيًّا، كل شيء متصل مع الشيء الآخر بشكل عجيب، هذا المكان وصلنا إليه عن طريق خيط جاك بيردي الإنجليزي المسلم، والآن نحن على برج رممه إنجليزي مسلم آخر، والذي دلنا على هذا البرج رمز لمحطة حافلات في لندن عاصمة إنجلترا، بينما نحن الآن في الرباط عاصمة المغرب، ليس ذلك فحسب، بل حتى رموز الأسماء تحمل معاني كبيرة، فهذا الخط الموجود وسط الدائرة في علامة هيئة النقل هو في حقيقة الأمر رمز للطريق الذي يربط بين نقطتين، وهذا البرج اسمه برج الصراط، أي برج الطريق، ونحن الآن في نهاية طريقنا في رحلتنا للبحث عن لغز بربروسا، وحتى الرقم الذي أرشدنا لهذا البرج هو رقم المحطة التي أصل عندها إلى شقتي، وبمعنى آخر أصل عندها إلى نهاية الطريق، حتى وجودي في هذا المكان بالتحديد في نهاية هذه الرحلة يبدو منطقيًّا للغاية، فقد أبحر الفينيقيون أجداد الفلسطينيين في رحلة طويلة إلى هذا المكان منذ أكثر من 3 آلاف عام وأسسوا مدينة «شالة» «Chellah» عند وادي نهر أبي الرقراق واتخذوها عاصمة لهم في المغرب الأقصى، كل رمز من رموز هذا اللغز يبدو منطقيًّا بطريقة مذهلة!

-ولكن هناك شيء لا يبدو منطقيًّا بالقدر الكافي يا صديقي، لقد أخبرنا العم الطيب قبل قليل أننا بحاجة إلى رقمين ثلاثيين لكي

نتمكن من الاستماع إلى الرسالة الصوتية المسجلة، ونحن لم يتبق لنا من بين أرقام الغربال إلا الرقم الأخير 120!

-هل لي أن أستعير هاتفك الذي به الشريحة المغربية لو سمحت؟

ناول عبد العزيز هاتفه النقال إلى نضال، فأسرع هذا الأخير بدوره بالاتصال على الرقم 119، وضغط على مكبر الصوت لكي يتيح لعبد العزيز مشاركته في الاستماع، فردت آلة مسجلة من شركة الاتصالات وطلبت الضغط على الرقم السري الأول، فضغط نضال على الرقم 120، وبعد ذلك مباشرة طلبت الآلة من المتصل أن ينطق بالرقم السري الثاني، فنظر عبد العزيز إلى عيني نضال مترقبًا، وبعد لحظة من الصمت مرت مثل الدهر على عبد العزيز، حرك نضال شفتيه بالرقم السري المطلوب، لقد كان هذا الرقم هو نفس ذلك الرقم الذي نطق به قبل ذلك بسنوات طويلة، طفل فلسطيني صغير، رفض أن يخضع لأمر أستاذه المستبد الذي حاول منعه بكافة السبل من البحث عن ذلك الرقم، رفض أن يكون مثل غالبية زملائه الذين كانوا يرددون ما يقال لهم كل صباح، رفض أن يكون مجرد تابع يقوم بما يؤمر به دون تفكير، رفض أن يكون سمكة ميتة يجرها التيار حيثما شاء، فاختار أن يبحث بنفسه عن ذلك الرقم الذي اكتشف أنه مجرد رقم بسيط، ولكنه مع بساطته كان يحمل في طياته معنىً كبيرًا للغاية،

معنى الصمود في وجه الرياح العاتية، معنى المقاومة وعدم الاستسلام للاستبداد والظلم، عدم الضعف في طريق الحياة الصعب، أو الإذعان لمن يريدون كسر الإنسان من داخله، لقد كان ذلك الرقم هو الرقم الذي غير من مجرى حياة نضال، ودفعه لحب العلم، وزرع فيه روح المغامرة والبحث والاكتشاف، لقد كان ذلك الرقم هو نفسه الرقم السري المطلوب: 101!



اشتقت إليك يا صغيري!

ما أن انتهى نضال من نطق الرقم مائة وواحد حتى ردت الآلة الصوتية بهذه الكلمات:

-لديك رسالة صوتية واحدة، تاريخ الرسالة هو 20 مايو.

بعد ذلك بدأ نضال وعبد العزيز بالاستماع إلى الرسالة الصوتية المسجلة:

-مرحبًا 101، اشتقت إليك يا صغيري، كنت واثقة أنك ستصل إلى هنا، وأنك ستنجح في فك خيوط هذا اللغز، فأنا لم أفقد يومًا الإيمان بك وبقدراتك منذ كنت طفلًا صغيرًا، والآن استمع إلي جيدًا يا نضال، وانتبه لما سأقوله لك في هذه الرسالة الصوتية، فأنت لن تستطيع سماعها سوى مرة واحدة، قبل أن تحذف هذه الرسالة من تلقاء نفسها. قبل سنوات طويلة، عندما كنت أنت في الثالثة من عمرك، كنت أعمل أنا على تحضير رسالة الدكتوراه في مجال التاريخ، وكان الموضوع الذي أبحث فيه موضوعًا جديدًا نصحني الكثيرون بتجنب البحث لندرة الدراسات السابقة بشأنه، إلا أنني تابعت البحث في نفس الموضوع، لأكتشف أن الأمر أكثر تعقيدًا مما كنت أعتقد في البداية، فهو يلقي الضوء على مرحلة محددة من تاريخ الأرض بقيت طي النسيان لمئات السنين، فزاد ذلك من إصراري على

متابعة البحث، وراسلت بعض الجامعات العالمية للتزود بالمصادر والأبحاث السابقة المتعلقة بالموضوع، بعد أن أطلعتهم على ملخص ما توصلت إليه في ذلك البحث، فتفاجأت أن أحد أشهر أساتذة التاريخ في العالم تواصل معي بشكل شخصي، وأبدى إعجابه بموضوع البحث، وطلب معرفة ما توصلت إليه حتى تلك اللحظة، وعندما علم ببعض ما لدي من معلومات، سافر بنفسه إلى غزة، فدعاه والدك لزيارتنا في المنزل، فتفاجأنا أنا ووالدك بأن هذا الأستاذ الأجنبي يعرض علي مبلغًا كبيرًا من المال مقابل منحه كل ما توصلت إليه والتوقف نهائيًا عن البحث في هذا الموضوع، ولكني رفضت تلك الفكرة من الأساس، وشجعني أبوك أكثر على مواصلة البحث وعدم التوقف لأي سبب من الأسباب، بعد أن أحسست أن عرضه هذا لم يكن سوى محاولة منه لإسكاتي، وتأكد لي هذا الأمر بعد أن علمت أن هذا الأستاذ يتبع إحدى الجمعيات الخيرية التابعة لمنظمة القديس يوحنا، وبعد أن فشلت كل محاولات الإغراءات المادية، بعثت إلي تلك المنظمة برسالة تهديد مباشر تخبرني بأنهم لن يتخلصوا مني بشكل شخصي لكي لا يثير ذلك الانتباه لأهمية البحث، بل سيقومون عوضًا عن ذلك بالتخلص من عائلتي بطريقة تبدو وكأنها حادث عرضي، فأخبرت والدك بهذا الأمر، وبنيتي

التوقف عن مواصلة البحث في هذا الموضوع نهائيًّا، إلا أنه قلل من شأن تلك التهديدات، وأقنعني بالاستمرار في البحث وعدم الالتفات لمثل تلك التهديدات التي كانت حسب رأيه غير جادة، ولكن بعد ذلك بنحو شهرين من الزمان تعرض والدك إلى حادث مروري توفي على إثره في طريقه إلى المستشفى، فأيقنت وقتها أن حياتك أصبحت في خطر، لمعرفتي السابقة بالتاريخ الإجرامي لهذه المنظمة، فتواصلت بعد ذلك مع مسؤولي المنظمة وأخبرتهم بأني أنوي التوقف عن مواصلة البحث، وأرسلت لهم نسخة عن نتائج الدراسة بعد أن قمت بإخفاء المعلومات الأكثر أهمية واستبدالها ببعض المعلومات المغلوطة، وحصلت منهم على مبلغ خيالي من المال لإقناعهم بشكل أكبر بأنني استسلمت لهم، ولكن الحقيقة التي لم يعلمها هؤلاء المجرمون أنني اتخذت قرارًا بالانتقام لأبيك منهم، ومواصلة البحث وكشف الحقائق التي يريد هؤلاء الأشرار إخفاءها عن البشرية، ولكن في نفس الوقت لم أرد إلحاق الأذى بك، فطلبت من عمتك خديجة الاعتناء بك بعد أن أخبرتها بكل تفاصيل الحكاية، فتركتك في أمانة عمتك ورحلت عن البلاد لمواصلة أبحاثي بشكل سري من خارج فلسطين، وبعد رحيلي بأشهر قليلة اختلقنا أنا وعمتك خبر وفاتي حزنًا على أبيك، ونشرت عمتك خبر الوفاة في

كل مكان، خاصة في أرجاء الجامعة حيث كنت أعمل، ولم يعلم أحد ببقائي على قيد الحياة سوى عمتك خديجة فقط، حتى زوجها لم يكن يعلم بذلك، وقررنا أن نكتم عنك أمر بقائي على قيد الحياة لكي لا نعرضك للخطر. لقد كان بعدي عنك يا صغيري عذابًا يفوق عذاب الغربة والبعد عن الوطن، ولكن الشيء الذي كان يهون علي الأمر هو متابعة أخبارك أولًا بأول ورؤية صورك وأنت تكبر بسرعة، فقد كنا أنا وعمتك نتواصل باستمرار مع بعضنا البعض عبر طرق اتصال آمنة للاطمئنان عليك ومناقشة كل ما يستجد في حياتك، وقد كنت أشترك مع عمتك في تربيتك وتعليمك دون أن تشعر أنت بذلك، حتى إن كثيرًا من الألغاز التي كانت عمتك خديجة تدربك عليها في صغرك كانت من إعدادي، وكم كنت أحس بالسعادة والفخر وأنا أتابع أخبارك المفرحة من خلال عمتك خديجة، في نفس الوقت واصلت العمل على بحثي الذي اكتشفت أنه أعمق وأخطر بكثير مما كنت أعتقد في البداية، فسكنت في قرية نائية من قرى المغرب، وتعرفت على سيدة مغربية كانت لي بمثابة الأخت، وكنت أسافر من هنا إلى مناطق مختلفة في العالم لكي أتمكن من الوصول إلى المعلومات التي أحتاجها لإكمال بحثي دون أن أثير الريبة، وخلال سنوات طويلة من البحث والدراسة توصلت إلى معلومات في غاية الخطورة

فهمت بعدها سر حرص منظمة القديس يوحنا على الحصول عليها، وقبل أن أتمكن من إكمال البحث بشكل نهائي لاحظت حرص إحدى الشركات الكبرى للبحث في نفس الموضوع التاريخي الذي أبحث فيه، ويبدو أنهم علموا بطريقة ما أنني راسلت في السابق بعض الجامعات الأجنبية في نفس الشأن، فحاولت تلك المنظمة التواصل مع عمتك للسؤال عني وعن مصير البحث، فأخبرتهم عمتك أنني توفيت منذ زمن طويل، وأنها لا تعلم شيئًا عن أمر هذا البحث، وبعد تقص حول نشاطات تلك الشركة تبين لي أنها مجرد غطاء لمنظمة إجرامية خطيرة تريد إحياء تنظيم الحشاشين السري من جديد، وبعدها بأيام علمت بخبر وفاة عمتك خديجة في حادث مروري، في نفس الوقت أحسست بتحركات مريبة بدأت تنشط من قبل جمعيات تابعة لفرسان القديس يوحنا، وعلمت بأن هناك بعض من يسأل عني في الأماكن والمكتبات التي كنت أتردد عليها خلال هذه السنوات، لذلك قمت على الفور بإخفاء البحث في مكان آمن، وتركت لك رسالة وورقة البردي باللغز الذي أرشدك من خلاله إلى مكان هذه الرسالة الصوتية التي تسمعها الآن، وذلك ليقيني الكامل بأنك أنت فقط من سيتمكن من فهم رموز هذا اللغز والوصول إلى هنا، أما بالنسبة للبحث فقد تركته أمانة عند شيخ مصري طيب

يعمل كبواب في مكتبة الإسكندرية التي كنت أبحث لسنوات في أرشيفها القديم، هذا الرجل اسمه الحاج متولي، أخبره فقط بأنك جئت لاستلام الملف الورقي الذي تركته عنده السيدة الفلسطينية التي كانت أول من يأتي إلى المكتبة في الصباح، وحذاري أن تثير الريبة أو تفكر بالبحث أو السؤال عني في المكتبة أو أي مكان آخر، فأنا عند استماعك لهذه الرسالة سأكون في غالب الأحيان قد رحلت عن الدنيا بعد تمكن إحدى تلك المنظمتين من العثور علي والتخلص مني، وبحثك أو سؤالك عني سيجعلك في مرمى هؤلاء القتلة، وسيتيح لهم العثور عليك والتخلص منك، وبذلك ستضيع فرصة كبيرة للبشرية بالكشف عن ذلك السر الذي بقي طي الكتمان لما يزيد عن 1500 عام، لذلك بعد سماعك لهذه الرسالة حاول أن تسافر إلى مصر في أسرع وقت، وتوجه إلى مكتبة الإسكندرية لكي تتسلم الملف الذي تركته لك، واعمل قصارى جهدك لإكمال ذلك البحث بعد أن تدرسه بشكل جيد، فأنت فقط من يستطيع إكمال هذه المهمة، وبعد ذلك اكشف ذلك السر للبشرية بأسرها بعد أخذ الاحتياطات اللازمة لسلامتك، وكن رجلًا قويًا مثل أبيك، فقد كان أبوك رجلًا قويًا يرفض الاستسلام أو الرضوخ للإغراءات والتهديدات، ولقد كنت أرى السعادة تلمع في عينيه عندما كان يحملك بين يديه، وكان

يخبرني دائمًا أنه يرى الأمل في عينيك الصغيرتين، أما عمتك الرقيقة خديجة فأنت تعرفها أكثر مني، لا تنسَ تلك الإنسانة الرائعة في صلاتك ودعائك، وتذكر يا صغيري أن أمك عاشت حياتها كلها تحبك، وأنها ما تركتك إلا رغمًا عنها، ولو كانت تستطيع غير ذلك لأبقتك في حضنها طيلة العمر، ولكنه قدرنا... وحكمة الله... وطريق الحياة... أستودعك الله يا صغيري... والسلام.

* * *

سر عبد العزيز

كانت دموع نضال تسيل على خديه بينما كان يستمع إلى رسالة أمه الصوتية، فلقد أحيى ذلك الصوت الذي يتذكر وقعه جيدًا ذكريات طفولته المبكرة، وهيجت تلك الكلمات مشاعره التي كانت حبيسة صدره لسنوات طويلة، وأجابت عن كثير من الأسئلة التي كانت تدور في رأسه، وبعد لحظة من الصمت، نظر نضال نحو عبد العزيز وسأله قائلًا:

-منذ متى وأنت تعلم بشأن أمي؟

-لا أفهم ما تقصد يا نضال؟

-أنت تفهم جيدًا ما أقصده يا عبد العزيز، يبدو أن أمي كانت على علم كامل بكل تحركاتي في بريطانيا، لقد كنت أنت مصدر معلوماتها الدقيقة عني، وهذا ما يفسر كثيرًا من الأمور، لقد خططت منذ البداية لتكون قريبًا مني، فقمت باختلاق تلك المشادة التي وقعت بيننا في أول لقاء بيننا في الجامعة، وذلك ليظهر تعارفنا وكأنه جرى بمحض الصدفة، ومع مرور الوقت أصبحت صديقي المقرب، وبذلك أمكنك معرفة الكثير عن مجريات حياتي، ومن ثم نقله إلى أمي، لقد كنت على تواصل مباشر معها، وهذا ما يفسر سر عودتك المفاجئة من المغرب مؤخرًا، لم يكن اشتياقك لطقس لندن السيء هو ما دفعك لقطعك لإجازتك الصيفية، بل كان السبب الحقيقي هو أنك أردت أن تسلمني رسالتها التي تحتوي على لغز بربروسا، لقد كنت أنت الشخص الذي كان يخبرها بكل تفاصيل حياتي الدقيقة، لذلك انتبهت بسرعة إلى إشارة محطة الحافلات التي تقع أمام شقتي في لندن، لأنك تعلم أنك أخبرتها بهذه المعلومة أيضًا!

-لقد كانت تسافر بنفسها بين الحين والآخر إلى لندن فقط لكي تقف في تلك المحطة لتراك وأنت تمشي من أمامها كل صباح!

-إذا فقد كنت تعلم بأمرها!

-حسنًا يا 101، لقد عاهدت خالتي عائشة على عدم إخبارك بأمرها تحت أي ظرف من الظروف، فلقد كانت أمك حريصة أشد الحرص على عدم التواصل معك خوفًا من أن يصيبك مكروه بسببها، وطلبت مني كتمان أمرها عنك حتى في حالة وفاتها أو اختفائها، ولكن طالما أنك استطعت معرفة هذا الأمر بنفسك، فبإمكاني الآن إخبارك بكل شيء، لقد جاءت أمك إلى المغرب منذ ما يقرب من 20 عامًا، وقامت بشراء بيت في إحدى القرى النائية التابعة لمدينة خريبكة، وأنشأت في تلك القرية جمعية تعاونية لمساعدة الأرامل، فكانت أمك يا نضال تساعدهن بالبدء بمشاريع يدوية صغيرة، وكانت أمي من بين الأرامل اللائي استفدن من تلك الجمعية، ومع مرور الوقت تكونت صداقة بين أمي وأمك، ثم تطورت تلك العلاقة من الصداقة إلى الأخوة، فأصبحت الخالة عائشة بمثابة أمي الثانية.

-أخبرني أكثر عن أمي يا عبد العزيز. قال نضال بعينين دامعتين.

-لقد كانت أمك يا نضال إنسانة رقيقة ومثقفة، كانت تحب الخير لكل الناس، إلا أن حبها لك كان شيئًا يفوق الوصف، فقد كانت عادة ما تروي لي عن السنوات القليلة التي عاشتها معك، وكم كانت سعادتها بالغة عندما كانت تتصل بعمتك لتعرف منها أخبارك المفرحة، في حين أنها كانت تبكي دون انقطاع عندما تخبرها عمتك بخبر مرض أو مكروه أصابك، لقد كانت أمك إنسانة حساسة للغاية، فحتى عندما كبرت

ودخلت الجامعة في لندن، كانت تشعر بالقلق البالغ عليك طيلة الوقت، وهذا الأمر هو ما دفعني لنقل دراستي من فرنسا إلى لندن، فتمكنت بذلك نقل أخبارك إليها باستمرار، وقد كنت أحرص على الاتصال بأمي أثناء وجودي معك، وذلك لكي تستمع أمك إلى صوتك أثناء المكالمة لتقر عينها.

-هل كنت تعلم بحكاية أمي وما حصل لأبي وعمتي؟

-على الإطلاق، يبدو أن أمك كانت تحرص على عدم إخبارنا بهذا الأمر لكي لا تعرضنا لخطر تلك العصابات الإجرامية، كل ما كنا نعرفه عنها أنها سيدة فلسطينية فقدت زوجها في حادث مروري، وأنها لا تستطيع التواصل مع ابنها لكي لا تعرضه لخطر بعض الأشرار، ولكن قبل ما يقرب من شهرين، وبالتحديد بعد وفاة عمتك، سافرت الخالة عائشة خارج المغرب لفترة قصيرة، ثم عادت وتركت لدى أمي الظرف البريدي الذي يحتوي على لغز بربروسا، وطلبت منها أن أوصله إليك في حالة اختفائها أو تعرضها لأي مكروه، وأثناء إجازتي الصيفية، لاحظنا غياب أمك لفترة من الزمن دون أي اتصال، فذهبنا إلى منزلها للاطمئنان عليها، وكانت أمي تحتفظ بنسخة من مفتاح منزلها، وعندما دخلنا المنزل لم نجد الخالة عائشة فيه، ولاحظنا أن هناك من قام بتفتيش المنزل بطريقة دقيقة، فأخبرتني أمي بأمر الرسالة، وطلبت مني السفر على الفور لكي أوصلها إليك.

-إذا فقد قتل هؤلاء الأوغاد أمي بعد أن قتلوا أبي وعمتي خديجة.

-ليس تمامًا يا نضال، فبعد اختفاء أمك قمنا بإبلاغ الشرطة، فلم نعثر لها على أثر في أي مكان، وظهر من بيانات الشرطة أنها لم تغادر المغرب

من أي من مطارات البلاد، ولكني تواصلت مع أحد أصدقائي الذين يعملون في مطار الدار البيضاء، وأرسلت له صورة شخصية لأمك، فاستطاع جهاز الحاسوب الخاص بأمن المطار التعرف على وجهها، ولكن الغريب أن بيانات الحاسوب أوضحت أن أمك غادرت المغرب إلى العاصمة الإيرانية طهران بجواز سفر إيراني!

-يبدو أنهم عندما لم يجدوا شيئًا في منزلها، قرروا اصطحابها معهم وسجنها لكي تعطيهم المعلومات المطلوبة، وهذا في حد ذاته مؤشر قوي على سلامتها، فلو أنهم حصلوا على المعلومات المطلوبة، لقاموا بالتخلص منها على الفور!

-ولكن من هم هؤلاء الذين تتحدث عنهم يا نضال؟

-لا أعلم بالتحديد، على الأرجح تنظيم إجرامي تابع للحشاشين الجدد، فإيران هي المكان الذي توجد فيه قلعة آلموت التي كانت مقرًا لتنظيم الحشاشين قديمًا، وربما أعاد تنظيمهم الجديد بناء تلك القلعة التاريخية لتكون مقرًا لهم، لذلك ينبغي علي أن أسافر إلى إيران لكي أبحث عن أمي هناك.

-لن أتركك تسافر وحدك إلى ذلك المكان الخطير يا صديقي! قال عبد العزيز مقاطعًا.

-أعتقد يا عبد العزيز أن أمك في حاجة إليك أكثر مني، فأنت ابنها الوحيد، وهذه المهمة غير مضمونة العواقب، أشكرك على كل ما قمت به من أجلي وأجل أمي، ولكن حان الوقت لكي أكمل هذا الطريق لوحدي.

-استمع إلي جيدًا يا نضال، عندما سافرت إلى لندن قمت بذلك

كبادرة شكر ومحبة نحو خالتي عائشة، وأعترف أنني سعيت لصداقتك في بداية الأمر فقط من أجل ذلك السبب، ولكن بعد أن تعرفت عليك عن قرب، أحسست بأنني وجدت الأخ الأكبر الذي لطالما كنت أبحث عنه، لذلك فأنا لن أتركك تخوض هذه المغامرة لوحدك، خاصة بعد معرفتي بحكاية أمك وتضحياتها هي وبقية أفراد عائلتك، أضف إلى ذلك أنه لا يمكن الاعتماد على ذاكرتك الضعيفة في رحلة خطيرة مثل هذه الرحلة.

قال عبد العزيز وهو يبتسم.

-وهو كذلك يا صديقي، ولكن قبل السفر إلى إيران، علينا السفر إلى مصر أولًا لاستلام البحث التاريخي الذي تركته أمي لي، وسيكون هذا البحث هو الورقة التي سنضغط من خلالها على الحشاشين الجدد من أجل ضمان سلامة أمي، وسيكون أيضًا بمثابة الطعم الذي سنجر من خلاله قراصنة القديس يوحنا للمساهمة في تحريرها من قبضة هؤلاء الحشاشين.

-هل ستقوم بتسليم البحث إلى هاتين المنظمتين يا نضال؟

-بالقطع لا يا عبد العزيز، فلم يقم أبي بالتضحية بروحه، ولم تقم عمتي بالتضحية بحياتها، ولم تقم أمي بالتضحية بزهرة شبابها، من أجل أن أقوم أنا في نهاية الأمر بخيانة تضحياتهم وتسليم هذا البحث لشرذمة من القراصنة والحشاشين، كل ما في الأمر أنني سأقوم بضرب هؤلاء القتلة ببعضهم البعض، وفي نهاية الأمر لن يحصلوا على شيء مني سوى تقديمهم إلى العدالة، لكي ينالوا عقابهم الذي يستحقونه.

***

-ولكن هل لديك فكرة عن طبيعة البحث الذي أجرته أمك طيلة تلك السنين؟ ما هو ذلك السر الذي يسعى هؤلاء جميعًا للوصول إليه؟

-هذا ما سنعرفه يا عبد العزيز قريبًا إن شاء الله في مدينة الإسكندرية المصرية، ولكن إن صح ظني فإني أعتقد أن الأمر متعلق بالقسيس المسيحي الموحد «آريوس» «Arius»!

-ومن يكون ذلك القسيس الذي تتحدث عنه يا نضال؟

-هو قسيس من أتباع نبي الله عيسى عليه السلام، وقد عاش نهاية القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع الميلادي.

-ولماذا تعتقد أن البحث التاريخي الذي قامت به أمك متعلق بهذا القسيس؟

-لعدة أسباب، أولها موجود في لغز بربروسا نفسه، فكما شاهدنا كل رمز من الرموز الموجودة في لغز بربروسا كان يدل على مكان محدد، وقد كان غربال إراتوستينس بمثابة الدليل الذي بين الأرقام التي احتجنا إليها في لغزنا، وقد كنت منذ البداية أتعجب من رسم الغربال في الرسالة بدلًا من ذكر الأرقام التي احتجناها فقط، ولكنني أعتقد الآن أن الغربال نفسه كان بمثابة رمز للمكان الذي يوجد فيه مركز اللغز، لذلك تم وضع الكرة الأرضية في منتصفه، ليس فقط

للإشـارة إلى إراتوسـتينس الـذي قـاس محيط الأرض، ولكـن أيضًـا للدلالة على ذلك السر الخطير من تاريخ الأرض الذي بقي محجوبًا خلـف قفـص لم يسـمح بخروجـه إلى البشـرية، ووجـود إشـارة إلى إراتوستينس يحمل في طياتـه رمزيـة كبيرة إلى آريوس، فإراتوسـتينس ولد في مدينة شحات الليبية، وهي المدينة التي ولد فيها آريوس، ثم استقر في مدينـة الإسكندرية المصرية، وهـي أيضًـا نفس المدينـة التـي استقر فيها آريوس، وقد كنت محقًّا يا عبد العزيز في تحليلك في بداية مغامرتنـا عنـدما اعتقـدت أن مصـر هـي المقصـودة باسـتخدام ورقـة البـردي، استنتاجك صحيح، فاستخدام ورقة البردي لتكتب عليها رموز لغز بربروسا يحمل إشارة قوية إلى مدينة الإسكندرية المصرية التـي كانـت المصـدر الأول لـورق البـردي في العـالم، أضـف إلى ذلـك اختيار أمي للإسكندرية لإجراء بحوثها هناك، واختيارها لهذه المدينة المصـرية لكـي تخبأ فيهـا البحـث، هـذا كلـه مؤشر عـلى محوريـة مدينـة الإسـكندرية في مغامرتنـا القادمـة، وهـذه المدينـة كانـت بمثابـة نقطـة الانطلاق لـدعوة آريوس التوحيدية في أنحاء العـالم، الـذي قـد تشـير إليه الكرة الأرضية المرسومة داخل الغربال.

-وما هي النقطة الثانية يا نضال؟

-النقطة الثانية يا صديقي هي الرسالة الصوتية التي تركتها أمي،



فقد قالت إن ذلك السر بقي طي الكتمان لما يزيد عن 1500 عام، وهو مؤشر للوقت الذي ظهر فيه آريوس ودعوته، أضف إلى ذلك التاريخ الذي اختارته أمي لتسجيل هذه الرسالة الصوتية، وهو تاريخ الـ 20 من شهر مايو.

-وما رمزية هذا التاريخ؟ تساءل عبد العزيز.

-هذا التاريخ 20 مايو 325م هو التاريخ الذي بدأت فيه اجتماعات المؤتمر المسكوني الأول المعروف بـ «مجمع نيقية الأول» «First Council of Nicaea».

-وما حكاية هذا المجمع؟

-حكايته طويلة يا صديقي، سأشرحها لك لاحقًا إن شاء الله، ولكن يكفيك أن تعلم أن آريوس كان قائد أحد الفريقين اللذين شاركا في هذا المجمع.

-ولكن يا نضال يمكنني أن أفهم سعي فرسان القديس يوحنا للوصول إلى سر آريوس لإبقائه مخفيًّا عن البشرية، ولكن لماذا يسعى الحشاشون الجدد للوصول إلى هذا السر؟!

-الأمر يتعلق بالسلطة والنفوذ يا صديقي!

-لم أفهم ما تقصده، عن أي سلطة ونفوذ تتحدث؟

-أي منظمة إجرامية تهدف للسيطرة على البشر تسعى في بداية

الأمر للحصول على شيء مهم للغاية يساعدها للوصول إلى هدفها، هذا الشيء هو المال!

-ما زلت لم أستوعب كلامك جيدًا، ما علاقة المال بسر آريوس؟ تساءل عبد العزيز من جديد.

-أصغِ إلي جيدًا يا عبد العزيز، بعد رحيل آريوس، قام عدد من أباطرة وملوك العالم باتباع المذهب التوحيدي الذي نسب فيما بعد لآريوس، لذلك سمي هؤلاء المسيحيون الموحدون بـ «الآريسيين» «The Arians»، ويكفيك أن تعلم أن أعظم وأغنى أباطرة الرومان البيزنطيين في التاريخ، والمعروف باسم «الإمبراطور قسطنطين العظيم» «Emperor Constantine the Great» كان من بين هؤلاء الموحدين، وقد تمكن الفاندال الآريسيون بعد ذلك احتلال عاصمة الرومان التاريخية «روما» عام 455م، وقاموا باغتنام الكثير من الكنوز التي كان الرومان يسرقونها من شعوب الأرض، ونقلت هذه الكنوز إلى الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها في شمال أفريقيا، وخاصة إلى عاصمتهم في تونس، تخيل معي يا عبد العزيز مقدار الكنوز التي ربما ما زالت مخبأة إلى يوم الناس هذا في مناطق سيطرة الآريسيين، ولا شك أن منظمة إرهابية وليدة مثل منظمة الحشاشين الجدد تسعى للحصول على هذه الكنوز الطائلة لكي تستعين بها للبدء في تنفيذ مخططها الشرير بالسيطرة على العالم.

-وهل كان الإمبراطور قسطنطين العظيم بالفعل من الآريسيين؟

-جل المراجع التاريخية الغربية تؤكد هذا الأمر، يكفيك فقط أن تقرأ ما كتبه المؤرخ الأمريكي البروفيسور «مارك الينكسون» «MarkEllingsen»، وذلك في موسوعته التاريخية الكبيرة «Reclaiming our roots» «الرجوع إلى جذورنا»، والتي ذكر فيها: «بأن قسطنطين وخلفاءه جعلوا الحياة بائسة جدًّا لزعماء الكنيسة النيقيين ودعوتهم التثليثية»، أما بالنسبة للمراجع العربية، فعليك فقط أن تقرأ ما كتبه الإمام ابن حزم الأندلسي في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» في معرض حديثه عن آريوس: «والنصارى فرق منهم أصحاب أريوس، وكان قسيسًا بالإسكندرية، ومن قوله التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى التي بها خلق السموات والأرض، وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية، وأول من تنصر من ملوك الروم، وكان على مذهب أريوس».

-ولكن لم تخبرني ما هي حكاية آريوس منذ البداية؟ وما حكاية الآريسيين؟ وكيف استطاعوا الوصول إلى قمة هرم الإمبراطورية الرومانية؟ وأين اختفوا؟ ولماذا يراد لتاريخهم أن يبقى طي الكتمان؟

-هذا موضوع شرحه يطول يا صديقي، ويمكننا مناقشته إن شاء الله أثناء رحلتنا إلى الإسكندرية.

-حسنًا يا نضال، ولكن أريدك أيضًا أن تحدثني عن بقية حكايتك أنت، فأنت أثناء رحلتنا في البحث عن لغز بربروسا لم تحدثني سوى عن طفولتك المبكرة، بالمناسبة يا نضال، لم تخبرني المزيد عن الطفل العبقري الذي كان مصدر إلهام لك في طفولتك.

-أتقصد أحمد ابن الجيران؟ سأل نضال مبتسمًا.

-هو ذاته، لقد كان خيال ذلك الطفل واسعًا، أعتقد أنه أصبح الآن مخترعًا كبيرًا مثل العالم الجزري، هل ما زلت على تواصل معه؟

-للأسف لا، فقد انقطعت علاقتي بأحمد منذ وصوله إلى الصف الرابع الابتدائي، فقد سرنا أنا وهو في طريقين مختلفين، ففي حين قاومت أنا الضغوط التي كنت أتعرض لها في المدرسة، استسلم هو لتلك الضغوط، وبعد أن كان طفلًا مبدعًا ومسليًا، حوله النظام التعليمي الفاشل مع مرور الوقت إلى آلة بشرية يتم برمجتها من قبل الآخرين، ففقد روح الإبداع التي كان يمتلكها في صغره، حتى روحه المرحة فقدها مع مرور الوقت، فلم نعد نسمع منه حكاياته المسلية التي كنا نستمتع بها ونستفيد منها، وصار أحمد ابن الجيران عوضًا عن ذلك يردد فقط ما كان يسمعه من أساتذته!

-أمر مؤسف بالفعل، لقد أثرت فضولي بهذا الكلام لمعرفة بقية حكايتك يا 101، وقد كنت في السابق أتجنب سؤالك عن حكايتك

كي لا أثير ريبتك حولي، ولكني الآن أرغب الآن بمعرفة المزيد عنك وعن حياتك، أريد معرفة بقية الحكاية، كيف كانت حياتك في فلسطين بعد غياب والديك؟ وكيف تمكنت من الوصول إلى بريطانيا في ظل الظروف الصعبة التي كنت تعيشها؟

ابتسم نضال ثم قال:

-صديقي العزيز عبد العزيز، نحن مقبلون على رحلة مجهولة وطويلة لا نعرف إن كنا سنرجع منها أم لا، وإذا قدر الله لنا البقاء على قيد الحياة، فأعدك أن أروي لك بقية الحكاية خلال هذه الرحلة، ولكن وقبل كل شيء ينبغي علينا القيام ببعض الأمور المهمة للاستعداد لمغامرتنا الجديدة... مغامرة البحث عن «سر آريوس»!

يتبع...

Jehad

للتواصل مع الكاتب:

بريد إليكتروني: Jehad.tr@hotmail.com

تويتر: @alturbani

إنستغرام: jehadalturbani

فيسبوك: مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ

* * *


الفهرس

الفهرس



101 لغز بربروسا

- ما هي حكاية القائد بربروسا؟ وكيف استطاع إنقاذ آلاف الأبرياء من محاكم التفتيش في الأندلس؟
- ما هو غربال إراتوستينس؟ وما هي متتالية فيبوناتشي؟ وما علاقة كل منهما بلغز بربروسا؟
- كيف استطاع المسلمون إنقاذ فرنسا من الاحتلال؟ وكيف حول الملك فرانسوا الأول ميناء طولون الفرنسي إلى قاعدة عسكرية بحرية للقائد بربروسا؟
- أين يقع برج الجماجم؟ ولماذا سمي بهذا الاسم؟
- من هم قراصنة القديس يوحنا؟ وأين تقع قلعتهم التي أسروا فيها القائد عروج؟ وكيف استطاع هذا القائد المسلم الهروب من أسر هؤلاء القراصنة؟
- أين تقع قلعة آلموت الرهيبة؟ وما الذي كان يحدث لمن يدخل في تلك القلعة؟
- ما هي القصة الحقيقية لبطل أفلام قراصنة الكاريبي الكابتن جاك سبارو؟ وهل كان هذا القائد الإنجليزي مسلماً؟ وما هي علاقته بتونس؟
- كيف كانت الجزائر مقراً لأقوى أسطول بحري في العالم؟ وما هو سر السفينة الموجودة في مدينة جيجل الجزائرية؟
- ما حكاية دولة مقاتلي البحار التي أنشأت على سواحل المغرب؟ ومن هو القائد الهولندي المسلم الذي كان رئيساً لتلك الدولة؟
- من هو القائد الإيطالي المسلم الذي تولى القيادة العامة للأسطول الإسلامي؟ وما هي تفاصيل خطته الخطيرة التي وضعها لإعادة الأندلس؟
- ما حكاية الخزنة الرقمية السرية التي صنعها العالم المسلم الجزري؟ وما حكاية كتابه العجيب الذي حرص ليناردو دافنشي على قراءته؟
- كيف كانت سفن الولايات المتحدة الأمريكية تبحر تحت حماية الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط؟ وما تفاصيل معاهدة طرابلس التي جرت مباحثاتها في زمن الرئيس جورج واشطن؟





٨ شارع البيطار - خلف الجامع الأزهر - القاهرة - مصر
ت: ٠٢٤٤٧١٥٥٠٦ - ٠٢٢٥١٤١٧٠٤ - ٠١٢٧٩٢٦٣٦١٠
daraltakwa.cairo@gmail.com